

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشـــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

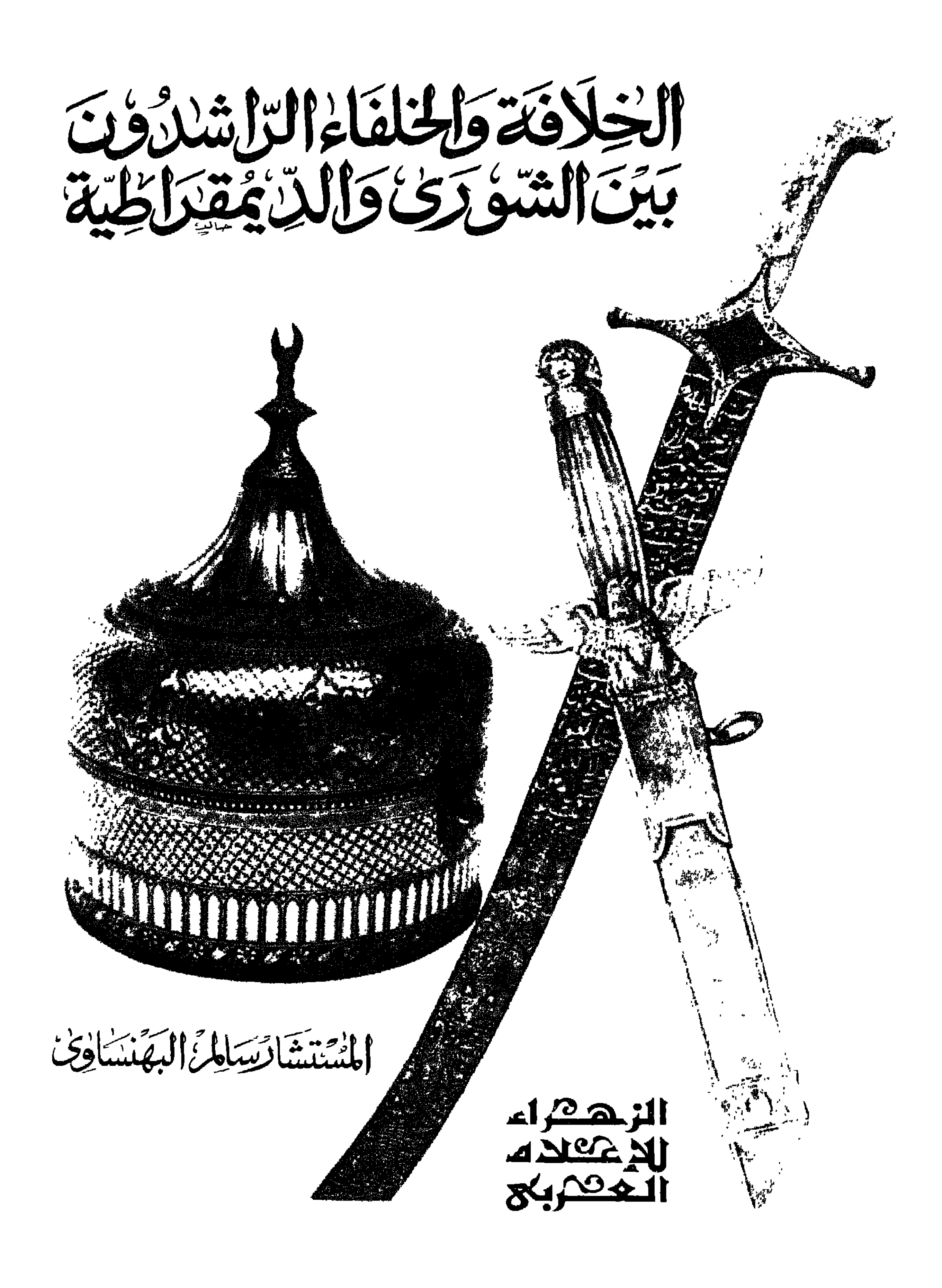
«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولـى
١٤١٢ هـ ـــ ١٩٩١ هـ

الجمع التصويري والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربي

الخلافة والخلفاء الراشدون
بين الشورى والديمقراطية



المستشار سالم البهنساوي

الزهراء
للإعلام
العربي

بين يدي الكتاب

لقد كانت الفترة المكية من حياة الصحابة فترة ابتلاء لا يقدر عليه إلا من باع نفسه وأمواله لله رب العالمين .

ولقد كان هذا البلاء مانعا من إسلام الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها وفيهم قال الله تعالى : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ (القصص 57) .

وبعد الهجرة إلى المدينة وقيام الدولة التي تحمي المسلمين قامت هذه الدولة بتوزيع الأموال التي أفاء الله بها على المؤمنين توزيعا فيه قال تعالى : ﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ (الحشر/7) . وبقيام هذه الدولة وبهزيمة الكفر بدأ النفاق في الظهور من أشخاص يبطنون الكفر ويعملون على هدم الإسلام ودولته ، والتشنيع على الدين ورجاله وقادته ، وفي هؤلاء نزلت الآيات القرآنية في سورة (التوبة والأحزاب والمنافقون والبقرة والنور) قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ (البقرة / 8 و 9) .

ولقد حاول هؤلاء المنافقون أن يتجمعوا في مكان معلوم ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم فبنوا مسجدًا وتظاهروا بأنه يوفر لهم الوقت والجهد ، فنزل القرآن الكريم وكشف هذه المؤامرة ، قال الله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ...** ﴾ (التوبة / 107 ، 108) ، وعندما أشاع هؤلاء حديث الإفك متهمين

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بجريمة الزنا ليهدموا بيت النبوة وليصرفوا الناس عن الإسلام وعن الجهاد ، نزل القرآن الكريم ببراءتها من هذه التهمة ، وبالأحكام الواجب اتباعها في مثل هذه الحالات حسبما فصلته سورة النور .

إنه كلما شرع المنافقون في خداع النبي ﷺ والمؤمنين فضحهم القرآن الكريم وكشف أعمالهم وأساليبهم فحذر المسلمين في جميع الأزمان من مثل هذه الأعمال . لقد كان الخليفة الأول والثاني على وعي تام بهؤلاء ، حتى منع عمر بن الخطاب أفرادا منهم من الهجرة إلى مصر والشام وغيرها من البلاد التي دخل أهلها في الإسلام حديثا حتى لا يحدثوا فتنة في صفوفهم كما منع الخلفاء الفقهاء والعلماء من الصحابة من الهجرة حتى يأخذوا ما لديهم من الأحكام النبوية لأن السنة لم تكن قد دونت .

ولكن الخليفة الثالث اضطر إلى السماح لهؤلاء الصحابة بالانتقال إلى البلاد التي فتحت ليعلموا أهلها الإسلام فاستغل المنافقون ذلك وانتشروا في هذه البلاد وأحدثوا الفتنة التي أدت إلى قتل الخليفة الذي أحسن إليهم ، كما كانوا وراء الحرب التي وقعت بين بعض الصحابة والخليفة الرابع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه والتي انتهت بالتآمر عليه وقتله .

إن الذين أحدثوا هذه الفتن وأحلوا سفك الدماء من اليسير عليهم أن يُروجوا الأكاذيب التي تقدم كبار الصحابة للأجيال القادمة في صورة تكذب توثيق القرآن لهم وتشكك في قابلية الإسلام للتطبيق .

لقد خدعت الأجيال بسبب تأخر تحقيق التاريخ الإسلامي حيث لم تبدأ كتابته إلا في القرن الثاني للهجرة ، واكتفى المؤرخون بتدوين كل ما قيل حتى لو كانت رائحة الكذب تفوح منه لأنهم على يقين أن المسلمين سيمحصون هذه الروايات لمعرفة الصحيح والمكذوب طبقا لقواعد علم

الجرح والتعديل المعمول بها في تحقيق السنة النبوية التي تم تدوينها كما تم تمحيصها قبل تدوين أحداث التاريخ ، ففي القرن الأول للهجرة بدأ عمرو ابن حزم والي المدينة في جمع السنة النبوية ثم أكمل هذا العمل الإمام محمد ابن شهاب الزهري ، ولهذا نسب إليه تدوين السنة النبوية ثم جاء بعد ذلك من أتقنوا هذه المهمة ، أما التاريخ الإسلامي فلم يجد هذا الاهتمام لأنه لا يتضمن أحكاما شرعية ولا يتعلق بالحلال والحرام ولهذا دون المؤرخون جميع الروايات فملئت كتبهم بالتناقضات وبالصحيح والكاذب من الأخبار حتى اعتذر الإمام الطبري عما دونه من روايات غير صحيحة لأنه اكتفى بتدوينها كما نقلت إليه دون أن يمحصها حسبما سجله في مقدمة كتابه تاريخ الأمم والملوك .

إن المؤرخين المسلمين لم يفطنوا إلى أن المنافقين الجدد والخصوم سيستغلون هذه الروايات في عصور الانحطاط وسيعملون على تشويه الصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون التطبيق العملي للحكم الإسلامي .

لقد قدموا سيرتهم للناس في صورة تُنفر الجميع منهم ومن الإسلام وحكمه وتشريعه . إنه ما كان يجول بخاطر هؤلاء المؤرخين أن تحريف التاريخ سيصبح لدى بعض المحترفين علمًا حتى سماه فرويد وغيره بالمذهب العلمي في تفسير التاريخ ومؤداه أن يدخل الكاتب والمؤرخ فكره وعقيدته في الوقائع التاريخية بدعوى أن من حقه تفسير هذه الأحداث وتحليلها وتعليلها ، ثم يصبح هذا التحليل أي رأي الكاتب هو النتيجة التي تقدم إلى القارئ على أنه حقائق تاريخية . وبهذه الوسيلة كتب بعضهم أن النبي ﷺ هو زعيم اليسار العربي والمؤسس له وفي عهده كان عثمان رضي الله عنه يمثل اليمين وعلى رضي الله عنه يمثل اليسار وأبو بكر رضي الله عنه يمثل الوسط ، وزعم آخرون أن الخلافة الإسلامية هي نوع من الدكتاتورية

أو الحكومة الدينية في أوروبا ، وأصبح الجهاد الإسلامي والفتوحات الإسلامية صورة من صور السلب والنهب الذي يتم عن طريق عصابات مسلحة ومنظمة .

لما كان ذلك فقد استجبت لطلب بعض المسئولين في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت قبيل الاحتلال الغاشم ، لتقديم دراسة عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، تتناول أهم أعمالهم وتمحص الخلافات المروية عنهم في كتب التاريخ ، كما رأيت أن أقدم مع هذه الدراسة فصلا عن ظروف تدوين التاريخ الإسلامي والواجب عند تناول هذه المصادر التاريخية ، مع بيان مركز عن الخلافة الإسلامية والفرق بينها وبين الحكومة الدينية في أوروبا وأهم الفوارق بين سيادة الأمة في النظام الديمقراطي الغربي والإسلامي .

وأرجو أن يساهم هذا البحث مع غيره من جهود الآخرين في بيان الحقائق التاريخية عن الخلافة وعن الخلفاء الذين بايعوا النبي ﷺ وعاهدوه وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى وشهد القرآن الكريم لهم بذلك مما يقطع ألسنة من يرميهم بالنفاق . فقد قال الله تعالى عنهم في سورة الأحزاب ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ (الحشر / 8) .

كما أتمنى أن يتراجع الكتاب الذين تورطوا في تبني أقوال المنافقين بعد أن ثبت لهم بالتحقيق العلمي كذب هذه الأقوال .

وحسبنا أن القرآن الكريم قد قطع بصدق القادة الذين اختارهم النبي ﷺ ، وبالتالي فلا يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل .

ومع هذا فقد تضمن الكتاب الأدلة الظاهرة على صدق هؤلاء الخلفاء رضي الله عنهم وعلى كذب ما نسبه إليهم المبطلون .

فمن كان له عينان فليقرأ ومن كان له أذنان فليسمع .

الكويت في الثاني من أغسطس عام ١٩٩١ م — ***سالم البهنساوي***

٢١ من محرم ١٤١٢ هـ

الفصل الأول

حقيقة الدراسات التاريخية

- وقفة مع المصادر المشبوهة
- وجوب تحقيق الروايات
- حول عدم تحقيق التاريخ الإسلامي
- التزوير العلمي للتاريخ الإسلامي
- أهداف الطعن في الصحابة

وقفة مع المصادر المشبوهة

إنه من دواعي الأسى والأسف أن تظل الدراسات التاريخية في العالم العربي والإسلامي حكرًا على مجموعة من الكتاب الذين يعادون الأديان بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة ، فالدين في زعمهم اختراع بشري وهو لا يصلح لكل زمان ومكان ، والإنسان تطور من الحيوانات الثديية إلى مخلوقات هي أسلاف لنوع من القردة ومنها نشأ الإنسان ، ولهذا فالإنسان الأول لم يكن لديه أي قدرة لفهم الدين لأن ذهنه وقواه العقلية غير قادرين على هذا التصور الوثني ، وهذا يكذِّب القرآن الكريم الذي يخبرنا أن الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وأن أول مخلوق وهو آدم قد كلفه الله بتكاليف تدل على اكتمال عقله وتحمله المسئولية .

نجد ذلك في كتاب : معالم تاريخ الإنسانية وهو معجم أصدره هـ ج ولز ، وشارك في تأليفه مجموعة من أساتذة الجامعات .

لقد زعم هؤلاء أن الدين هو حصيلة تقاليد الرجل الشيخ والعواطف التي تحيط بالنساء ومن عدد من التجارب العقلية والأفكار الخاطئة . صـ 123 .

ونجد ذلك أيضا في كتاب موجز تاريخ العالم لنفس المؤلف ترجمة عبد العزيز جاويد صـ46 .

وعلى هذا المنوال ظهرت موسوعة تاريخ العالم ، إعداد لانجر ، ترجمة راشد البراوي وآخرين ، وقصة الحضارة تأليف ديورانت ، ترجمة محمد بدران وآخرين وإصدار الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التي كان مشرفا عليها الدكتور طه حسين ، وعلى الرغم من صلته بالنصارى فالكتاب يذكر أن عيسى ولد من أم عذراء

فيوحي أنه من مريم وأبوه النجار صـ12 . وهذا يكذِّب القرآن الكريم الذي برأ السيدة مريم من أكاذيب اليهود وذكر أن الله اصطفاها وطهرها وفضلها على نساء العالمين .

وإذا انتقلنا إلى الكتب التي تعرضْ تاريخ الإسلام وحضارته نجدها تسير في هذا الاتجاه .

فالمستشرق جوستاف لوبون الذي اشتهر عند العرب بالثناء على الإسلام يقولْ في كتابه حضارة العرب (كان من مقاصد محمد أن يقيم دينًا ولا يشمئز منه قومه وقد وفق لذلك حيث أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم ولم يفكر في إبداع دين جديد صـ18) . ويقول بذلك مستشرقون آخرون[1] منهم توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام .

يزعم هذا المستشرق أن هنالك ستة أديان كبرى منها الإسلام وأنه من تأسيس محمد صـ25 .

وطه حسين لم يكتف بما ورد في كتبه الشيخان والفتنة الكبرى ومرآة الإسلام من تكذيب لأقوال الصحابة ومن تصديق للمنافقين والمرجفين وقتلة عثمان رضي الله عنه .

بل بصفته رئيسًا للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، قد سعى لنشر كتاب قصة الحضارة الذي يهدم الدين والتدين حتى أن مؤلفه لم يكتف بترديد أقوال اليهود التي تزعم أن عيسى قد حملت فيه أمه سفاحًا من يوسف النجار ، بل شكك في وجود المسيح وينكر معجزاته كلها[2] ص3 ، ص 202 — 205 .

---

(1) حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر صـ11 وقصة الحضارة ديورانت صـ2 صـ23 والدعوة إلى الإسلام أرنولد صـ52 .

(2) انظر كتاب أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، منهج كتابة التاريخ للدكتور جمال عبد الهادي وزوجته الدكتورة وفاء محمد رفعت ص59 — 67 .

أما كتاب تاريخ التمدن الإسلامي تأليف جورجي زيدان فهو من أكثر الكتب تحمسًا لتحريف التاريخ الإسلامي والحط من الإسلام والمسلمين .

المسلمون المحرفون :

إذا كانت المصادر التاريخية التي ألفها الأوروبيون المعادون للدين هي المرجع السائد في الجامعات ولدى الباحثين . فإن بعض المسلمين قد اقتفى أثر هؤلاء فجاءت كتبهم على نفس المنوال ، فمن ذلك :

1 ـــ يردد الدكتور على حسني الخربطلي مقولات غلاة المستشرقين مثل (دوزي) و (فون كريمر) و (لامانس) و (بروكلمان) و (ستانلي بول) و (فان فلوتن) فيقارن الخلافة الإسلامية بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ويزعم أن الخلافة تفصل الدين عن السياسة وأن الخليفة ليس له سلطات كالتي كان يتمتع بها البابوات[1] ، وهو لايجهل أن هذه السلطات ومنها صكوك الغفران والحرمان قد تنزل القرآن الكريم بإبطالها والكشف عن أنها ربوبية من دون الله .

وزعم أيضا أن الجهاد لم يكن لنشر الإسلام بل لإبعاد المسلمين عن الدعة والترف ص50 .

وزعم أن الجزية على غير المسلمين كانت ضريبة عالية جدًا حتى تظل الشعوب بقرة حلوب ص103 .

كما يردد أقوال المنافقين بأن عثمان رضي الله عنه قد حاد عن الحق وبدل وغير في الدين ص9 .

---

(1) عن كتابه (الحضارة العربية الإسلامية) ص4 ، 5 وكل ما أورده الكاتب مردود عليه في الفصل الأول وفي مواضعه الأخرى من هذا الكتاب .

ويفسر الكاتب المسلم سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في منع جنود المسلمين من الاختلاط بالشعوب التي فتحت بلادها بأن ذلك كان لتكريث العصبية العربية وللاحتفاظ بالتقاليد البدوية والاستعلاء .

والكاتب لا يجهل أن الإسلام قد قضى على العصبية الجاهلية وعلى الاستعلاء وحمية الجاهلية وأمر بالمساواة بين الناس جميعا .

كما لا يجهل الكاتب أن عدم اختلاط الجنود الفاتحين كان لتوفير الحرية الكاملة للشعوب المغلوبة حتى إذا اختارت الإسلام تكون قد اختارته عن حرية واقتناع لقول الله تبارك وتعالى ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ .

2 ـــ أما الدكتور حسن إبراهيم الذي تتلمذ على يد المستشرق توماس أرنولد فيردد قول نيكلسون عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقول عنه [كان يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه] ثم يقول حسن إبراهيم ما ينقض به الزعم السابق فيذكر أن الإمام عليا رضي الله عنه كان [لا يتردد في اختيار الوسائل أيا كانت لتثبيت مركزه][1] .

وهذه المفتريات ليست غريبة على هذا الكاتب المسلم ! فقد ذكر أن الإسلام من عبقرية محمد فيقول [ولم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة كما فعل محمد] ص204 ويقول [وينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون دينا عالميا] ص170 فهذه العبارة صريحة في أن الإسلام قد أسسه محمد ﷺ .

3 ـــ وكتاب فجر الإسلام لمؤلفه أحمد أمين يردد أيضا افتراءات هذه المدرسة فيزعم أن الأحاديث النبوية التي وضعت كذبا كانت بسبب الخصومة السياسية بين علي وأبي بكر ، وبين علي ومعاوية كما يشكك المؤلف في عدالة صحابة رسول الله ﷺ بل زاد الطين بلة ، بأن زعم أن وضع الأحاديث قد بدأ في عهد الرسول ﷺ وحاول تكذيب بعض الأحاديث الواردة في البخاري لأن متنها لم ينقده العلماء[2] ص236 ـــ265 .

---

(1) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي . حسن إبراهيم القاهرة سنة 1974 ص278 .

(2) تم الرد على كل ما يتعلق بالسنة النبوية في كتابي السنة المفترى عليها ص 279ـــ 282 و 302 ـــ 307 .

المنهج الغائب عن عميد الأدب العربي :

إذا كان الدكتور طه حسين قد كتب تاريخ السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ليزيل ما علق في أذهان المسلمين عنه فيما ذكره في كتابه (في الشعر الجاهلي) حيث قطع فيه بأن ورود قصة إبراهيم وإسماعيل في القرآن الكريم وفي التوراة ليس دليلا على ثبوت ذلك تاريخيا .

إلا أنه في كتابه (الشيخان) لايكذب سيرة الخلفاء إنما يبذر بذور الشك في بعض الروايات وذلك دون أن يمحص هذه الروايات تمحيصا علميا بأن يتتبع الرواة ليتحقق من عدالتهم وصدقهم ومدى اتصال السند فلا يروي شخص عن إنسان لم يعاصره أو بينهما فارق زمني يقطع بعدم وجود لقاء بينهما .

إنه لا يسلك هذا السبيل العلمي ، إنما يرد بعض الروايات بعقله بغير دليل علمي ، ويقبل روايات أخرى بعقله أيضا فيخطئ وقد يصيب ومن أمثلة ذلك :

(1) مما قاله فأصاب ترجيحه اختيار الصحابة لأبي بكر رضي الله عنه فقال : [لم يكن استخلاف أبي بكر لعمر إلا ترشيحا له و لم يكن ما انتهى إليه أمر الشورى من اختيار عثمان إلا ترشيحا له أيضا ، وكلا الرجلين لم يستطع أن يقوم بشيء من أمور المسلمين إلا بعد أن تمت البيعة بينه وبينهم] ص45 .

فالبيعة إذن هي الركن الأساسي للخلافة .

(2) ومما رجحه فأصاب أيضا . يقول طه حسين : [إن استخلاف أبي بكر لعمر لم يكن من شأنه أن يلزم لأن أمر الخلافة ليس إلى رجل وإن كان هذا الرجل أبا بكر وإنما هو لجماعة المسلمين وإلى أولي الرأي منهم خاصة وهم المهاجرون والأنصار في ذلك العهد ... وقد قبلوا ترشيح أبي بكر لعمر مجمعين على هذا القبول ، لم يخالف عن إجماعهم أحد] ص106 .

(3) ومما رده بعقله ما تضمنته المقدمة من الشك في وصف الجنود لمعارك الجهاد ضد الفرس أو الروم وعلته أن الجنود لم يكن لديهم وقت أثناء الحرب لوصف هذه المعارك و لم يكن لديهم سجلات ليعرفوا عدد الجنود .

وقد نسي عميد الأدب أن العرب كانت لديهم وسائل أخرى لحصر الجنود .

ففي سيرة ابن هشام ما نصه :

[لما نزل رسول الله ﷺ قريبا من بدر بعث نفرا من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر فوجدوا غلامين لقريش فضربوهما للحصول على معلومات عن قريش ، فأنكر النبي ﷺ ذلك ، وسألهما عن قريش قالا : هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى فسألهما عن عدد القوم فقالا : لاندري . فسألهما كم ينحرون من الأبل كل يوم قالا : يوما تسعا ويوما عشرا فقال النبي ﷺ لأصحابه : القوم بين التسعمائة والألف[1] وذلك لأن العرب تذبح الجمل لأطعام ما بين التسعين والمائة رجل] .

ففي هذه الرواية استخلص النبي ﷺ عدد المحاربين من قريش من عدد الإبل التي ينحرونها يوميا ، فلا يقال والحال هذه أن عدم وجود سجلات آنذاك لحصر الجنود ، يجعلنا نكذب هذه الرواية وليس لدى طه حسين أو غيره رواية أخرى تكذب هذه الرواية إنما يستخدم عقله في غير موضعه ويشك بغير دليل .

أما وصف الجنود للمعارك فلم يكن ذلك أثناء المعركة حتى يشك فيها بدعوى انشغالهم بالمعارك بل وصفوا المعارك بعد انتهائها وهذا أمر يسير على كل صاحب ذاكرة سليمة .

(4) ومما سلكه طه حسين من وسائل الشك في الروايات افترض أن المعارضين لقتال المرتدين إنما عارضوهم خوفا من المرتدين ، ولما كان هذا يخالف الواقع فتكون هذه الرواية غير صحيحة ويجب ردها وفي هذا قال :

---

(1) تهذيب سيرة ابن هشام ص76 عبد السلام هارون ص 155 .

[الرواة يزعمون أن بعض وجوه المسلمين راجعوا أبا بكر في حرب المرتدين وقال قائلهم وهو عمر ، كيف تقاتلهم وهم يقولون لا إله إلا الله ؟] .

ويقول طه حسين ويزعم الرواة أن عمر قد شرح الله صدره لقتال المرتدين حين رأى أن الله قد شرح لهذا القتال صدر أبي بكر .

ويعلق على ذلك بقوله : لست أقبل هذه القصة بحال ، فوجوه المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أعلم بدينهم من أن يجادلوا أبا بكر في الزكاة ، ولم يكن عمر أقلهم علما بالإسلام . وكل ما أرجحه هو أن وجوه المسلمين إنما راجعوا أبا بكر في إنفاذ جيش أسامة بعد أن ظهرت الردة حرصا على أن يستبقي قوة المسلمين ليقاوموا بها المرتدين .

ثم يقول طه حسين : والذين يروون هذه الرواية يسيئون إلى أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله حين يصورونهم خائفين مشفقين أن يتخطفهم المرتدون ص58 .

ولسنا ندري من أين استقى طه حسين المعلومات سالفة الذكر وكتب التاريخ والسيرة قد خلت من هذا الذي قاله الرجل والشبهات لم تكن لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حكم المرتدين ولا في حكم الزكاة ، كما يقول طه حسين .

فحروب الردة شملت صنفين ؛ صنف ارتد عن الإسلام وعاد إلى الكفر كأصحاب مسيلمة الكذاب وأصحاب الأسود العنسي ، والصنف الثاني قوم لم يرتدوا إلى الكفر وإنما أنكروا أن تدفع الزكاة للخليفة مع إقرارهم بها وكان منهم من يريد أداءها ولكن رؤساءهم منعوهم كمالك بن نويرة الذي فرقها في قومه .

وفي هذا الصنف وقعت الشبهة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كيف نقاتلهم وهم مسلمون ، فحاوره أبو بكر رضي الله عنه وأوضح له أن الحديث النبوي فيه (إلا بحقها) والزكاة تدخل في هذا الحق فشرح الله صدر عمر لذلك[1] .

---

(1)نيل الأوطار للشوكاني ص4 ص175 .

فإنكار طه حسين لهذه القضية يرجع إلى أنه لا يبحث في الروايات ليعرف الصحيح من السقيم طبقا لقواعد علم الجرح والتعديل إنما يستخدم عقله في مواجهة الوقائع الثابتة حيث روى هذا الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان) كما روى ذلك غيره من الثقات .

وليس صحيحا ما فهمه طه حسين من أن الخلاف في حرب هؤلاء يسيء إلى الصحابة حيث ينسب إليهم الخوف من الحرب ؛ فالثابت والذي لا يخالفه أحد أن الخلاف حول قتال هذه الفئة لم يكن لإشفاقهم أن يتخطفهم المرتدون لسببين .

الأول : أنه لا توجد رواية حتى لو كانت مكذوبة فيها ذكر لهذا السبب الذي ابتدعه طه حسين بعقله .

الثاني : أن القسم الأكبر من المرتدين وهم الصنف الأول لم يخالف في قتالهم أحد وهم الغالبية الساحقة من المرتدين .

إنما كان الخلاف في شأن المسلمين الذين منعوا الزكاة وهؤلاء قلة وإنما حوربوا مع المرتدين لمشاركتهم لهم في منع الزكاة[1] .

* * *

(1)الحكيم وقضية تكفير المسلم للمؤلف ص 138 ج

وجوب تحقيق الروايات

بعد انتصار الإسلام بقيام دولته بعد ثلاثة عشرَ عاما من بدء نزول الوحي على النبي ﷺ ، جعل أعداء الإسلام يبحثون عن وسيلة أخرى لهدم الإسلام من داخله ، فأسلم بعضهم في الظاهر وهم يُسِرُّون الكفر في الباطن ، وحاولوا بهذا أن يخدعوا النبي وصحابته ، ونزل القرآن الكريم وفضح أساليبهم في آيات كثيرة نذكر بعضها .

قال الله تعالى عنهم : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ . (البقرة 9) .

بل إن النبي ﷺ بوحي من الله هدم المسجد الذي شيده المنافقون ، لأن غايتهم من بنائه أن يكون شعارًا دينيًا يجمع أعداء الإسلام ويستر مؤامراتهم ضد الإسلام ، وفي هذا قال الله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** .... ﴾ (التوبة 107 ، 108) .

لقد تمكن هؤلاء المنافقون من إحداث الفتنة التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ، وإلى الحروب بين الصحابة ، ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولهذا فمن اليسير أن يختلقوا الوقائع ، ويروجوا الأكاذيب التي تصور صحابة رسول الله ﷺ تصويرا يكذب توثيق القرآن لهم .

ولقد شرع هؤلاء في اختلاق الروايات ، ونسبتها إلى الحديث النبوي ، مستغلين

أن الأحاديث النبوية ، وأحداث السيرة كانت تتداول بين المسلمين بالرواية ، دون أن تدون أو تكتب كالقرآن الكريم ، ذلك أن النبي ﷺ كان قد نهى عن تدوين ماعدا القرآن حتى لا يختلط به غيره فقال [لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه][1] .

ثم دونت السنة النبوية بعد ذلك ومحصت تمحيصا لا يجادل فيه عاقل حتى صار الأمر إلى الجواز بعد ذلك[2] أي جواز الكتابة .

وهذا النهي لم يؤثر على رحلة الصحابة في تحصيل السنة النبوية وتمحيصها فعلى سبيل المثال : أخرج أحمد والطبراني والبيهقي واللفظ له عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ لم أسمعه منه فابتعت بعيرا (أي اشتريتها) فشددت عليه رحلي ثم سرت إليه شهرا حتى قدمت الشام فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري فأتيته فقلت له : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول [يحشر الناس غُرلًا بُهما] قلنا وما بهم ؟ قال ليس معهم شيء فيناديهم نداء يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصَّها منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصها منه حتى اللطمة . قلنا : كيف ؟ وإنما نأتي الله عراة غرلا بهما ؟ قال بالحسنات والسيئات[3] . غرلا أي عرايا لم يختنوا وبهما ليس معهم شيء .

كما أخرج البيهقي عن عطاء بن أبي رباح أن أبا أيوب الأنصاري رحل إلى عقبة ابن عامر الجهني يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه منه

---

(1)الحديث رواه مسلم في صحيحه . 229/8 ومختصر صحيح مسلم للمنذري 1861 .

(2) تفصيل هذا في كتاب السنة المفترى عليها للمؤلف الفصل الثاني ، الطبعة الثالثة والرابعة عن دار الوفاء بمصر ودار البحوث العلمية بالكويت .

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد ص252 .

غيره ، فلما وصل إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو أمير مصر ، خرج إليه وعانقه وقال له : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول : [من ستر مؤمنا في الدنيا على كربته ستره الله يوم القيامة] . ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة[1] وذلك بعد أن تأكد من رواية عقبة للحديث النبوي .

إنه أمام محاولات خصوم الإسلام لتحريف السنة النبوية هب أولو العزم من العلماء يكتبون السنة النبوية ، ويمحصون رواياتها بدقة بالغة ، حتى قال أحمد بن حنبل ، وأبو بكر الحميدي (شيخ البخاري) : إنّ من كذب على النبي ﷺ ولو بحسن نية ، وتاب عن ذلك لا عبرة بتوبته وتظل روايته ساقطة وغير مقبولة .

وكان من دقتهم أن من شهد له جمع من الناس بالثقة والعدالة ، ثم جرحه شخص واحد لا تقبل روايته بناء على قاعدة عندهم هي أن الجرح مقدم على التعديل . ثم جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وهو من طبقة التابعين (التالية لطبقة الصحابة) وأمر بتدوين السنة وجمعها وتمحيصها وكتب بذلك إلى جميع البلاد فجمع عمرو بن حزم والي المدينة ما عند بعض الحفاظ مثل السيدة عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية (المتوفاة سنة98 هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (المتوفي سنة 106 هـ) .

ثم تولى هذه المهمة الإمام محمد بن شهاب الزهري (المتوفي سنة 124 هـ) بتدوين السنة النبوية بصورة شاملة ، وانتشر التدوين في كثير من الأمصار الإسلامية وكان من أهم ما اتفق عليه هؤلاء العلماء المحققون ألا يقبلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا من الثقات المشهود لهم بالعدالة والتقوى وحسن الحفظ ، وأن يكون الشخص معاصرا لمن يروي عنه وأن تكون سلسلة الرواة متصلة إلى النبي ﷺ ، لهذا اهتموا بذكر أسماء الرواة ، وهذا ما يسمى بالإسناد وهذا ما اشتهرت به الأمة الإسلامية وانفردت به .

---

(1)جامع بيان العلم لابن عبد البر جـ1 ص93 .

بل زاد البخاري على ذلك أن اشترط سماعَ الراوي بنفسه عمن يروي عنه ، فإذا لم يصرِّح الراوي أنه سمع الحديث النبويَّ عمن روى عنه ، لا يَعدُّ البخاري ذلك حديثًا صحيحًا ، وإن توفرت شُروط العدالة والضبط والمعاصرة .

أما التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية فإن أول كتاب في ذلك هو سيرة الرسول ، كتبه محمد بن إسحاق المتوفي سنة 151 هـ ويليه سيرة ابن هشام المتوفى سنة 213 هـ ثم كتاب المغازي والسير للواقدي المتوفى سنة 207 هـ ويليه الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة 290 هـ .

وهؤلاء المؤرخون لم يلتزموا منهج علماء الحديث في تحقيق الروايات وترتب على ذلك تدوين بعض الأخبار الكاذبة ظنا منهم أن الأمانة تقتضي تدوين ما انتهى إليه علمهم ولو كانت رائحة الكذب تفوح منه .

والإمام الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك يعتذر عن هذا ويتبرأ مما يوجد في كتابه من أخبار غير صحيحة أو شنيعة فيقول :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما اشترطت أني راسمه فيه إنما هو على مارويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا[1] » .

---

(1)تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ2 ص 15 (عرف باسم تاريخ الطبري) .

إن نفرا من خصوم الإسلام في الغرب والشرق قد تصيدوا هذه الشناعات والروايات الكاذبة ليهدموا صرح الإسلام عن طريق التشكيك في رجاله الأمناء على دعوته .

ولقد ترجمت بعض كتب الأدب التي تحوي هذه الشناعات إلى معظم اللغات الحية لتقدم عن الخلفاء والأمراء صورة سيئة حيث تصور أمراء المؤمنين في مجالس الخمر وتحت تأثير المؤامرات النسائية حتى أصبحت أسماء بعضهم كهارون الرشيد عنوانا للفحش والترف والإنحطاط .

ولقد تلقف بعض الكتاب العرب هذه الروايات والأخبار والقصص وألفوا فيها كتبا مع أنها تسيء إلى الإسلام ورجاله المخلصين ، ولكن من هؤلاء الكتاب من كتب ذلك عن عمد ومنهم من سعى إلى الشهرة ولو على حساب من قال الله فيهم ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ (الحشر 8) وقال : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ (الأحزاب 23) .

كما قال الله فيهم ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ (الفتح 18) .

مع عقلاء المستشرقين :

إن من المستشرقين من اختار ألا ينكر الشمس الساطعة فانتهى إلى إنصاف هارون الرشيد من ألسنة بعض العرب حيث يقول (ا ـــ سيدبو) وكان الرشيد وهو المتدين المتصدق قائما بجميع الفروض كأشد المسلمين إيمانا وكان لصفات الرشيد العالية أبلغ الأثر في العرب ولا يزال مجد الرشيد يتألق في سماء المشرق بأسطع نور)[1] .

وفي الجانب الآخر نجد الدكتور طه حسين في كتابه على هامش السيرة يقول إنه يروي هذه الأحداث كالقصص التي ترويها الجدة لحفيدها عند النوم ، وفي كتبه الأخرى كالشيخان والفتنة الكبرى ومرآة الإسلام يشكك في روايات كبار الصحابة

---

(1)النجوم الزاهرة لأبي المحاسن حـ2 ص143 وأباطيل يجب أن تمحى . إبراهيم شعوط ص301 .

عن أحداث السقيفة وغيرها بدعوى أنها كتبت من خلال روايات المنتصرين أي الصحابة ويرى أن تكتب من خلال روايات المنهزمين أي المرتدين والمنافقين والمشركين وذلك على الرغم من أنه لا توجد لهؤلاء روايات تخالف روايات المنتصرين .

كما يدافع عن المنافقين في كتابه الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ثم يختار أسوأ الأقوال عن عبد الله بن عباس فيقول عنه (قد أجمع الخروج إلى مكة ولكنه لم يخرج من البصرة فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولي عليها ـــ أي في خلافة الإمام علي ـــ إنما خرج منها وقد ملأ يده بما كان في بيت المال مما ينقل وهو يعلم أن ليس له في هذا المال حق) ثم قال (قدره بعض المؤرخين بستة ملايين درهم وأنه طلب أخواله من بني هلال لحمايته حتى ينقل المال إلى مكة) ص127 .

ثم يقول طه حسين إن أكثر المحدثين أهملوا هذه القصة لمكانة ابن عباس من النبي ﷺ بينما لم يذكر أحد من المحدثين هذه القصة حتى يقول إن كثرتهم تعمد عدم إظهارها . ولقد تصيد رواية في تاريخ الطبري تذكر أن ابن عباس قال لأبي الأسود الدؤلي : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، فكتب إلى علي أن ابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك[1] . ولكن توجد في الطبري رواية أخرى تذكر أن ابن عباس ظل بالبصرة واليامن قبل أمير المؤمنين على بن أبي طالب حتى قتل ثم ظل بها حتى صالح الحسن معاوية ثم خرج إلى مكة[2] .

كما يروي ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان عن خليفة بن خياط : أن ابن عباس كان عاملا على البصرة من لدن الإمام علي فلما شخَص إلى الحجاز ، استخلف عليها أبا الأسود الدؤلي .

(2،1) تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ6 ص81 حوادث سنة 40 هـ .

وعن الاتهام المنسوب إلى ابن عباس ينقل ابن خلكان رد ابن عباس في كتاب أرسله إلى الإمام علي جاء فيه :

(فإن الذي بلغك باطل وإني لما تحت يدي قائم له وحافظ فلا تصدق الظنون)[1] .

ولكن طه حسين يترك هذه الروايات والتي تتفق مع الواقع المشهود لصحابة رسول الله ﷺ ، ويتصيد الرواية التي تنسب لابن عباس رضي الله عنه أكل أموال اليتامى ظلما .

وقد يظن البعض أن طه حسين يريد الحياد في نقل التاريخ الإسلامي فيطالب بأخذه من روايات المنهزمين من الفرس والروم وليس من روايات صحابة رسول الله ﷺ .

وهذا وهم لسببين **الأول** : أن المنهزمين لم يخالفوا روايات الصحابة ولهذا لم ينقل طه حسين عن أي كافر منافق عاصر أحداث التاريخ الإسلامي وإنما نقل عن المبشرين المعاصرين أمثال جولد تسيهر أستاذه .

الأمر **الثاني** : أن طه حسين لم يقف عند دعوى الحياد فكذب القرآن ، ولكن يغلفه تلاميذه بالحرية حيث نشروا في الصفحة الثقافية أن طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) كان يعلن حرية الرأي ويعمق التفكير والبحث التزاما بقول الله ﴿ **أفلا تعلمون** ﴾ ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ ﴿ **يا أولي الألباب** ﴾ ، ولكن المعارضة السياسية استغلت هذا الكتاب ، وأرسل شيخ الأزهر بلاغا ضده للنائب العام ينسب إليه أنه كذب القرآن الكريم صراحة واتهم طه بإلحاد صريح ولكنه أرسل برقية إلى مدير الجامعة أكد أنه ليس في الكتاب إهانة للدين أو الخروج عليه ويؤكد أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

---

(1)وفيات الأعيان جـ2 ص218 .

وكنا نود ألا نتعرض لهذا الموضوع ولا لصاحبه لأنه في ذمة الله ولكن تصوير القضية على هذا النحو الذي بلغ حد ادعاء أن الملك فؤاد والسفير البريطاني ومجلس النواب والأزهر هي الأطراف التي شكلت هذه الأزمة ضد طه حسين ، وكأنه كان يقف ضد هؤلاء ويحارب الاستعمار ، هذا التصوير الخاطئ يوجب أن يعلم هذا الجيل الحقيقة من أقوال طه حسين نفسه ، فعلى سبيل المثال لا الحصر[1] :

1 ــ يقول في هذا الكتاب (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي) .

2 ــ وقد كتب طه حسين في جريدة كوكب الشرق سنة 1933 يقول (إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العداوات جاءتهم مع الفرس واليونان وجاءتهم من العرب)[2] .

والجدير بالذكر أن مصر في هذه الفترة كانت ترزح تحت ظلم الاستعمار البريطاني وكان الإنجليز في شوارع القاهرة يعيثون فسادا وإهانات ولكن طه حسين لم يذكر شيئا عن ذلك واعتبر الإهانات من العرب ، ولا غرو أن يصبح بعد ذلك عميدا للأدب العربي .

3 ــ كما يقول أيضا (لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة ، فالفرعونية متأصلة وستبقى كذلك) .

أما أقواله عن الصحابة وكيف نأخذ التاريخ منهم ولا نأخذه من المنهزمين فسبق ذكره .

---

(1)هذا الرد نشر في المجتمع بتاريخ 1 رمضان 1410هـ الموافق 27 مارس 1990 .

(2) تحولات الفكر العربي للدكتور محمد جابر الأنصاري ص139 ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والأدب بالكويت .

إنه لمن العبث بالعقول أن يزعم الكاتب أن خطاب طه حسين إلى رئيس الجامعة والذي أكد فيه أنه مؤمن بالله ورسله ، يدل على أن الضجة التي أثيرت حول الكتاب مفتعلة ومن خصوم طه حسين السياسيين .

والمعلوم للكافة أن طه حسين لم يكن يتعرض لأحد من الحكام المصريين ولا للإنجليز الحكام الفعليين آنذاك حتى يقال إنهم كانوا وراء هذه الضجة ، ومن المعلوم لتلاميذ العلماء أن الذي ينطق بالشهادتين ويقول إنه مؤمن بالله ورسله يرتد كافرا إذا كذب صريح القرآن أو رد حكما فيه أو رد السنة النبوية .

أما حرية الرأي أو الفكر فذلك يكون فيما لم يرد فيه نص في القرآن والسنة .

* * *

حول عدم تحقيق التاريخ الإسلامي

إن السنة النبوية قد دونت ومحصت ، أما السيرة فلم تدون إلا في القرن الثاني للهجرة ، بعد أن ظهرت الفرق السياسية والفلسفات المعادية ، وروَّجوا الأخبار والروايات التي تخدم مذاهبهم ومنها الوثنية والمجوسية والمزدكية . وعندما دونت السيرة لم تُحقق كالسنة ، وكذلك لم تحقق الروايات التاريخية عن عصر الصحابة والخلفاء وغيرهم .

وعدم تحقيق الروايات أدى إلى محاولات لتحريف التاريخ الإسلامي بعضها كان عن عمد وإصرار وبعضها عن جهل أو غفلة .

إن الذين دوَّنوا هذا التاريخ ، كان كل هَمِّهم جمع الروايات والأخبار التي تصل إلى علمهم ، وتدوينها كما هي بغير تمحيص ولا تحقيق لسببين[1] :

الأول : أنه قد نشأ علم الجرح والتعديل الذي كان المقياس لقبول الرواية أو ردِّها ، فكان معلوما أن هذه الروايات ، لن تؤخذ قضايا مسلمة ، بل ستخضع للتمحيص والتحقيق العلمي .

الثاني : سارع المؤرخون في تدوين جميع الروايات الصحيح منها والسقيم ، قبل أن يحول الموت بينهم وبين جمع الأخبار ، وكان عذرهم أنهم يذكرون أسماء رواة الأخبار ، ليكونوا محل بحث وتمحيص .

---

(1) سالم البهنساوي الغزو الفكري للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار ص23 ـــ 42 عن دار القلم بالكويت وآفاق الغد بمصر .

ولكن لم يحصل اهتمام بتحقيق هذه الروايات بالميزان الذي محصت به روايات السنة النبوية ، لأن هذه الروايات تمثل عند أهل هذا العصر أخبارا لا تتصل بالحلال والحرام .

ولقد استفاد خصوم الإسلام من عدم تحقيق هذه الروايات ، فنقلوها كما هي ، ونسبوها إلى المؤرخين ، ليضعوا عليها الثقة ، وهي من الأكاذيب ، فمثلا ينقل الطبري عن أبي مِخْنَف خبرا عن التحكيم ، ثم نقله عنه ابن مسكويه ، وكذا ابن الأثير ، ثم ابن كثير ، وابن خلدون ، ويخيل للقارئ أن الخبر قد رواه ستة من الرواة ، وورد في ستة مصادر تاريخية ، وهو في الحقيقة قد رواه شخص واحد هو أبو مخنف الأزدي ، ومصدر واحد هو الطبري ، وهذا المصدر قد نبَّه صاحبه إلى أنه نقل ما سمع من صحيح وسقيم للأمانة العلمية ، وأن ما ورد فيه من روايات فيها شناعة ، فليس مسئولا عنها ولا يوثقها إنما نقل ما نُقِل إليه ليخضع للتمحيص والتحقيق .

كما قد يخيل إلى القارئ ، أن الراوي أبا مخنف الأزدي هو الصحابي الجليل مخنف ابن سليم بن الحارث الأزدي[1] الذي كان أميرا على أصبهان من قبل الإمام علي رضي الله عنه ، وقد روى له أصحاب السنن الأربعة ولكن بالبحث الدقيق والعميق يتضح غير ذلك ؛ فأبو مخنف الأزدي يروي عن التابعين ، فهو ليس من طبقة الصحابة ، واسمه لوط بن يحيى ، ويُكْنى أبا مخنف الأزدي ، وهو حفيد الصحابي الجليل سالف الذكر ، وهذا الحفيد أغفله المؤرخون وعلماء الرجال ، فلم يرد اسمه ضمن الرواة الثقات ، بل تركه أبو حاتم لأنه ليس من الثقات[2] ، فلا يجوز والحال هذه توثيق روايته وقال ابن معين والدارقطني ليس بثقة وقال الذهبي هو إخباري تالف لا يوثق به[3] .

(1 ، 2)تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ10 ص78 والتاريخ الكبير للبخاري جـ1 ص252 وتقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ2 ص236 والعواصم من القواصم ص 163 .
(٢) ميزات الاعتدال في نقد الرجال للذهبي جـ3 ص420 .

تسرب فكر أعداء الإسلام :

لقد استطاع خصوم الإسلام أن يروجوا الروايات المصطنعة للنيل من الإسلام ورجاله ، ولم يشعر المسلمون بهذا الخطر آنذاك فمثلا : يلفق هؤلاء روايات عن هارون الرشيد ، تظهره كملك الخمر والنساء ، وروج ذلك جورج زيدان في رواياته التاريخية ، حتى أصبح اسم هارون الرشيد مقترنا بالمجون والخمر والنساء ، على الرغم من أن ابن خلدون في مقدمته قد نبه إلى ذلك .

ومقال آخر لأحد شعراء الفرس ، وهو مهيار الدَّيْلمي الذي مَكَّنتْه هذه الظروف من الثناء على كسرى بعد أن حطم الإسلام أسطورته وكشف فساده ومظالمه ، يقول الشاعر :

وأبي كسرى عــلا إيوانــه أين في الناس أب مثل أبي
قد قَبَسْتُ المجد عن خير أب وقبست الدين عن خير نَبي

الاعتماد على كتب الأدب :

لقد ألف الأدباء المعاجم والكتب خلال العصر العباسي ، وذلك لينالوا العطاء من الأمراء ، واتخذوا من الخلافات والأخبار المتناقضة سبيلا لتسليةالناس . ولهذا اخترعوا القصص والروايات ، لتكون مادَّتهم في التسلية ، فأساءوا إلى أهل الفضل والتقوى من علماء المسلمين . فمثلا تضمَّن كتاب البيان والتبيين للجاحظ كثيرا من الخطب المنسوبة إلى الإمام علي وإلى معاوية ، وفيها من التجريح وبذاءة اللسان ما يعف عنها السفهاء بله كبار الصحابة[1] الذين قال الله فيهم ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ وقال ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ .



(1)تفصيل هذه الأخطاء في كتاب الغزو الفكري للتاريخ والسيرة للمؤلف ص26 — 41 .

الأمانة العلمية والمصادر التاريخية

إن الكلمة أمانة وأعراض الناس هي من أقدس الحرمات ، لذلك عني المحققون بتمحيص هذه المصادر التاريخية ، ورفضوا أخذ كل ما ورد بها ، كأنه تنزيل من رب العالمين ، وخصوصا إذا كذب صراحةً أو ضمنًا ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله . ونرى ذلك واضحا في موقف القاضي الأندلسي أبي بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم ، وعبد الرحمن بن خلدون في المقدمة من كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر .

ولقد جاء الكتابان القيمان في كثير من صفحاتهما بوابل من الحجج لتأييد المنهج النقدي في البحث التاريخي ، ذلك الذي يرفض هذا الحشد من التناقضات في الروايات التاريخية .

منهج ابن العربي :

وقف أبو بكر بن العربي محذرا وداعيا إلى اتخاذ موقف نقدي إزاء روايات الأقدمين التاريخية ، ورفضها إذا اقتضى الأمر[1] . قال : « إنما ذكرت لكم لتحترزوا من الخلق ، وخاصة من المفسرين والمؤرخين ، وأهل الأدب فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين ، أو على بدعة مُصِّرين ، فلا تُبالوا بما رَووا ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، فإن الرواة يُنشئون أحاديث فيها استحقار الصحابة والسلف ، والاستخفاف بهم ، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم ، وخروج

(1)مقال بالمسلم المعاصر العدد 30 ص11 سنة 1402 هـ والغزو الفكري للتاريخ والسيرة ص51 — 64 سالم البهنساوي دار القلم بالكويت .

مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى . فإذا قاطعتم أهل الباطل واقتصرتم على رواية العدول ، سلمتم من هذه الحبائل .. » وهو يفسر موقف الرواة هذا بأن الرؤساء وذوي السلطة ساعدوا « على إشاعة هذه الكتب وقراءتها لرغبتهم في مثل أفعالهم حتى صار المعروف منكرًا والمنكر معروفا ... » ويخلص إلى القول : « ... وقد بينت لكم أنكم لا تقبلون على أنفسكم في دينار ، بل في درهم ، إلا عدلًا بريئًا من التهم ، سليمًا من الشهوة ، فكيف تقبلون في أحوال السلف وما جرى بين الأوائل ممن ليس له مرتبة في الدين ، فكيف في العدالة ؟ »[1] .

وفي أماكن عديدة من كتابه يعلن الرجل رفضه التسليم بسلبيات المؤرخين ، ويعترض على طرائقهم في تلفيق الروايات المتعارضة وقبول الأخبار الكاذبة التي تصل حد السخف !!

يقول : « وذكروا تفاصيل ذلك كلمات آلت إلى استفعال رسائل واستخراج أقوال ، وإنشاء أشعار ، وضرب أمثال ، تخرج عن سيرة السلف يُقرُّها الخَلْف (الطالح) وينبذها الخَلَفُ (الصالح) .. » « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعتهُ التاريخية للملوك فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع »[2] .

وقال : « وانظروا إلى الأئمة الأخيار وفقهاء الأمصار ، هل أقبلوا على هذه الخرافات وتكلموا في مثل هذه الحماقات ؟ بل علموا أنها عصبيات جاهلية وهمية باطلة ، ولا تفيد إلا قطع الحبل بين الخلق وتشتيت الشمل واختلاف الأهواء ، وقد كان ما كان ، وقال الأخباريون ما قالوا ، فإما سُكوت وإما اقتداء بأهل العلم وطرح لسخافات المؤرخين والأدباء »[3] .

(1 ، 2)العواصم من القواصم ص163 ، 177 ، 234 .

(3) المرجع السابق .

كتب الأدب والمصادر التاريخية :

الأدباء دائما في كل العصور لهم روحهم الخاصة وطرائفهم في التفكير . وقد امتاز الأدب العربي وخاصة في العصر العباسي الثاني بوفرة إنتاجه ورقي مستواه وتنوع أساليبه ، وعلل العلماء ذلك بانقسام الدولة وتفككها في وحدتها السياسة والعسكرية فانعكس هذا الانقسام بالخير على الميدان الأدبي وأصبحت الحركة الأدبية من شعر ونثر وخطابة عنوانا جميلا للمجد الأدبي للدولة العباسية وأصبح للشعراء والأدباء مكانة ملحوظة في مجالس الخلفاء والأمراء وولاة الأمصار وعقدت المناظرات والمنافسات وألفت الكتب والمعاجم والفهارس في تاريخ الأدباء والشعراء والحكماء ، وظهر جليا أن هذه الحركة الأدبية استمدت مادتها من الآثار والأخبار التاريخية فتناول الأدباء هذه الأخبار وصاغوها صياغة أدبية بأساليب البلاغة والبيان والبديع وأعملوا القلم فيها ووجدوا مادة خصبة في أخبار السابقين من خلافات ومناقشات وحروب فصوروا هذه الأخبار حسبما يتراءى لهم ثم اخترعوا الكثير من عندهم بأسلوب قصصي مثير لتشجيع من يقرأ ويستمتع به وتنوعت أبواب هذه الكتب وأغراضها بين النقد الأدبي المحض أو القصص والمناظرة . وفي سبيل جمال العرض وحصافة الفكرة وركازة الأسلوب لم يتوانَ كثير منهم عن اختراع القصص وتلفيق الأخبار التي تعتبر في حد ذاتها مَنْقَصَة في حق كثير من فضلاء المسلمين ، ولدينا الأمثلة الكثيرة على ذلك ، فكتاب البخلاء للجاحظ لا ينكر قدره من الناحية الأدبية ولكنه لَمزَ وعابَ كثيرا من علماء المسملين وقدح في حقهم بلا تورع ، وارجع إلى كتابه « البيان والتبين » لترى الخطب الكثيرة التي نسبها إلى أمير المؤمنين علي وإلى معاوية رضي الله عنهما والمراسلات المتبادلة بينهما وفيها من بذاءة اللفظ ما تنزه عنه صغار الناس بله صحابة رسول الله ﷺ .

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه كثيرٌ من القصص عن الخلفاء والأمراء والوزراء أعمل فيها الكاتب فكره وبراعته في الأدب أو نقلها كما سمعها عن غيره من الأدباء ومعظمها مما لا يقبله العقل بالنسبة للتناقض الواضح في ثناياها ولكنها عند أهل الأدب

طرف أدبية عظيمة شيقة الأسلوب جيدة العرض ولديك كذلك الكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي والمستطرف للإبشيهي ومجالس ثعلب .

وكل هذه الكتب لا يجحد فضلها في مجال الأدب واللغة ولكن من غير الإنصاف أن تصبح أخبارها مصادر للتاريخ الإسلامي يستمد منها بعض الكتاب ما يؤيدون به وجهة نظرهم في واقعة من وقائع التاريخ أو مشكلة من مشاكله ونحن إذا قلنا ذلك لا نتجنى .

فقد وجدنا محاضرات تلقى على طلاب المعاهد الأزهرية العليا وكليات الجامعة في التاريخ الإسلامي وكان المحاضر سامحه الله يتكلم عن وقائع عصر الخلفاء الراشدين ويعمل معول التشهير في أعراضهم ــ ربما عن جهل ــ لأنه يلفت نظر الطلاب إلى مصدر هذه الأخبار فإذا به كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ولم يقل أحد من علماء الحديث أو رجال الجرح والتعديل أو الفقهاء في أي عصر من عصور الإسلام إن ابن عبد ربه ممن ينقل عنه أخبار عن صحابة رسول الله ﷺ ولكن الدكتور سامحه الله يكتفي بالنقل من المجلات الأدبية وكتب الأدب ليوفر مشقة البحث العلمي وليشغل وقته بلا جهد ويكفيه أنه حصل على لقب دكتور ليعفيه ذلك من مشقة البحث وجهد التحصيل .

وكم من قصص وأخبار يروجها الناس حتى يومنا هذا وفيها من الطعن والتجريح ما فيها في حق أشخاص ظلموا الظلم الفادح ، ولم نتق الله في التحقق من صحة هذه الأخبار قبل الطعن والتجريح ، وجعلنا عرضهم نهبا مشاعا لكل متحدث ومتأول ويضيق المقام عن تفصيل هذه المسائل وما أكثرها ويكفينا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ (سورة الحجرات 6) .

بل زاد الطين بلة أن المؤسسات والمنظمات الصهيونية في العصر الحديث تلقفت هذه القصص وترجمت كتاب ألف ليلة وليلة إلى معظم لغات العالم ثم أخرجت الأفلام السينمائية عن تاريخ الإسلام وهي تصور مجالس الخمر والعبيد والجواري والمؤامرات داخل القصور ومجون أمراء المؤمنين .

ثم اختيرت بعض هذه الروايات وعمل لها دوبلاج (أي تحويل النطق إلى اللغة العربية) ومن أمثلتها الفيلم الأمريكي « لص بغداد » الذي يصور الحياة في قصور المسلمين في عهد الخلافة العباسية ثم فيلم « علاء الدين » وفيلم « صلاح الدين الأيوبي » الذي عهد به إلى عملاق من عمالقة المخرجين في أمريكا هو سيسيل ، ب ، دي ميل فأخرج شخصية صلاح الدين كرجل جعل منه العشق بطلا من الأبطال .

ومثل هذا كثير مما يحزن له القلب وتدمع له العين دما وأصبحت الطبقة المثقفة التي تعيش في ظل هذه الأكاذيب لا تعلم عن المجتمع الإسلامي في عصره الذهبي إلا الترف والنساء ومجالس الخمر ومؤامرات الحريم والخصيان .

وبذلك أساءت الحركة الأدبية إلى حقائق التاريخ الإسلامي وأصبح التراث الأدبي عبئا جديدا يضاف على كاهل الباحث التاريخي المنصف وأصبح اقتلاع هذه الأفكار من الكتب الحديثة التي نتجت عن كتب الأدب مهمة ضرورية بل رسالة سامية .

* * *

التزوير العلمي للتاريخ الإسلامي

لا يخفى على عاقل أن تدوين التاريخ إنما هو تسجيل للوقائع والأحداث دون أن يمتد عقل الكاتب وفكره ومذهبه إلى هذه الأحداث والوقائع وهذا ما يعرف ويسمى بالمذهب الموضوعي في كتابة التاريخ وهو ما التزم به الكتاب والمؤرخون القدامى .

ولقد انفرد المؤرخون والمحققون المسلمون باتباع مقياس علمي دقيق وهو المتبع في علم مصطلح الحديث حيث تقسم الروايات والأخبار إلى صحيح وضعيف وموضوع وبالتالي فلا يقبل إلا الخبر الصحيح وهو ما رواه العدل الضابط عن مثله ، متصل السند ، من غير شذوذ ولا علة .

فإذا انتهت هذه القواعد وهذا المقياس العلمي إلى ثبوت الأخبار والوقائع أثبتوا ذلك دون أن يكون لفكرهم ومذهبهم أي تأثير في صياغة الأخبار والوقائع .

ولكن في القرن التاسع عشر ظهر اتجاه تزعمه فرويد يخول للمؤلف والكاتب أن يدخل عقيدته وفكره في التاريخ متعللا أن من حقه تفسير الأحداث التاريخية وتعليلها والحكم على أصحابها .

وقد اتبع هذا النهج بعض المفكرين الغربيين وأكثر المفكرين الشيوعيين وذلك لخدمة مذاهبهم ، وبذلك حرفوا أحداث السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي تحت ستار الأسلوب العلمي في تفسير التاريخ .

ومن الأمثلة على هذا التزوير ما يأتي :

1 — زعم مونتجمري وات في كتابه محمد في مكة أن النبي ﷺ كان يذهب إلى غار حراء للاصطياف لأنه كان فقيرا ولا يملك السفر إلى الطائف وهو لا يجهل

أن النبي ﷺ في هذه الفترة سافر إلى الشام في التجارة ، كما أنه بعد تكليفه بالرسالة ذهب إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام والسفر إلى الطائف ليس عقبة أمام فقراء مكة .

2 ــ زعم نفس المستشرق في كتابه محمد في المدينة أن المسلمين الأوائل إنما أسلموا لتحسين أوضاعهم المادية ، وهذا المستشرق لا يجهل أن الزكاة لم تفرض إلا بعد الهجرة إلى المدينة وأن المسلمين الأوائل منهم الأغنياء كأبي بكر وعثمان ومصعب بن عمير فلم يسلموا لتحسين أوضاعهم بل جاهدوا بأنفسهم وأموالهم ولم يسلم فقير لمثل هذاالسبب حيث كان الاضطهاد والتعذيب لمثل هؤلاء ، وفي ذلك قال الله تعالى ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطَّف من أرضنا** ﴾ (سورة القصص 57) .

3 ــ ثم يأتي طه حسين في كتابه الوعد الحق وكتابه الفتنة الكبرى ويتبنى أقوال هذا المستشرق ولكن ينسبها إلى نفسه كعميد للأدب العربي فيقول إن العوامل الاقتصادية جعلت الفقراء في مكة يدخلون في الإسلام .

4 ــ ثم يتجاوز مونتجمري دعوى التفسير للتاريخ فيزور ما يوجد في المصادر التاريخية فينسب إلى البخاري أنه في الصفحة السابعة والستين روى أن النبي ﷺ دافع عن الشغار بينما في هذه الصفحة أثبت البخاري حديث ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الشغار . وقال البخاري والشغار أن يزوج الرجل ابنته إلى شخص بشرط أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق .

5 ــ ويزعم نفس المستشرق في ذات الكتاب أن أحداث التاريخ والسيرة تثبت أنه في عصر النبي ﷺ كان هناك تعدد الأزواج فالنساء كان لهن أكثر من زوج[1] وهذا لم يقله أحد في القديم أو الحديث حتى ولم يقله أشهر الناس كذبا وافتراء .

---

(1)تفصيل الرد على هذه المزاعم تجدها في كتاب الغزو الفكري للتاريخ والسيرة .

6 ــ وزعم أحمد عباس صالح أن أبا بكر كان يمثل الوسط وأن عمر كان يمثل اليسار وأن المغيرة بن شعبة كان من زعماء اليمين وأن النبي ﷺ كان زعيم اليسار وأن المقربين منه كانوا من اليسار إلا أن السياسة العليا لتثبيت دعائم الدولة الجديدة اقتضته ألا يدخل في مجلس الشورى إلا كبار المسلمين من حيث مركزهم القبلي والسياسي[1] .

7 ــ واستخدم الدكتور عبد الرحمن الشرقاوي التفسير المادي والماركسي في أحداث السيرة فقال (روع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأحد .... فما يفيق أحدهم من الخمر أو يفارق نوادي القمار إلا ليستمتع بإحدى المغنيات أو الراقصات اليهوديات ، فأطلق مناديا يدعو الناس إلى ترك الخمر وألا يقربوا الميسر والفواحش) ص227 . من كتابه محمد رسول الحرية .

ولا يخفى على الباحثين أن القرآن الكريم هو المصدر الذي ورد به تحريم الخمر وتحريم الفواحش فآيات تحريم الفواحش نزلت بمكة وبالتالي لا يوجد مسلم بالمدينة مع النبي ﷺ يحارب في بدر وأُحد ثم يذهب إلى الراقصات وبالتالي فدعوى أن تحريم الفواحش يرجع إلى هذا السبب ، أمر ليس له أي أساس من الواقع .

وكذلك تحريم الخمر لم يكن للسبب الذي ذكره بل لما ورد في القرآن الكريم من أنها رجس وتجلب العداوة والبغضاء .

والجدير بالذكر أنه بعد الرد عليه وبيان أن هذا تفسير ماركسي للسيرة النبوية[2] كان رده (أني لا أهمل التفسير المادي للتاريخ ولكني لا ألتزمه التزاما ، وما لي لا أضعه في الاعتبار وهو باب من العلم يجب ألا نطلقه ؟)[3] .

---

(1)مقال في مجلة الكاتب المصرية في يناير 1965وتفصيل هذه المزاعم والرد عليها بكتاب الغزو الفكري للتاريخ والسيرة ص293 إلى ص347 .

(2) سالم البهنساوي الغزو الفكري للتاريخ والسيرة ص339 ومقال نشر في جريدة الوطن الصادرة في الحديث يوم 1983/12/16 .

(3 مقال له في الوطن بتاريخ 1984/1/4 .

فهل من أبواب العلم أن يقول إن محمدا قد نادى لتحريم الخمر والفواحش بعد غزوة بدر وأُحد لأن رجاله البواسل كانوا يذهبون إلى الراقصات اليهوديات بعد الغزوة مباشرة ؟ والكاتب لا يجهل أن الذي حرم الخمر والفواحش هو الله تعالى وليس محمدا ولا يجهل أن محمدا رسول الله وليس رسول الحرية كما يحلو أن يقدمه في كتابه . كما لا يجهل أي باحث أن هذه الأسباب الماركسية لا تتصل من قريب أو بعيد بأسباب تحريم الخمر والفواحش ولا بزمان تحريمهما . فقد حرمت في جميع كتب الله حسبما أفصح عن ذلك القرآن الكريم وبالتالي لا يجهل أحد أن تحريم الفواحش لم يبدأ في المدينة بل كان مع نزول القرآن الكريم في مكة فلا صلة له بغزوة بدر أو أحد ، ومن الكذب البين أن يقال إن المجاهدين من الصحابة كانوا ينحدرون من الغزوات إلى بيوت الراقصات .

* * *

الحاجة إلى منهج للتاريخ الإسلامي

إن مصادر التاريخ الإسلامي في حاجة ماسة إلى التمحيص ، لأن أخبارها جُمعت في فترات الفتن والخلافات السياسية والمذهبية ، حتى استغل أعداء الإسلام من اليهود والمشركين هذه الفتن ، فاختلقوا الروايات التي تظهر صحابة رسول الله ﷺ بمظهر الذين باعوا دينهم وأنفسهم من أجل المال وزينة الحياة الدنيا ، الأمر الذي يثير التناقض بين هذه الروايات المفترض أنها تمثل الواقع ، وبين ما جاء في القرآن الكريم والسنّة النبوية عن صحابة رسول الله ﷺ[1] .

فقد وصف الله هؤلاء الصحابة بقوله تعالى : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (الحشر 9,8) ، فكيف يقطع القرآن بصدق هؤلاء وتجردهم ثم نتبع من يكذب هذا الوصف . لقد قال الله فيهم : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ (سورة الفتح 18) .

وقال النبي ﷺ : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، ثم قال : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » رواهما الأربعة . التاج الجامع للأصول جـ3 ص304 ، 306 .

---

(1) سالم البهنساوي ، الغزو الفكري للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار ص40 ــ 41 [illegible] آفاق الغد بمصر .

وقال الحافظ أبو بكر بن الخطيب البغدادي (لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما جاء في القرآن والسنة ، لأوجبت الحال التي كانوا عليها ــ من الهجرة والجهاد ، والنصرة ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان ، واليقين ــ القطع في عدالتهم والاعتقاد بنزاهتهم)[1] .

إن المسلم لا يمكنه التسليم بهذه المهازل عن رجال الصدر الأول للإسلام ، الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم وسنَّة النبي ﷺ ، وجاهدوا بالمال والنفس لنصرة الإسلام .

ولقد أراد الله حفظ دينه بحفظ سنة نبيه عن طريق رجال من أشد الناس إخلاصا لدين الله ، وحبا لنبيه ﷺ ، فعكفوا على الأحاديث النبوية يستبعدون ما شابها من دس واختلاق ويتعقبون الكذابين من الرواة بالبحث والتحري ، حتى استأصلوا شأفة الوضع والوضاعين . كما وضعوا مناهج فريدة للبحث والتحري عن الرواة وتمييز الصحيح من الضعيف من الأحاديث . فظهر علم الجرح والتعديل[2] حتى أصبح المجتهد والباحث في الفقه الإسلامي وأصول الدين يجد بين يديه ثمرة طيبة ، وهو ما أشار إليه أسد رستم في كتابه مصطلح التاريخ لأن اشتراط ذكر مصدر الخبر ورواته ثم تتبعهم وتمحيص سيرتهم هو أكبر علاج لآفة الكذب في التاريخ وهو ما تميز به المسلمون .

إن مناهج علوم الحديث والفقه والأصول توجب ألا يقبل الخبر إلا إذا رواه العدل الضابط عن مثله متصل السند من غير شذوذ ولا علة ، وهذه المناهج تتحدى أرقى ما وصلت إليه مناهج البحث الحديثة في الدنيا كلها حتى يومنا هذا ، إذ انفرد المسلمون بالإسناد ، ولم يكن الحال كذلك بالنسبة لكتابة التاريخ أو تصنيفه . فقد زاول المؤرخون كتابة التاريخ الإسلامي ، بأن جمعوا في مصنفاتهم كل ما سمعوه أو قرؤوه . فانضم إلى هذا الكذابون والقصاص وأهل الأهواء والمذاهب السياسية ، وأصبح التاريخ الإسلامي وعاء لكل أنواع الأخبار الصحيحة والباطلة .

---

(1)العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص34 .

(2) كما يوجد علم تاريخ الرحال وعلم مختلف الحديث وعلم علل الحديث وعلم مصطلح الحديث ــ السنة المفترى عليها للمؤلف ص64 .

لهذا فإن مصادر التاريخ الإسلامي بحالتها لا تعبر تعبيرا حقا عن الأحداث . ومما زاد الطين بلة أن الكتاب في تاريخ الإسلام ، مخلصهم ومغرضهم أقبلوا على هذه المصادر ، يأخذون منها كل ما فيها دون أن يكون هناك منهاج يسير الباحث على ضوئه ، ليميز الخبيث من الطيب ويهتدي إلى سواء الصراط .

ثم ظلت عصور التاريخ الإسلامي الأخرى مرتعا خصيبا للدس والوضع والتجني والجهل بالإسلام ، فاستمسك بها أعداء الإسلام ، وأهل الملل الأخرى ، يأخذون منها نصالا مسمومة لتشويه تاريخ الإسلام والمسلمين .

ولكن لم يخل الأمر من ومضات أزالت بعض الشبهات ، وردت بعض المفتريات ، ولكنها كانت متفرقة ، لم تجمع في شكل بحث محدد أو منهج واضح . لهذا فالمسئولية الملقاة على عاتق علماء المسلمين اليوم لجمع أخبار التاريخ الإسلامي وتصنيفها وتحقيقها وتهذيبها في ضوء منهج لا يتعارض مع أصول الدعوة الإسلامية .

لقد وقع التاريخ الإسلامي ضحية مؤامرات كبرى ، استهدفت الافتراء على أصول الإسلام وإلباس الباطل ثوب الحق ، والطعن في رجال الإسلام وقادته ، وإضعاف عقائد المسلمين ، لإثبات أن الإسلام كان قولا لا عملا ، وأن المسلمين لم يثبتوا على دينهم إلا فترات قليلة من تاريخهم الأول ، ثم ضلوا السبيل وركبوا موجة الأهواء كغيرهم من أصحاب الملل والنحل .

إن هذا الافتراء لا يستعصي على الرد أو التفنيد لو عكف المسلمون على التحقيق الجدي المثمر لأخبار تاريخهم بلا ملل .

إن المؤامرات على الإسلام وتاريخه ، لم تقتصر على أعمال بعض الأوربيين وعلى تقليد بعض العرب للفلسفة الأوربية ، بل امتدت إلى تغيير بعض أحداث التاريخ الإسلامي ، لتلائم الفلسفة الأوربية ، ثم امتدت المؤامرات إلى تطويع مفاهيم القرآن والسنة ، لتساير المذهب الشرقي أو الغربي .

أهداف الطعن في الصحابة :

إنه إذا كان المؤرخون القدامى أمثال الطبري وابن الأثير ، لم يفطنوا إلى أن التاريخ سيكشف في المستقبل عن أشخاص ليس لهم من الإسلام إلا اسمه ، سيقلون الروايات

التي روجها المنافقون ونقلها هؤلاء المؤرخون ضمن ما نقلوا من الروايات الصحيحة ثم يصدقهم الغافلون والجاهلون .

فإنه ليس هناك من هدف في عصرنا لاختيار الشنيع من الأخبار المنسوبة إلى صحابة رسول الله ﷺ ، وترك باقي الأخبار التي تكشف عن إخلاصهم وإيثارهم على أنفسهم وهو ما شهد به القرآن الكريم لهم ليس هناك من هدف لاختيار الروايات الكاذبة سوى إظهار هؤلاء الصحابة بمظهر الذين باعوا دينهم من أجل حطام من الدنيا أو المنصب الزائل .

وبهذه الصورة الكاذبة يصل القارئ إلى نتيجة واحدة هي التشكيك في الصحابة رضي الله عنهم وإظهار هذا الرعيل الأول بالمظهر التافه ، فيسهل عليهم أن يتناولوا كل واحد منهم بالطعن والتجريح ، ثم بعد ذلك يقولون للمسلمين والعرب : انظروا إلى أجدادكم ، وبناة مجدكم . كانوا هكذا على جانب من الحرص والطمع والتكالب على الحطام الحقير . فهذا عمر بن الخطاب ، والحباب بن المنذر . وسعد بن عبادة ، يتشاجرون طمعا في الخلافة ويطعن بعضهم بعضا في حمق وطيش[1] إذا كان الأقدمون قد سطروا كل ما سمعوه من باطل وحق .

ونقل الطبري وابن الأثير[2] ، صورة خلاف بين الحباب بن المنذر بن الجموح ، وبين عمر بن الخطاب ، لا ينبغي أن يكون بين الطامعين من بعض الأحزاب في عصرنا .

فقد نقلوا صورا مضيئة تنقض هذه الصورة السيئة ولكن انتقاء الصورة السيئة يشكك في صحابة الرسول ﷺ الذين زكاهم القرآن الكريم في أكثر من موضع والذين قد رجحت كفتهم بشهادة الجميع .

فالحباب بن المنذر قد ضرب المثل في العمل الصادق في إيمانه ومحبته لرسول الله

---

(1) انظر كتاب الصديق أبو بكر للدكتور هيكل ص66 وما بعدها .

(2) الكامل جـ2 ص223 ط منير .

الله ، وحرصه على مصلحة المسلمين إذ قدم نصيحته — في أدب جم — إلى رسول الله ﷺ في غزوة بدر . عندما رأى موقف المسلمين في مكان لا يمكنهم من النصر فنصح رسول الله بالعدول عن المكان الذي اختاره إلى مكان آخر[1] . وكان النصر فيه للمسلمين .

وسعد بن عبادة الذي جعلوا منه منافسا يسعى للخلافة بشره ، ويدبر لها المؤامرات ، ويستعمل في الوصول إليها كل أساليب التفرقة بين المسلمين .

هذا الرجل — إذا راجعنا تاريخه ، وتتبعنا مسلكه ، وجدنا مواقفه مع الرسول ﷺ ، تجعله من الصفوة الأخيار ، الذين لم تكن الدنيا أكبر همهم ، ولا المناصب فيها شهوة لهم[2] .

فهو النقيب في بيعة العقبة[3] الأخيرة حتى لجأت قريش إلى تعقبه قرب مكة وربطوا يديه إلى عنقه وأدخلوه مكة أسيرا حتى أنقذه منهم جبير بن مطعم بن عدي حيث كان يجيرهم في المدينة وهو من الذين شهدوا بدرا[4] وحظي بمقام أهل بدر ومنزلتهم عند الله وعند الناس .

وفوق ذلك ، فإن رسول الله ﷺ ، شهد له بأنه من بيت جود وكرم ، كما أننا نجد في تاريخه أن النبي ﷺ ، اعتمد عليه هو وسعد بن معاذ في غزوة الخندق ، واستشارهما في إعطاء ثلث ثمار المدينة لعيينة بن حصن الفزاري ، فكان رد السعدين ، يدل على عمق الإيمان وكمال التضحية ، مما شرح صدر رسول الله ﷺ ، حتى أعلن عن رضاه .

كما أننا نجد سعد بن عبادة في مكانته عند الرسول ، بمنزلة كبيرة ، حيث أعطاه الراية على الجيش يوم فتح مكة[3] . ثم هو الذي أخرج صفوان بن المعطل

(1) حياة محمد . د . محمد حسين هيكل 356 .
(2) أباطيل يجب أن تمحى . د . إبراهيم شعوط ص95 - 99 .
(3) امتاع الاسماع للمقريزي ص 37 .
(4) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ2 ص 594 .
(5) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ 2 ص 597 .

من السجن الذي أمر به رسول الله ﷺ ، في حق لحسان بن ثابت وكساه . فلما رآه النبي ﷺ قال : « من كسا صفوان ؟ قالوا : سعد بن عبادة قال : كساه الله من ثياب الجنة »[1] .

وفي غزوة ودان ـــ استخلفه رسول الله على المدينة[2] وهو الذي وهب سيفه لرسول الله يوم « بدر » وأهداه درعه . وكان رأيه أن يقتل الأسرى يوم بدر[3] .

فهذا الرجل صاحب هذا الماضي الصادق الصحبة لرسول الله ﷺ ، لا نستطيع أن نصدق أنه كان يريد أن يحيي العصبية الجاهلية في مؤتمر السقيفة[4] ، ليحصل في غمار هذه الفرقة ـــ على منصب الخلافة . ولا نصدق أبدا ، ما ورد في بعض المراجع من أنه ـــ بعد بيعة أبي بكر ـــ كان لا يصلي بصلاتهم . ولا يفيض في الحج بإفاضتهم[5] ـــ كأنما انفصل سعد بن عبادة عن جماعة المسلمين ، وشرع لنفسه صلاة خاصة ، وجعل لنفسه موقفا يفيض منه في عرفات غير موقف الحجيج من المسلمين .

إنه لا جدال في أن أمر الخلافة ـــ بعد الرسول ﷺ كان واضحا في أذهان هؤلاء جميعا ، وأنه سيكون من المهاجرين ، وليس للأنصار منه شيء ، نرى ذلك في وصية رسول الله ﷺ في مرض موته للمهاجرين حيث قال : « يا معشر المهاجرين : استوصوا بالأنصار خيرًا ، فإن الناس يزيدون . والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[6] .

وأيضا قد روى الطبري والسيوطي ـــ وأحمد في مسنده ، أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته التي ألقاها يوم السقيفة ما يأتي :

(3،2،1) سامتاع الأسماع للمقريزي جـ1 ص 212 وص 53 و ص95 .
(4) د . إبراهيم شعوط . أباطيل يجب أن تمحى ص97 .
(5) الكامل لابن الأثير جـ2 ص 224 فيه هذا المعنى تقريبا أو حوله .
(6) الصديق أبو بكر هيكل ص 70 والإمامة والسياسة لابن قتيبة ص 3 من هذا النص .

« لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال : لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار واديا ، سلكت وادي الأنصار . ولقد علمت يا سعد ، أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم فقال سعد : صدقت ، فنحن الوزراء وأنتم الأمراء »[1] .

وأين النزاع ؟ ولم الصراع ؟ فأبو بكر الذي قيل عنه : إنه كان حريصا على إمارة المؤمنين ، هو الذي ترك تجارته ليتفرغ لشئون المسلمين ، حتى اضطر أصحابه أن يفرضوا له من بيت المال ما يصلح به نفسه وعياله[2] ؟

هذا أبو بكر ــ وهو مشرف على الموت ــ لم تطب نفسه بما أخذه من بيت المال ، بل قال : « ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإني لم أستحق من مال المسلمين شيئا . وإن أرضي ــ التي بمكان كذا وكذا ــ للمسلمين ، بما أصبت من أموالهم » . ونفذ عمر هذه الوصية . ثم قال : « يرحم الله أبا بكر . لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا »[3] .

ماذا كان من أمر عمر لما أصبح أمير المؤمنين ؟ إن هذا الذي قيل عنه إنه كان متكالبا على الخلافة في سقيفة بني ساعدة ــ الذي اخرج نفسه وبايع أبا بكر وبعد طعنه قيل له اعهد إلى ابنك عبد الله ، قال : « حسب آل الخطاب أن يعذب منهم واحد » ! وعندما استجاب لأهل الشورى بترشيح مجموعة للخلافة جعل ابنه منهم في الرأي فقط ــ وبشرط ألّا تسند إليه .

فكيف يقبل منصف روايات السب والشتائم وصورة التكالب والحرص على الدنيا ، مع علمهم بحرص كل خليفة من هؤلاء ، على الفرار من المسئولية العظمى أمام الله .

---

(1) الطبري جـ3 ص203 وتاريخ الخلفاء ص70 .
(2) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص98 ، 99 .
(3) الصديق أبو بكر للدكتور هيكل ص382 . ص 44 .

فأبو بكر ، وهو في مرض موته قال : « إني لا آسي على شيء من الدنيا ، إلا على ثلاث فعلتهن ، وددت أني تركتهن . ثم قال من هذه الثلاث : وددت أني يوم السقيفة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين ـــ يريد عمر وأبا عبيدة ـــ فكان أحدهما أميرًا وكنت وزيرا »[1] .

كما أخرج موسى بن عقبة في مغازيه . والحاكم في صحيحه . عن عبد الرحمن ابن عوف قال : « خطب أبو بكر فقال :

والله ، ما كنت حريصًا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله في سر ولا علانية ، ولكني أشفقت من الفتنة »[2] .

والإمام الموسوي وهو من علماء الشيعة المعاصرين ينقل عن نهج البلاغة أن الإمام علي كان يقول : « دعوني والتمسوا غيري ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطيعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا »[3] .

* * *

---

(1) المرجع السابق ص380 .

(2) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 69 .

(3) الشيعة والتصحيح للإمام موسى الموسوي ص14 ص 20 ـــ ونهج البلاغة جـ1 ص 182 ، جـ3 ص 7 .

الفصل الثاني

الخلافة ورئاسة الدولة

- الخلافة والحكومة الدينية
- اختيار الخليفة بين الحق الإلهي والشورى
- سيادة الأمة في النظام الإسلامي
- الجزية والنظام الإمبراطوري

الخلافة ورئاسة الدولة

لقد منع الله الصحابة من الدفاع عن أنفسهم بمكة حيث لم تكن عناصر الدولة قد تحققت لهم فيها حتى هاجروا إلى المدينة وانضموا إلى الأنصار بها وتحققت لهم عناصر الدولة بها .

وكان النبي ﷺ هو رئيس الدولة الإسلامية التي أعلنها عند هجرته من مكة بعد بيعة العقبة الكبرى وبعد أن أذن الله له بذلك وكانت المدينة المنورة عاصمتها .

ولقد كتب وثيقة بتنظيم العلاقات بين المواطنين فبينت هذه الصحيفة أو الوثيقة حقوق وواجبات رعايا هذه الدولة من المسلمين ومن غير المسلمين فأشارت إلى أن لليهود ومواليهم وأنفسهم ما لأهل هذا الكتاب أو هذه الصحيفة وأن لهم النصرة والأسوة كما بينت أنه عند الاختلاف يكون القانون الإسلامي هو الواجب التطبيق .

وبعد وفاة النبي ﷺ احتاج الأمر إلى تسمية من يتولى أمر هذه الدولة وكان ذلك في بداية انتخاب أبي بكر رضي الله عنه فسمي بالخليفة . قال ابن خلدون[1]« أما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ﷺ في أمته ، فيقال خليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله ، واختلف في تسميته خليفة الله ومنع الجمهور هذه التسمية وقد نهى أبو بكر عنها لما دعي بذلك وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ »[2] . والمستقر هو تسميته بالخليفة لأنه خلف من كان قبله قال

---

(1)مقدمة ابن خلدون الفصل السادس والعشرون ص159 .

(2) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص27 .

الله تعالى : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي** ﴾ (الأعراف/142) .

والرأي الشاذ الذي يجيز تسمية الرئيس خليفة الله يستند إلى قول الله تعالى ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . ولكن المراد من ذلك هو آدم ثم النوع الإنساني من بعده وليس الاستخلاف هنا خاصا برئيس الدولة فقط[1] ، بل إن النبي ﷺ اختار اسم الخليفة لأنه يخلفه فقال : [أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين] (البخاري . الجنائز 96) ، كما يسمى رئيس الدولة في الإسلام بأمير المؤمنين ويذكر ابن خلدون أن هذه التسمية من سمات الخلافة وهي منذ عهد الخلفاء حيث كان القائد يدعى بالأمير وكان الصحابة يطلقون على سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لقيادته جيش القادسية[2] .

ولكن هذه التسمية اختارها عمر بن الخطاب حيث كانوا يطلقون على أبي بكر خليفة رسول الله ثم أطلقوا على عمر خليفة خليفة رسول الله فلم يستحسن ذلك لأن رؤساء الدولة من بعده سيسمون خليفة خليفة خليفة رسول الله وتصبح ثلاثة ألقاب ثم أكثر وقال (بل أنتم مؤمنون وأنا أميركم) .

وقد جاء أحد مبعوثيه من مهمته ودخل ليسأل عنه فقال أين أمير المؤمنين فاستحسن الصحابة ذلك وقالوا أصبت والله هذا الاسم ، وقد قيل لعمر يا خليفة الله فقال للرجل خلف الله بك[3] .

كما كان يسمى رئيس الدولة بالإمام أو إمام المؤمنين حيث يأتم به المسلمون في الصلاة وفي غيرها والمعنى اللغوي يفيد التقدم والقصد إلى جهة معينة والهداية والإرشاد والقيادة والقدوة[4] .

---

(1)تفسير الرازي جـ1 ص381 .

(2) مقدمة ابن خلدون الفصل الثاني والثلاثون ص189 .

(٣) المرجع السابق وتاريخ الطبري 227/3 والأحكام السلطانية للماوردي ص 15 .

(4) القاموس المحيط الجزء الرابع كلمة أمة .

وفي القرآن الكريم ﴿ **وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما** ﴾ (البقرة/124) وفيه أيضا ﴿ **ونجعلهم أئمة** ﴾ (القصص/5) وفيه ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ...** ﴾ (الأنبياء/73) .

فالخلافة أو الإمامة أو الإمارة هي خلافة عن النبي ﷺ في حراسة الدين والدنيا وذلك بحمل الناس على مقتضى النظر الشرعي وهي من أصول الدين إذا أريد بها تحكيم شريعة الله وهي من فروعه إذا أريد بها النظام السياسي كوسيلة لتحكيم شرع الله .

الخلافة والحكومة الدينية :

ظهر في أوروبا في القرون الوسطى نظام الحكومة الدينية ويطلق على حكم البابوات لأوروبا ويسمى الأوتوقراطية أي السلطة الفردية المطلقة وهي التي كان يتمتع بها رؤساء الكنيسة حيث كانوا يجمعون في حكمهم بين سلطة التشريع والتنفيذ والقضاء فيشرعون للناس من عند أنفسهم ويقولون إنه من عند الله لأنهم يتكلمون باسم الله[1] .

والإسلام لا يعرف هذا النوع من الحكومة ، فالخليفة يختاره الناس ويعزلونه ولقد رفض الخليفة الأول أن يسميه أحد بخليفة الله لأن الخلفاء ليس لهم سوى السلطة الدنيوية ويختارون من الأمة وهي التي تحاسبهم وتعزلهم ، أما السلطة التشريعية فهي تتمثل في القرآن والسنة النبوية ، وأما السلطة القضائية ففي بداية الحكم الإسلامي تولاها النبي ﷺ لعدم وجود ضرورة لتفرغ آخرين للقضاء وأيضا لتكون إجراءاته وأحكامه تشريعا ودستورا للمسلمين من بعده ، ثم إنه في حياته أسند القضاء في بعض الأمور إلى بعض الأشخاص كعمر وعلي ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري والعلاء بن الحضرمي ومعقل بن يسار وعمرو بن العاص وعقبة بن عامر ، وحذيفة

---

(1)حضارة الإسلام جوستاف جرونيباوم ص 204 الألف كتاب ــ مصر .

ابن اليمان ، وعتاب بن أسيد ، ودحية الكلبي ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت[1] ، فالأئمة ليس لهم عصمة في الدين تخولهم الجمع بين التشريع والحكم والقضاء وليسوا رجال دين بالمفهوم الأوروبي ، ولقد سألت زينت بنت المهاجر أبا بكر لأنه الخليفة الأول فقالت : ما الأئمة ؟ قال أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت بلى . قال : فهم أولئك على الناس . (رواه البخاري كتاب المناقب جـ8 ص 149) .

هذا وبعد عصر النبي ﷺ انفصل القضاء نهائيا عن الخلفاء ، وتوجد رسالة لعمر ابن الخطاب موجهة إلى القضاة ما زالت دستورا لهم حتى يومنا .

وجوب تعيين الخليفة :

أجمع المسلمون على وجوب الخلافة أو الإمامة أو الإمارة وأن تعيين الخليفة فرض على المسلمين يرعى شئون الأمة ويقيم الحدود ويعمل على نشر الدعوة الإسلامية وعلى حماية الدين والأمة بالجهاد وعلى تطبيق الشريعة وحماية حقوق الناس ورفع المظالم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد . وهذا ثابت بالقرآن والسنة والإجماع .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ (النساء/59) .

والخليفة هو الإمام الأكبر ورئيس الدولة وولي الأمر ، وطاعته واجبة بهذه الآية ومن ثم فوجوده واجب وبيعته واجبة لأن البيعة هي عهد على الطاعة وتنفيذ شرع الله[2] .

والجدير بالذكر أن طاعة الخلفاء والرؤساء ليست طاعة مطلقة بل مقيدة ،

---

(1) أقضية رسول الله ﷺ للإمام أبي عبد الله محمد بن فرج ص23 إلى ص35 وانظر حقيقة الحكومة الدينية وسيادة الأمة في كتاب [شريعة الله المفترى عليها] وكتاب [الإسلام لا العلمانية] للمؤلف .

(2) الفصل في الملل والنحل لابن حزم جـ4 ص87 والسياسة الشرعية لابن تيمية ص 4 وتفسير الطبري جـ5 ص147 وفتح الباري لابن حجر جـ 9 ص322 ومقدمة ابن خلدون جـ2 ص549 .

يقول النبي ﷺ [لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف] .

وقوله [كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد][1] .

وفي السنة النبوية قال النبي ﷺ [لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم] رواه أحمد جـ2 ص176 وقوله [من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية] رواه الشيخان[2] .

إنه تحذيرا من النزاع والاقتتال سعيا وراء الرئاسة والزعامة ، قال ﷺ [إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما] مسلم 242/12 .

أما الإجماع فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينتظروا حتى يتم دفن الرسول ﷺ وتوافدوا للاتفاق على إمام أو خليفة وعلل أبو بكر قبول هذه الأمانة وهو خوفه أن تكون فتنة أي من عدم تعيين خليفة للمسلمين قال الشهرستاني في ذلك (ما دار في قلبه ولا في قلب أحد أنه يجوز خلو الأرض من إمام ، فدل ذلك كله على أن الصحابة وهم الصدر الأول كانوا على بكرة أبيهم متفقين على أنه لابد من إمام ، فذلك الإجماع على هذا الوجه دليل قاطع على وجوب الإمام)[3] .

* * *

---

(1) كنز العمال جـ 6 حديث 294 والترمذي كتاب الجهاد باب 29 ومجمع الزوائد جـ5 ص227 .

(2) انظر أنواع البيعة وحكمها في كتاب الحكم وقضية تكفير المسلم / سالم البهنساوي ص83ـ 141 .

(3) الملل والنحل للشهرستاني جـ7 ص83 ونظام الحكم محمود الخالدي ص237 إلى ص 248 .

اختيار الخليفة بين الحق الإلهي والشورى

إنه على مر التاريخ قد تعددت الآراء والنظم في أمر اختيار الحاكم فظهرت نظرية الحق الإلهي وأخذت بها الكنيسة في أوروبا حيث زعموا أنهم كحكام يستمدون سلطتهم من الله دون تدخل من البشر وبالتالي فلا مسئولية عليهم في أي فعل أو تصرف وقد استخدم ملوك فرنسا وخصوصا لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر هذا الحق في القرن السابع عشر فزعم كل منهما أنه هو الدولة وهو القانون .

وقد زعم الشيخ علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم بأن الخليفة يستمد سلطانه من الله وزعم أن هذا هو السائد بين علماء المسلمين وأنهم جعلوا الخليفة ظل الله في الأرض[1] ، وهذا الشيخ قد كتب ذلك عند إسقاط الإنجليز للخلافة العثمانية وكان في بداية تخرجه من الكلية ولا يعرف شيئا عن نظم الحكم فكيف يصبح ناقدا لها ومجتهدا فيها .

ولقد وقعت شبهة فيما ورد في كتاب الشيخ أبو الأعلى المودودي (نظرية الإسلام السياسية) عندما قال إن الحاكمية لله وحده وإن الله هو الحاكم الحقيقي وإنه لذلك فالنظام الإسلامي لا يدخل ضمن النظم الديمقراطية وأصدق تعبير له هو الحكومة الإلهية أو الثيوقراطية (ص5) .

ولم يذكر هؤلاء أن المودودي قد ذكر أن الثيوقراطية الإسلامية تختلف عنها في أوروبا حيث لديهم طبقة من السدنة تشرع للناس من دون الله أما في الإسلام فالسلطة أو الطبقة في أيدي المسلمين جميعا يتولون أمرها أي باختيار الحكومة وتكون مقيدة

---

(1) الإسلام وأصول الحكم ص7 وانظر نقد أقواله في كتاب الإسلام والعروبة للمفكر القومي الدكتور عصمت سيف الدولة وكتاب الإسلام لا العلمانية وكذا كتاب الشريعة المفترى عليها للمؤلف .

بالكتاب والسنة وقد قيل في ذلك إنه قد ابتدع مصطلحا جديدا في النظام الإسلامي وأن الذي ألجأه لذلك هو أنه استعمل المصطلحات الأجنبية وأجهد نفسه ليطبقها على الإسلام وكان في غنى عن ذلك[1] . ولكن الظاهر أنه قد احتاط لهذا فأزال هذا اللبس ، فالأستاذ المودودي رحمه الله في كتابه نظام الحياة في الإسلام يبين المقصود من حاكمية الله فيقول إن الإسلام لا ينوط أمر الخلافة في فرد من الأفراد أو بيت من البيوت أو طبقة من الطبقات بل يفوض أمرها إلى جميع أفراد المجتمع أي المجتمع المسلم أي يختار هو الحكومة ولذلك فاستخدام كلمة الحكومة الإلهية أراد به التزامها بشرع الله وليس أنها معينة من الله . وأيضا حاكمية الله في فكر الأستاذ سيد قطب لا تعني الحكومة الدينية. وقد أوضح أنها لا تكون بتولي الحاكمية رجال بأعيانهم وهم رجال الدين كما كان في أوروبا[2] .

يقول جورجي زيدان (الخلافة ضرب من الملك خاص بالإسلام لم يكن في سواه من قبل ، تمتاز عن سلطة القياصرة والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية وأما تلك فتنحصر في حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ويحكم الحكام حكما مطلقا)[3] .

النظام الديمقراطي واختيار الخليفة :

إنه على العكس من النظرية الثيوقراطية التي تجعل الحاكم هو صاحب السيادة المطلقة ، يتلقى ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر ، قد ظهرت نظرية الديمقراطية بعد الثورة الفرنسية ومضمونها أن السيادة للأمة كما ورد في إعلان حقوق الإنسان والمواطن الصادر في فرنسا سنة 1789 م أن (الأمة هي مصدر كل سيادة) وترتب على هذا أن الأمة تختار الحاكم وتحاسبه وتعزله كما أنها تملك التشريع والتحليل والتحريم

---

(1)النظم السياسية للدكتور عبد الغني بسيوني ص53,52 ص26,25 .
(2) أضواء على معالم في الطريق . سالم البهنساوي ص 206 إلى ص210 .
(3) جورجي زيدان . تاريخ التمدن الإسلامي جـ1 ص127 ط القاهرة سنة 1902 .

بدون أي قيد خارج عنها حتى أحلت المجالس النيابية الفواحش رغم ثبوت ضررها علميا .

وفي اختيار الحاكم توصلوا إلى نظام الانتخاب المباشر والانتخاب غير المباشر .

والانتخاب المباشر هو أن تتم عملية الانتخاب في مرحلة واحدة فيتم انتخاب رئيس الدولة أو أعضاء البرلمان من الشعب مباشرة .

أما الانتخاب غير المباشر فتتم عملية الانتخاب على مرحلتين أو أكثر فيكون دور الناخبين (الشعب) هو انتخاب مندوبين عنهم وهم الذين يقومون باختيار أعضاء البرلمان .

ويستخدم الانتخاب غير المباشر لاختيار رئيس الدولة أو أعضاء السلطة التنفيذية كما هو الحال في النظام الرئاسي في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتم الانتخاب على درجتين وكما كان الحال في فرنسا في فترة حكم ديجول[1] .

* * *

(1)النظم السياسية الدكتور عبد الغني بسيوني ص234 إلى ص236 وانظر كتاب (شريعة الله المفترى عليها) للمؤلف .

سيادة الأمة في النظام الإسلامي

ينفرد النظام الإسلامي عن النظم البشرية والنظم الدينية في أوروبا بإرساء نظام الحكم أو الخلافة على قواعد أو نظم تخلص في الآتي :

(1) رئاسة الدولة وهي الخلافة تستمد من سلطة الأمة عن طريق الاختيار حيث قال النبي ﷺ للأنصار [أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم] ، فالاختيار يكون بمعرفة أهل الحل والعقد ثم بمعرفة العامة أو الشعب ، فهؤلاء يختارونه ويحاسبونه ويعزلونه لقول النبي [إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان][1] .

(2) يستمد ذلك عن طريق عهد وعقد بين الخليفة وبين الأمة هذا العقد هو البيعة ، وهي بيعة خاصة بين الخليفة وبين أهل الحل والعقد ثم بيعة عامة بينه وبين الناس جميعا والبيعة تؤكد أنه معين من الأمة وينوب عنها .

وأهل الحل والعقد يمثلون العلماء وحكام الأقاليم ورؤساء المجموعات المهنية أو القبلية وقادة الجنود والكتائب . والحاكم لا يختارهم فالنبي ﷺ طلب من الناس أن يختاروا له نقباء عنهم ثم جعل المختارين من الناس هم أعضاء الشورى .

(3) يرتكز هذا النظام على الشورى وهي تختلف عن الديمقراطية في أمور أهمها :

(أ) **النظام الديقراطي** يخول نواب الأمة سلطة التشريع من دون الله وهذا يراه الإسلام شركا مع الله لأن أهل الشورى كسائر الناس ليس لهم ولا للحكام مزايا

---

(1)فتح الباري لابن حجر . الفتن جـ16 ص113 وسيرة ابن هشام جـ2 ص42 .

أو سلطة مطلقة بل مقيدة بالشريعة الإسلامية فلا يجوز لهم التشريع إلا من خلال القرآن والسنة ولا يجوز الاستبداد بالسلطة وإهدار الحقوق والحريات لمجرد أن أغلبية المجلس قد وافقت على ذلك فهذه الحقوق ثابتة في القرآن والسنة فلا يملك أحد أن ينتقص منها[1] .

(ب) إن الأمة هي التي تختار أهل الحل والعقد وهي التي تختار الحاكم ولها عزل هؤلاء ومحاسبتهم .

ففي بيعة العقبة الثانية حضر سبعون رجلا من المدينة فقال لهم النبي ﷺ [اخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم][2] .

والنقيب هو المعني بشئون القوم (المعجم الوسيط 943) .

وفي بداية حكم النبي ﷺ بالمدينة المنورة تم اختيار هيئة من نقباء المهاجرين والأنصار أي النقباء الذين اختارهم المسلمون فكان هذا المجلس يتكون من أربعة عشر شخصا ، نصفهم من نقباء المهاجرين ونصفهم من نقباء الأنصار كما ذكر عبادة ابن الصامت[3] ، هؤلاء كانوا يختصون بإصدار القرارات ، أما الشورى فلم تكن قاصرة على هؤلاء بل كانت تشمل النساء أيضا حيث استشار النبي زوجته أم سلمة في أمر الذين عارضوا صلح الحديبية[4] .

---

(1) أصول الفكر السياسي الدكتور ثروت بدوي ص128 وإتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخضري ص23 والنظم السياسية للدكتور عبد الغني بسيوني ص58 وانظر تفصيل ذلك في كتابي [الإسلام لا العلمانية] و [الشريعة المفترى عليها] للمؤلف .

(2) فتح الباري لابن حجر جـ17 ص20 ومسند أحمد جـ5 ص314ومسند أحمد ج3 ص332 والسنن الكبرى للبيهقي ج9 ص9 والمستدرك للحاكم ج2 ص624 والسيرة لابن كثير ج2 ص198 وابن هشام ج2 ص64 .

(3) مسند أحمد ج5 ص314 وانظر قواعد نظام الحكم للخالدي ص184 .

(4) تاريخ الطبري ج2 ص637 ومغازي الواقدي ج2 ص612 .

(جـ) إن الأمة في النظام الديمقراطي هي شعب من إقليم تجمعهم روابط الأرض واللغة ولكن الأمة في الإسلام تشمل الشعوب الإسلامية وليست قاصرة على المصري أو السوري أو الكويتي أو الفلسطيني فالإسلام نظام عالمي . وهذا لا يحجر على هذه الشعوب في وضع أنظمة لها ولكن تخضع هذه الأنظمة لهذا الأصل ولا تتعارض معه .

(د) أهداف الدولة في النظام الديمقراطي أهداف مادية ودنيوية حيث حصرت سعادة الناس في أمور الدنيا ومنها ما يكون مصدر شقائهم كإباحتهم الخمر والفواحش وغيرها من المحرمات في دين الله .

أما في الإسلام فالدولة تحقق المصالح الدنيوية والأخروية فالإسلام دين ودولة وبالتالي فالقواعد الأخلاقية قواعد ملزمة في النظام الإسلامي وليست كذلك في النظام الديمقراطي ، قال الله تعالى ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ...** ﴾ (الحج /41) .

مساواة الحاكم في الإسلام :

إن الحاكم في النظام البشري الغربي والشرقي لا يتساوى مع الشعب مساواة مطلقة ، فلا يحاكم في بعضها أو أكثرها عن جرائمه وعند محاكمته بسبب الخيانة العظمى يشكل له محكمة خاصة ، وذاته مصونة لا تمس .

أما في النظام الإسلامي فالحاكم يتساوى مساواة مطلقة مع الشعب فلم يكن للنبي ﷺ مزايا عن باقي المسلمين بل حرم على أهله وزوجاته الزينة المباحة لباقي النساء من أفراد الشعب ولما تظلمن نزل القرآن الكريم يخيرهن بين الطلاق أو الرضا بهذه المثل العليا لأنهن قدوة للأمة قال الله تعالى : ﴿ **يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا** ﴾ (الأحزاب/28) ولما تولى أبو بكر أمر المسلمين حاول أن يكتسب من عمله فرفض الصحابة ومنعوه وقدروا له من بيت مال المسلمين ما يكفيه لقوته وعياله ليتفرغ لمصالح المسلمين وعندما شعر بالوفاة أوصى أن يحصى ما تسلمه من بيت مال المسلمين ثم يؤخذ من قيمة أرضه ويرد إلى بيت المال .

وأما تقشف عمر بن الخطاب خلال فترة رئاسته للمسلمين فقد شهد به العدو قبل الصديق فقد حرم على نفسه وعياله الطيبات من الدنيا خلال فترة المجاعة التي أصابت المسلمين ليتساوى معهم في البلاء .

وأما عثمان بن عفان فقد افترى عليه المرجفون وجعلوا حسناته سيئات من ذلك أن قسم أرضه وأمواله على أقاربه فزعموا أنه منحهم من أموال المسلمين ، و لم يكن بالمدينة ماء غير بئر رومة التي يباع ماؤها للمسلمين بأغلى الأسعار فاشتراها وجعلها وقفا للجميع[1] وجهز جيش العسرة من ماله وغير ذلك كثير ولكن ما زالت المفتريات ضده .

وأمام مفتريات الثوار ضده عند تولي على بن أبي طالب الخلافة أعلن أن كل أرض أو مال أعطاها عثمان من بيت المال يرد إلى بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء .

البيعة والخلافة :

يجمع أهل السنة وأكثر الفرق الإسلامية الأخرى ، على أن الخلافة أو الإمامة الكبرى لا تنعقد ولا تثبت إلا بالبيعة لأنها الطريق لاختيار الخليفة عن رضا وطواعية .

فالبيعة عقد بين الخليفة أو الإمام وبين الأمة التي بايعته والهدف من البيعة أن يستمد الخليفة سلطته على الناس من هذا العقد وليس عن طريق القوة العسكرية أو ادعاء الألوهية أو ادعاء الاختيار الإلهي للحاكم .

فالبيعة كسائر العقود الرضائية لها صفة الإلزام على الناس في كل أمر لا يحل حراما أو يحرم حلالا .

قال الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ (المائدة/1) .

وقال الله تعالى ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**

---

(1) التاج الجامع للأصول ج3 ص324 والفتنة . سيف عمر الضبى ص57 والغزو الفكري للتاريخ والسيرة .

وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (النحل/91) .

وعن عبادة بن الصامت قال « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا ، أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان[1] .

لهذا عرَّف ابن خلدون البيعة بأنها العهد على الطاعة ، وهي تدل على أن الخليفة نائب عن الأمة[2] .

وبيعة الطاعة هي البيعة العامة من الشعب وهي عقد بين الشعب والحاكم وتجعل الطاعة للحاكم ما أطاع الله ورسوله .

وتسبق بيعة الطاعة بيعة أخرى من أهل الشورى وهم الذين يختارون الحاكم ويرشحونه للناس ، وتسمى بيعة الانعقاد[3] .

والبيعة من الرجال والنساء حيث حضرن بيعة العقبة الثانية مع النبي ، كما بايعهن[4] .

فدور أهل الحل والعقد أنهم يمثلون الأمة في اختيار الحاكم ومحاسبته وعزله ولكن هذا الاختيار ليس نهائيا إذ يجب عليهم تقديم الحاكم المرشح منهم إلى الأمة مع ذكر أسباب اختياره فلا يصبح إماما وخليفة إلا بمبايعة الشعب له عن رضا واختيار[5] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية لو أن عمر بن الخطاب وطائفة معه قد بايعوا أبا بكر بالخلافة وامتنع سائر الصحابة عن مبايعته لم يصبح إماما إنما أصبح إماما بمبايعة جمهور الصحابة[6] .

---

(1) فتح الباري ، الفتن ج16 ص113 .

(2) مقدمة ابن خلدون ج2 ص549 .

(4,3) فتح الباري ج10 ص262 ، وابن كثير ج1 ص467 وسنن أبي داوود كتاب الخراج والإمارة ، باب 33 الحديث 3052 وصحيح مسلم ج3 ض1483 ومجمع الزوائد ج6 ص39 .

(5) السياسية الشرعية لابن تيمية ص82 .

(6) منهاج السنة لابن تيمية ج1 ص142 .

وتختلف البيعة للرسول ﷺ عن البيعة للخلفاء من بعده فالبيعة له بيعة طاعة وليست بيعة انعقاد واختيار لأن اختياره تم من الله تعالى وكذا التشريع الصادر منه كان بوحي من الله وأما كل ما خرج عن دائرة الوحي فهو خاضع للمشورة بين الصحابة وينزل فيه النبي ﷺ على رأي الخبراء والأغلبية كما حدث في غزوة بدر وأحد وفي غزوة الأحزاب[1] .

أما البيعة للخلفاء أو لغير النبي ﷺ فهي عقد والتزام بين الأمة والخليفة وبهذه البيعة يصبح الخليفة نائبا عن الأمة .

يقول الإمام الباقلاني « وهو في جميع ما يتولاه وكيل للأمة ونائب عنها وهي من ورائه تسدده وتقومه .... وتخلعه وتستبدل به غيره متى اقترف ما يوجب خلعه »[2] .

وقد أوضح الإمام الكاساني الفرق بين وكالة الخليفة عن الأمة وبين الوكيل عن الغير فذكر أن الموكل إذا مات أو خلع ينعزل الوكيل ولكن الخليفة إذا مات أو خلع لا تنعزل قضاته وولاته ، لأن الوكيل يعمل باسم الموكل وفي خالص حقه أما القاضي فلا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم وإنما الخليفة بمنزل الرسول عن المسلمين[3] .

والخلافة تمتاز عن النظم البشرية بأن رئيس الدولة كآحاد الناس فليست ذاته مصونة لا تمس كما هو سائد في كثير من النظم المعاصرة .

كما أنها ليست نظاما دينيا ، يعين فيه الخليفة من الله أو من رجال الدين بل هي عقد بين الخليفة والأمة فإذا اختارت عبدا كانت له الطاعة حيث يقول النبي ﷺ [اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله] البخاري 108/13 .

---

(1) السيرة الحلبية ج2 ص103 وسيرة ابن هشام ج2 ص233 وتاريخ الطبري ج2 ص631 .
(2) عن السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف ص23-48 .
(3) بدائع الصنائع للكاساني ج10 ص441 .

أما قول النبي ﷺ [إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين] فتح الباري ج16 ص233 .

فإن هذا الحديث ورد بصيغة الإخبار وليس بصيغة الأمر كما أنه أخرج قريشًا من الإمامة بقوله (ما أقاموا الدين) فالقرشية من أسباب الفضل كالتقوى وليست شرط انعقاد ولهذا قال ابن خلدون إنما هو يدفع التنازع فالعلة هي العصبية الغالبة في عصرها[1] .

تكوين مجلس الشورى :

تعتبر الشورى ركنا أساسيا من أركان الدولة الإسلامية بل وكل مجتمع أو جماعة قال الله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ (الشورى/38) . أما المجلس الذي يختص بالشورى أو تمارس الشورى من خلاله فقد يسمى أهل الحل والعقد أو مجلس الشورى[2] أو غير ذلك ، ويحدد الإمام حسن البنا هؤلاء في الآتي[3] :

(1) الفقهاء المجتهدون الذين يعتمد على أقوالهم في الفتيا واستنباط الأحكام .

(2) أهل الخبرة في الشئون العامة .

(3) من لهم نوع من القيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات .

ويجب أن يكون قرار مجلس الشورى بأغلبية الأصوات وليس للأقلية أن تشكك في رأي الأغلبية الذي يوضع موضع التنفيذ[4] .

---

(1) مقدمة ابن خلدون ج2 ص526 .

(2) مجموعة رسائل الإمام الشهيد رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ص222 .

(3) الإسلام وأوضاعنا السياسية للشيخ عبد القادر عودة ص18 ونحو مجتمع إسلامي للأستاذ سيد قطب ص141 ط 1969 عمان .

(4) الإسلام وأوضاعنا السياسية ص175 . عبد القادر عودة .

وهذا المجلس له عزل رئيس الدولة لقول الله تعالى ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ (البقرة/124) وأيضا لما رواه عوف بن مالك أن النبي ﷺ قال (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، قلنا : يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : (لا ما أقاموا الصلاة) .

كما أن النبي ﷺ قد نهى أن ينازعوا الأمر أهله (إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) .

المرجع قواعد نظام الحكم في الإسلام للدكتور محمود الخالدي ص 206 ، 209 ونظام الحكم في الإسلام للدكتور محمد العربي ص100 ، ص101 .

* * *

الجزية والنظام الإمبراطوري

إن الجزية التي أخذها المسلمون من القادرين الذين لم يدخلوا في الإسلام ، لم تكن نظاما حديثا جاء به الإسلام ، بل كانت من النظم المعمول بها في العالم كله آنذاك ، ولكن جاء الإسلام وأجرى عليها قواعد العدل كما هو مفصل في مواضعه[1] .

وقد كانت الجزية من سمات النظم الإمبراطورية ومن الخطأ الفادح أن يوصف الحكم الإسلامي بالإمبراطورية الإسلامية فهذه النظم كانت نظما استبدادية تبيح سلب ونهب البلاد المفتوحة بل كان هذا الاستبداد يلحق برعايا هذه الإمبراطوريات .

لقد باركت الكنيسة قيام إمبراطورية شرلمان في أواخر القرن السابع الميلادي وسميت هذه بالإمبراطورية الرومانية المقدسة .

لهذا ظلت الروح الإمبراطورية هي المحركة لأوروبا بعد سقوط الأنظمة الإمبراطورية وزوال استبدادها وقيام النظم النيابية الحديثة .

فالنظام الإمبراطوري في العصور القديمة كان من سماته أن يعيش الشعب القوي على حساب الشعوب المغلوبة والمهزومة ، وأن تستولي الدول الغالبة على موارد الدولة المغلوبة . وحماية لهذا النظام أقيمت معسكرات في الدول المغلوبة ، وكانت تستخدم السلاح لإرهابها وبقاء تبعيتها للدولة الغالبة .

---

(1) سالم البهنساوي . شبهات حول الفكر الإسلامي ص119 — 152 . والغزو الفكري للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار ص 379 - 386 .

ولقد انتقلت هذه الخصائص إلى النظم الأوروبية في ظل الحكم النيابي ، فظهرت الدول الاستعمارية وباشرت الأعمال التي كانت من سمات الإمبراطوريات القديمة فاستغلت الشعوب المهزومة أبشع استغلال . وظهر النظام الاستعماري الذي ذاقت منه البشرية سوء العذاب .

ولقد حاول بعض كتاب التاريخ الغربيين أن يربطوا بين هذه النظم والإسلام بتعميم هذه المفاهيم وتطبيقها على قيام الدول الإسلامية التي ألغت هذه النظم الإمبراطورية الفاسدة . وتمثل ذلك في إلغاء الإمبراطورية الفارسية وتجزئة الإمبراطورية الرومانية .

فليس في الدولة الإسلامية مفهوم الإمبراطورية . ولم يكن العرب جنسا غالبا سيطر على أجناس مغلوبة وامتص دمها واستولى على مواردها . ولم يضع العرب حاميات عربية في أطراف الدولة أو شيدوا الحصون أو فرضوا الضرائب بالسيف ، بل اختلطوا بالشعوب ، وتكوَّن منهم جميعاً مجتمع إسلامي ألغى كل الفروق الجنسية والجغرافية والاجتماعية التي فرقت بين الناس في الماضي . حتى إنه منذ منتصف القرن الأول للهجرة وهذه الشعوب التي فتح المسلمون بلادهم ، خرجت هي بعد أن اعتنقت الإسلام حبًا وطواعية تفتح ما حولها من البلدان باسم الدولة الإسلامية ، لا باسم عصبية أو جنسية .

ففتح الفرس خراسان وبلاد ما وراء النهر وشمال الهند ، وفتح البربر الأندلس واندفعوا مع العرب من تونس إلى صقلية وجنوب إيطاليا . وانتقلت جاليات فارسية وهندية وعربية إلى أطراف آسيا ووسط إفريقيا ، كما ساهم المصريون في نشر الإسلام بالسودان .

فالعرب اختارهم الله لحمل رسالة الإسلام ليكونوا شهداء على الناس ، لا ليمارسوا أنواع الظلم أو السيادة أو العنصرية . قال الله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (البقرة/143) .

فالأمة الإسلامية هي دولة الرسالة ، ورسالتها ربانية إنسانية ، جاءت خصائصها وأوصافها في الكتب السماوية السابقة . قال الله تعالى ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي**

الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ (الأعراف/157) .

فالمسلمون جميعا من العرب وغيرهم أمة واحدة لا فرق بين العربي وغير العربي ، ورسالتهم أن يرفعوا عن الناس المظالم والأغلال التي كبلتها بها الأنظمة الجاهلية الطاغية .

لهذا عندما دخل وفد المسلمين إلى كسرى من قبل سعد بن أبي وقاص كان جواب النعمان المزني رئيس الوفد : [إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة . ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف . فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم ، فأمر من الشر هو أهون من آخر ، شر منه الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم] . والجزاء كما جاء في القاموس المحيط هو الجزية وهو خراج الأرض وما يؤخذ من الذمي . وجاء في لسان العرب هو المكافأة على شيء وقد فرضها الإسلام على أهل البلاد المفتوحة مقابل حراسة أرضهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم ، على أساس أنهم معفون من الخدمة العسكرية في جيش المسلمين[1] . وفي هذا قال عمر بن الخطاب : « أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرا أن يوفي لهم عهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفوا فوق طاقتهم » .

وعلى هذا فهم قول الله تعالى : **﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾** (التوبة/29) فاليد هنا بمعنى القدرة ، فلا تفرض الجزية على غير القادر ، ومعنى وهم

---

(1) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ محمد الصواف ص17 ط مصر .

صاغرون أي : وهم خاضعون مطيعون ، فمن معاني الصغار في اللغة الخضوع والصغار أن يجري عليهم أحكام الإسلام فإذا قبلوا حكمه فقد أصغروا بما يجري عليهم .

ويجب أن يكون دفعهم للجزية مرتبطا بخضوعهم لقوانين الدولة أي التزامهم بالولاء للدولة كما تلتزم الدولة الإسلامية بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

وقد انفرد الإسلام عن الأنظمة السابقة بأمور في شأن الجزية هي[1] :

أولا : منع فرضها على غير القادرين .

ثانيا : جعل قيمتها ضئيلة لا تكاد تذكر بجانب أنواع الزكاة التي يدفعها المسلم . وقد قدر الإمام مالك قيمة الجزية بدينار واحد على الفرد .

ثالثا : أعفى أهلها من الخدمة العسكرية .

رابعا : فرض الكفالة الاجتماعية لهؤلاء سواء من دفع الجزية أو أعفي منها .

فقد جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طُرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

الجزية والعقد الرضائي :

الجزية ما هي إلا عقد يتم بالتراضي يعفى بموجبه غير المسلم من الجندية ويلتزم بما يستطيع من المال وحسبنا أن النبي ﷺ عندما ولى عبد الله بن الأرقم على جزية أهل الذمة قال له « ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة »[2] .

---

(1) انظر الطبري ج2 ص553 والخراج لأبي يوسف ص146 وقادة فتح العراق والجزيرة للواء محمود شيت خطاب ص529 ط دار الفكر 1973 وشبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر للمؤلف ص129 - 143 .
(2) الخراج لأبي يوسف ص125 والأم للشافعي ج4 ص207 .

لقد ذكر هذا السير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام ، ونقل عن معاهدة خالد بن الوليد مع أهل الحيرة : أن الجزية مقابل حمايتهم من البغي . ومن نصوصها : فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا . كما ذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قد رد الجزية إلى أهل الشام عندما علم أن الروم قد جمعوا له الجند ، كما ذكر أنه قد أعفيت إحدى قبائل فارس من الجزية عام اثنين وعشرين من الهجرة على أن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية على الحدود .

كما روى الطبري أن عقبة بن فرقد ، عامل عمر رضي الله عنه كتب لأهل أذربيجان كتابا جاء به : إن لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ليس على صبي ولا امرأة ولا من ليس في يده من الدنيا شيء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، ومن حشر منهم أي جند مع المسلمين ، في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه .

والإمام الشافعي يذكر أنه عندما أنف العرب من غير المسلمين من اسم الجزية وطلبوا أن يمضوها على معنى الصدقة صالحهم عمر بن الخطاب على ذلك .

ويذكر أنه إن كان من أهل الكتاب من هو غائب عند التصالح على الجزية فلا يلزمه ما تراضى عليه قومه حتى يقر ذلك ؛ وأيضا لا يلتزم الطفل بما التزم به وليه حتى يبلغ السن ورضي بما أقر به وليه[1] .

* * *

(1) الأم للإمام الشافعي ج4 ص207 -211 وشبهات حول الفكر الإسلامي للمؤلف ص129 - 138 .

بين الفتوحات الإسلامية وغيرها

إن فتوحات العرب المسلمين لبلاد الروم وبلاد الفرس كانت إنقاذا لأعراض الشعوب ودمائها وأموالها حسبما سجله المؤرخون من غير المسلمين ، ولم تستخدم القوة إلا لتحرير الشعوب من الطغاة ليختار الناس ما يشاءون من العقائد ومن الحكام . يقول ـــ وليم ديورانت ـــ في كتابه قصة الحضارة (ولقد كان من المألوف أن يكون طعام الوحوش لحم الآدميين في الدولة الرومانية إن لم يكن هذا اللحم سبيلا للتسلية أو سببا للتلهي)[1] .

إن الزائر لروما يجد قريبا من الفاتيكان متحفا عبارة عن المكان الذي أعده قياصرة روما لصراع الآدميين مع الأسود أو مع بعضهم في السرداب الأسفل ويوجد فوق سطح الأرض من هذا المكان مقاعد للقادة والرؤساء للتسلية على هذه المصارعة غير المتكافئة ، في هذا يقول ديورانت (حدث أن أقام « أغسطس » من ذلك النوع ثماني مباريات اشترك فيها عشرة آلاف مقاتل ، ومن يسقط في المعركة ينخس بأسنان العصي الحادة ليعرفوا هل مات حقا أو أنه يتصنع الموت فإذا وجد أنه يتصنع الموت كان على المحكم أن يقتله بضربات المطارق على رأسه)[2] .

وفي فارس كانت المظالم على نفس هذا المنوال ، وكان على الفلاح أن يدفع ثلث ناتج الأرض لكسرى ، وكان على الصناع مثل ذلك حتى هرب هؤلاء إلى الأديرة .

---

(1) قصة الحضارة 347/10 .

(2) نقلا عن الإسلام في العقل العالمي (للدكتور/ توفيق الواعي) ص 192 .

وعندما غضب كسرى أبرويز على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، طرحه للفيلة كما أمر بقتل المقيدين في السجون وكانوا ستة وثلاثين ألفا من أهل الفرس .

وفي عام 341 م أمر شابور بذبح جميع المسيحيين فذبح ستة عشر ألف رجل منهم ، ولما دخل حلب ودمشق غازيا قتلت جيوشه تسعين ألفا من المسيحيين وأحرق أكثر كنائسهم ، ولقد تزوج كسرى أبرويز ثلاثة آلاف زوجة عدا العشيقات والإماء اللائي أحصاهن ابن خلدون باثنى عشر ألفا[1] .

تقول المستشرقة الألمانية زغريد هونكة « إن الأديرة المسيحية في سوريا كادت أن تمحى في عصر الحكم المسيحي بينما وصلت ذروتها في الدولة الإسلامية »[2] .

يقول جوستاف لوبون « لقد أتم العرب فتح أسبانيا بسرعة مدهشة فقد سارعت المدن الكبيرة بفتح أبوابها للغزاة عن ضجر بالظلم الذي كانوا فيه وحبا لعدل العرب والعيش في جوارهم ، ولقد أحسن العرب إلى سكان أسبانيا فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم و لم يفرضوا إلا جزية على كل شريف دينارا وعن المملوك نصف دينار واستعملوا ذلك في خدمة أهل البلاد »[3] .

ويكشف لوبون عن أن القوة إنما استخدمها العرب المسلمون لتخليص الشعوب من المظالم فينقل عن البطريرك ميخائيل الأكبر ، بطريرك أنطاقيا قولة « إن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، أرسل الله أبناء إسماعيل من الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم »[4] .

* * *

---

(1) المرجع السابق ص 101 - 103 .

(2) المرجع السابق ص 105 - 107 .

(4,3) حضارة العرب جوستاف لوبون ص344 وانظر الإسلام في العقل العالمي للدكتور توفيق الواعي ص89 .

الفتوحات ورسالة السلام

ما زالت الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين عن الفتوحات الإسلامية مثارا للجدل ، مع أنه لا يخفى على الباحثين أنه قد اختار الله لدينه اسما واحدا هو الإسلام . فقال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (آل عمران/19) واختار لمن يحمل هذه الأمانة اسما واحدا لا يتغير على مر الأزمان وهو المسلم . قال تعالى ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ (الحج/78) .

والإسلام ليس رسالة محمد ﷺ فقط ، بل هو رسالة الله إلى الناس كافة على يد رسله أجمعين . قال رب العالمين ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم * صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** ﴾ (البقرة /138,137,136) .

ولم يكن الاختيار من الله عبثا ولا سدى ، فهو اختيار ليتطابق الاسم مع مضمون الرسالة العالمية التي جاء بها الإسلام والتي ختمت بالقرآن الكريم تلك الرسالةالتي قال الله عنها ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ (المائدة/48) .

هذه الرسالة جاءت لتدفع عن الناس العنف والظلم ، ولتشيع بينهم المودة والأخوة

والسلام . قال الله تعالى عن الرسالة واتباعها ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ (الأعراف /157) .

إن هذا هو مضمون السلام في الإسلا م ، وهو ما فهمه الكبير والصغير من حماة هذه الرسالة ودعاتها ، وهذا ما يبينه جندي عادي من جنود الإسلام ليس بفقيه ولا فيلسوف ولا زعيم ، يبين رسالة السلام في الإسلام التي من أجلها حارب المسلمون طغيان دولتي الفرس والروم ، هذا الجندي هو ربعي بن عامر ، نراه يجيب على استفسار رستم قائد الفرس بقوله « إن الله ابتعثنا بالحق لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

إنها أهداف لرسالة تشربتها روح ربعي من مدرسة النبوة التي رأي فيها الجندي قائده يوجه رسائله بالسلام إلى كسرى وقيصر وملوك الأرض شرقا وغربا حيث أرسل من قبل رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم قائلا [السلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين] ويختم الحبيب المصطفى الرسالة بهذه الآية ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (آل عمران /64) .

والسلام من أسماء الله الحسنى ، يقول عز وجل ﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام** ﴾ (الحشر/23) وهو سبحانه يبشر المؤمنين بجنة السلام ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ (يونس /25) وتحيته فيها لهم هي السلام ﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾ يس /58)ويقول أيضا ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام** ﴾ (الأحزاب/44) وتحية الملائكة لأهل الجنة السلام ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ (الرعد/24,23) وتحية أهل الجنة بعضهم لبعض السلام ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾ (الواقعة /26,25) .

والسلام هو تحية المسلمين وهو هدف الإسلام في الأرض . قال عليه الصلاة والسلام [إن الله جعل السلام تحية لأمتنا ، وأمانا لأهل ذمتنا] .

بهذه التحية يعصم دم المحارب ويمنح الأمان . لهذا قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا** ﴾ (النساء/94) .

من أجل ذلك خاطب الله أهل الكتاب وهم الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل فطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام ليحملوا رسالة السلام التي جاء بها . قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ (البقرة/208) .

فإن أبوا أن يدخلوا في هذا السلم فلا تحمل للمسالمين منهم إلا الحسنى ، قال الله تعالى ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ (العنكبوت/46) .

فرسالة السلام في الإسلام توجب على المسلم أن يعدل مع غير المسلمين ويبر بهم طالما أنهم لا يقاتلون المسلمين ولا يسعون لإخراجهم من وطنهم ، قال تعالى ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ (الممتحنة /8) .

إن رسالة السلام في الإسلام توجب على المسلم أن يحارب الفساد والاستغلال . قال تعالى ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ (القصص /83) .

بل إنه إن امتنع قوم عن فعل الخيرات فلا يعالج ذلك بالعدوان لأن ذلك يتعارض مع رسالة السلام في الإسلام . قال تعالى ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ (المائدة/2) .

ولقد توج النبي ﷺ رسالة السلام في الإسلام بإعلانه حقوق الإنسان في حجة الوداع . وذلك بقوله « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا » .

وهذا السلام يوجب علينا قتال المعتدين حتى يذعنوا إلى حكم هذا الدين لأنه السلام . قال تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ (البقرة/193) والصلح في السلام الإسلامي لا يعني التنازل عن الحقوق ، بل يوجب قتال البغاة . قال تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ (الحجرات/9) .

إن السلام الإنساني هو رسالة الإسلام . لأنه دين الإنسانية والعدل والرحمة . فالإسلام لا يدعو إلى شيء من الإمبراطورية ولا إلى سيادة جنس ولا إلى مغنم دنيوي ، ولا يقاتلون تحت راية عمية . قومية أو عصبية . وإنما يهدف الإسلام إلى سلام عالمي بكل حلقات هذا السلام : سلام النفس وسلام الأسرة ، وسلام الدولة ، وسلام المجتمع ، ثم سلام العالم .

والدعاة إلى الإسلام سواء كانت الدعوة بصورة الدولة أو على صورة جماعة أو أفراد يسعون إلى تحقيق ذلك السلام ، ولا يتعارض ذلك مع مبدأ الجهاد والدفاع . لأن الجهاد شرع لتحطيم كل الحواجز التي تحول بين الإنسان وبين هذه الدعوة إلى الحياة الآمنة .

والمسلمون حين خرجوا من الجزيرة العربية إنما خرجوا يدافعون عن حقوق الإنسان وسلامة تلك الحقوق التي اغتصبتها فئات قليلة من المستبدين وكونوا طبقة امتصت دماء الناس وحرمتهم حق الحياة في بقاع مختلفة من الأرض . فكانت رسالة الجهاد الإسلامي أن يمنع هذه الطبقات من الاستغلال والظلم والاستبداد ليكفل للإنسان وللجماهير الغفيرة البائسة التي تعيش في حدود هذه الطبقات حياة آمنة حرة فيختارون المنهاج والتشريع الذي يحقق لهم سعادتهم .

حتى إذا نجح المسلمون عسكريا في كسر هذه الحواجز . تركوا الناس أحرارا في تقبل الدين الجديد دون فرض أو قهر أو إكراه . قال تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾(البقرة/256) .

والجدير بالذكر هنا أن الإسلام عندما انتشرت دولته خارج الجزيرة العربية ، لم يجعل من هذا وسيلة لجباية الأموال وإثراء عاصمة الدولة على حساب أهل هذه البلدان .

فقد كتب الحاكم على بلاد العراق إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن الأموال قد فاضت في ولايته فأمره الخليفة أن يعود بها على أهل البلاد وذريتهم ، فكتب إليه الوالي مرة أخرى أن الأموال مازالت تفيض عن الحاجات ، فأمره الخليفة أن يخصص الفائض لتزويج من لم يتزوج لأي سبب ، فكتب إليه الحاكم مرة ثالثة أنه فعل ومازالت الأموال فائضة ، فكتب إليه أن يعطي منها غير المسلمين لمساعدتهم في العمارة والبنيان .

كما كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أمراء البلاد الإسلامية : « أن سددوا الديون من بيت المال » ، فكتب إليه الولاة إن كل رجل لديه المسكن والخادم والفرس لتنقلاته والأثاث في بيته ، فكتب إليهم خليفة المسلمين أن هذه ضرورات للإنسان وبالتالي فهؤلاء تسدد ديونهم من بيت المال .

* * *

الفصل الثالث

الخليفة الأول

أبو بكر الصديق

- مكانته وإسلامه
- مواقف لأبي بكر
- مؤتمر السقيفة واختيار الخليفة
- أبو بكر وجيش أسامة
- قتال مانعي الزكاة
- لمحة حول الردة وحروبها
- توزيع الجيوش في حروب الردة
- فتح بلاد الفرس ـــ الأسباب والنتائج
- الفتوحات في بلاد الروم ـــ الأسباب والنتائج

الخليفة الأول ـــ أبو بكر الصديق

مكانتـــه :

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم ويلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد السادس وهو مرة يلقب أبو عثمان ابن أبي قحافة وأما أمه فهي أم الخير سلمى بنت صخر وهي من بني تيم أيضا ابنة عم أبيه .

يعد من أشراف قريش ورؤسائهم ووجهائهم وأهل شورتهم ولد في السنة الحادية والخمسين قبل الهجرة أي أنه أصغر من الرسول ﷺ بسنتين وبضعة أشهر وقد كان مولده في السنة الثالثة من عام الفيل .

يذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن أبا بكر كان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها ، وكان ذا خلق معروف وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لعدة أمور منها علمه وتجارته وحسن مجلسه وكان يسمى (عتيق) وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن هذه التسمية بشارة من رسول الله ﷺ له بأنه عتيق الله من النار وقد رجح المسعودي هذا لسبب ونقل سببا آخر بأنه سمي بذلك لعتق أمهاته[1] وضعف ذلك .

ولكن ابن حجر في الإصابة يقول : كان أبو بكر يسمى في الجاهلية عبد الكعبة وقيل عبد اللات أو عبد العزى فسماه الرسول ﷺ عبد الله حيث كان صديقا له ،

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ص153 ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص154 .

ولقب بالعتيق لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت « اللّٰه إن هذا عتيقك من الموت »[1] ومن المشهور عنه أنه لم يشرب الخمر في الجاهلية وقد سئل هل شربت الخمر في الجاهلية ؟ قال أعوذ باللّٰه . فقيل له ولم ؟ قال : كنت أصون مروءتي وأحفظ عرضي ، فإن شرب الخمر مضياعا في العرض والمروءة .

وقد أخرج أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت عن أبيها لقد حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية[2] .

إســــلامه :

كان أبو بكر في رحلة إلى الشام للتجارة وعاد إلى القافلة العائدة إلى مكة وكان الله قد اختار محمدا ﷺ للرسالة وأبو بكر يغالب دموعه . ولدى مدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل (عمرو بن هشام) وتعانقوا جميعا . فوجه أبو جهل الحديث إلى أبي بكر أو حدثوك عن صاحبك يا عتيق ؟ وكان أبو بكر يسمى عتيقا . فأجابه أبو بكر . تعني محمدا الأمين . نعم ؟ أعني يتيم بني هاشم . ودار حوار سريع بين الإثنين قال أبو بكر أسمعت أنت ما يقول قال نعم سمعته . وسمعت الناس جميعا ـــ فماذا قال ....؟ يقول إن في السماء إله، أرسله إلينا لنعبد الله ونذر ما كان يعبد آباؤنا ... ؟ قال أبو بكر أو قال إن الله أوحى إليه ؟

قال إن جبريل أتاه في غار حراء ، فتألق وجه أبي بكر كالشمس وقال في هدوء ...؟ إن كان قال ، فقد صدق .... ودارت الأرض بأبي جهل ، فتغيرت خطوته ، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه الهاذلتين وتناقل الناس كلمة أبي بكر من واحد إلى آخر حتى صار لهم دوي كدوي النحل[3] وهكذا أصدق أبو بكر النبي ﷺ قبل أن يلقاه وقبل أن يسمع منه حيث قال للسائلين والمتشككين إن كان قال ذلك فقد صدق .

(2,1) السيرة البنوية لابن هشام ص 153 ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص154 .

(3) مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي ج2 ص305 والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج4 ص102 .

ما لبث أبو بكر أن ذهب إلى دار الرسول ﷺ حيث كان مع زوجه خديجة والتي كانت أول العالمين إسلاما معه وإيمانا به طرق أبو بكر الباب .

فوقف الرسول ﷺ مناديا خديجة : أنه « عتيق » يا خديجة . وسارع الرسول ﷺ إلى لقاء صاحبه وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصفائه .

قال أبو بكر : أصحيح ما أنبأت به القوم يا أخا العرب ؟ .

أجاب الرسول ﷺ سائلا وماذا أنبئوك ؟

قالوا إن الله أرسلك إلينا لنعبده ، ولا نشرك به شيئا . قال النبي ﷺ وماذا كان جوابك لهم ياعتيق ...؟ قلت لهم : إن كان قال فقد صدق ـــ وفاضت عينا الرسول من الدمع غبطة وشكرا وعانق صاحبه وقبل جبينه . ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء قائلا له ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (العلق/ 1-5) وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى ، تحية لراية الله التي رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السارية ، متمثلة في هذه الآيات المنزلة ثم رفع رأسه ، وشد بكلتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال أشهد أنك صادق أمين . أشهد أن لا إله إلا الله ... وأشهد أنك رسول الله[1] .

أخلاقه وصفاته :

كان أكثر الناس تواضعا وكان أزهدهم في لباسه ومطعمه ومشربه[2] ، فكان يلبس في خلافته الشملة والعباءة ، ولم يعبأ بما كان عليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن الذين كانوا يلبسون الحلل والبرود المثقلة بالذهب والتيجان فلم يغير منصبُه من تواضعه وأخلاقه وقد أثر ذلك في هؤلاء الأشراف والملوك لما شاهدوا ما عليه من الزهد واللباس والوقار والهيبة فنزعوا ما كان عليهم من المظاهر .

---

(1) خلفاء الرسول خالد محمد خالد ص63 .

(2) مروج الذهب لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ج2 ص- 305 .

لقد رؤي يوما في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة فغضبت عشيرته لذلك وقالوا إن هذا يقلل من هيبتنا بين المهاجرين والأنصار فقال لهم : أردتم مني أن أكون ملكًا جبارا في الجاهلية جبارا في الإسلام ، والله لا تكون طاعة الله إلا بالتواضع لله تعالى والزهد في الدنيا .

كان قبل أن يسلم يملك مالا وثراءًا عريضا فأبى أن يكون على هذا الحال وفي المسلمين مملوك أوحر في فاقه فوزع أمواله في سبيل الله ، وكان آخر مال وزعه كله في غزوة تبوك .

وبعد توليه الخلافة شاهده عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح يتجول في السوق فسألوه ماذا يصنع هنا وقد ولي أمر المسلمين فأجابهم من أين أطعم عيالي فقالا له انطلق معنا واستشارا كبار الصحابة ففرضوا له شيئا من بيت المال ليتفرغ لأمور المسلمين[1] .

وفي بداية الحكم أراد أن يذكر الصحابة بالفوارق الرئيسية بين حكم النبي ﷺ الذي يوحى إليه من الله والمعصوم والذي يتنزل عليه حكم الله إذا اجتهد قبل نزول الوحي ، وبين حكم البشر بعد النبي ﷺ فقال لهم « إن رسول الله ﷺ كان يعصم بالوحي وكان معه ملك وإن لي شيطانا يعتريني ، فإن استقمت ، فأعينوني ، وإن زغت فقوموني » .

ولكن خصوم أبي بكر حولوا هذا التواضع والحق إلى سيئات لأنه قال إن لي شيطانا يعتريني وهم يعلمون أن كل إنسان له شيطان يعتريه ويوسوس له كما أشار إلى ذلك القرآن والسنة النبوية .

مواقف لأبي بكر :

إنه بجانب الموقف الأول الذي وقفه أبو بكر من قريش عند تكذيبها نزول الوحي على محمد ﷺ حيث قال لهم إن كان قال فقد صدق .

---

(1) خالد محمد خالد . خلفاء الرسول ﷺ ص122 - 124 .

فإنه توجد لأبي بكر مواقف أخرى خالدة بعد إسلامه نذكر منها :

(1) يذكر الإمام البخاري في صحيحه أنه كان لأبي بكر غلام ، وقد جاءه يوما بشيء فأكله منه فلما انتهى من أكله قال له الغلام أتدري ما هذا ؟ قال أبو بكر ما هو ؟ قال الغلام إني كنت تكهنت لرجل في الجاهلية ، ولقد لقيني اليوم فأعطاني هذا الذي أكلت منه . فأدخل أبو بكر يده في فمه حتى قاء وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » فخشيت أن ينبت هذا في جسدي .

(2) وعندما جاء النبي ﷺ وأخبر أهل مكة برحلة الإسراء والمعراج وذلك قبل أن يخبر أحدا من صحابته المؤمنين ، تجمع المشركون عند الكعبة وتزعمهم أبو جهل .

وقال لأبي بكر : يا عتيق .... كل أمر صاحبك قبل اليوم كان هينا ومحتملا أما الآن فاخرج لتسمع ... وبزغ عليهم أبو بكر دهشا تحمله سكينته ووقاره وسألهم : ماذا وراءكم ؟ قالوا صاحبك وانتفض أبو بكر وقال : ويحكم : هل أصابه سوء .....؟

وتراجع القوم قليلا واسترد كل منهم ريقه وقال قائلهم إنه هناك عند الكعبة ، يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . وتقدم آخر يكمل الحديث ساخرا وقال : ذهب ليلا وعاد ليلا وأصبح بين أظهرنا .

فأجابهم أبو بكر وقد تهلل محياه وقال إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك « أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة » ثم أطلق عبارته الخالدة « إن كان قال فقد صدق »[1] .

(3) روت كتب السنة أن أبا بكر رضي الله عنه لما وجد المسلمين قد تتابعوا

---

(1) المرجع السابق ص 69 .

مهاجرين إلى المدينة تنفيذا لأوامر النبي ﷺ ، جاء ليستأذن النبي ﷺ في الهجرة وقال له رسول الله ﷺ على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي[1] ، قال أبو بكر :

وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟

قال نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه في هذه المخاطرة ، وجهز راحلتين كانتا عنده وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر .

فاجتمع الكفار في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب وكانت قريش لا تمضي أمرا إلا في هذه الدار فجلسوا يتشاورون فيما يصنعون في أمر النبي ﷺ واجتمع رأيهم أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا ويُعطى كل شاب منهم سيفا صارما ثم يعمد هؤلاء إلى النبي ﷺ فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فيتفرق دمه في القبائل ، وحددوا لذلك ميعادا يوما معلوما ، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وأمره بالهجرة ونهاه أن ينام في مضجعه تلك الليلة . قالت عائشة فيما يروي البخاري فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة حتى قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ما جاء بك في هذه الساعة ؟ قال إني قد أذن لي في الخروج[2] وانطلق النبي ﷺ وأبو بكر حتى وصلا إلى غار ثوْر وانطلق الكفار في أثرهما حتى وصلوا إلى الغار وسمع أبو بكر أقدامهم فخاف على النبي ﷺ فقال له ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، وفي الطريق كان يسير أمام النبي ﷺ وخلفه وثالثة عن يمينه ورابعة عن شماله فسأله عن ذلك فقال أذكر الرصد فأمشي أمامك وأذكر طلبهم لك فأمشي خلفك وأذكر الكمين فأمشي مرةِ عن يمينك ومرة عن يسارك .

كما دخل الغار قبل النبي ﷺ ليتأكد من خلوه مما يؤذي النبي ﷺ ومن شدة حرصه على الرسول ﷺ قال له النبي ﷺ ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن

---

(1) رواه البخاري ج3 ص225 وسيرة ابن هشام ج1 ص155 .

(2) سيرة ابن هشام ج1 ص155 وطبقات ابن سعد 213 وفقةالسيرة للبوطي ص178 .

الله معنا ونزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ **ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾ (التوبة / 40) .

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ رفض أن يأخذ راحلة من أبي بكر إلا بالثمن[1] .

(4) ثم كان الموقف البطولي بحق والذي دل على شخصية متميزة بخصائص لم تتوفر لرجل غير أبي بكر وذلك هو موقفه يوم وفاة الرسول ﷺ[2] فإنه ـــ رضي الله عنه ـــ لما بلغه وفاة النبي ﷺ جاء من السنح مسرعا ودخل بيت رسول الله ﷺ فوجده مسجى فكشف عن وجهه الشريف وقبله وقال : ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتا ، ثم رد عليه البردة ، وخرج على الناس وخطب فيهم حيث كان عمر ينكر الوفاة فقال أبو بكر « أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت »[3] ثم تلا الآية :

﴿ **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ (آل عمران/ 144) .

(5) وموقف أبي بكر في غزوة بدر فقد اقترح سعد بن معاذ بناء عريش للنبي ﷺ يدير منه المعركة فيأمن فيه من خيانة المشركين فوافق النبي ﷺ على ذلك ووقف أبو بكر بجواره ليدافع معه ويدافع عنه فأخذ النبي ﷺ حفنة من الحصاء ورمى بها وجوه المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق رجل منهم إلا وامتلأت عيناه منها ثم أخذ يطمئن الصحابة بتأييد الله ونصره ويحدد مصارع قادة المشركين

---

(1) سيرة ابن هشام ج1 ص 155 وطبقات ابن سعد 213 وفقة السيرة للبوطي ص178 .
(2) سيرة ابن هشام ج4 ص224 .
(3) سيرة ابن هشام ج 4 ص224 .

ويضع يده على الأرض محددا مكان كل منهم فما تزحزح أحدهم في مقتله عن الموضع الذي حدده النبي ﷺ بيده[1] .

ولجأ النبي ﷺ إلى ربه بالدعاء والاستغاثة والتضرع حتى أشفق عليه أبو بكر فوقف من ورائه وقال : يا رسول الله أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك[2] .

(6) وفي غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر النبي ﷺ واشتغلوا بالغنائم ظانين أن المعركة قد انتهت فوثب عليهم المشركون وخلا الميدان من المجاهدين إلا من جثث الشهداء وقف أبو بكر مع نفر قليل يقاتل المشركين ويجري وراءهم شاهرا سيفه حتى ناداه النبي ﷺ وقال « أغمد سيفك يا أبا بكر حيث انتهت المعركة برجوع قريش » .

(7) وموقفه الفريد في صلح الحديبية لم يستجب الصحابة في البداية لرأي النبي ﷺ ورفضوا الصلح وقادهم عمر فأخذ أبو بكر بيده وقال أيها الرجل إنه لرسول الله ولن يعصيه وإن الله ناصره فاستمسك بغرزه .

(8) وفي بداية توليه الخلافة كان له موقف خالد من مانعي الزكاة وموقف خالد من المرتدين وموقف إيماني فريد من تنفيذ خطة النبي في إرسال الجيش إلى الروم بقيادة الفتى أسامة بن زيد .

---

(1) رواه مسلم ج6 ص170 .

(2) سيرة ابن هشام ج1 ص205 وزاد المعاد لابن القيم ج2 ص87 .

مؤتمر السقيفة واختيار أبي بكر :

لقد مرض رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر سنة عشرة من الهجرة سنة 632 م وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوما وفي أواخرها خرج إلى المسجد وجلس على المنبر وحث المسلمين أن ينفذوا جيش أسامة بن زيد إلى الروم ثم سكت قليلا وقال « إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله وسكت ، والناس كأنما على رؤوسهم الطير ولكن أبا بكر جهش بالبكاء مدركا أن هذه العبارة تعني النبي ﷺ . وقال بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وقال النبي ﷺ على رسلك يا أبا بكر ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب التي تصل بين بيوت بعض الصحابة وبين المسجد إلّا باب أبي بكر ، ولما أقفلت قال « إني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه وإني لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء حتى يجمعنا الله » ، ونزل الرسول ﷺ من المنبر ليعود إلى بيت عائشة حيث كان تمريضه به بعد أن أذن له أزواجه في ذلك ولكنه التفت إلى الناس وقال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتي ، أي خاصتي . وموضع سري » ثم قال « فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » وفي اليوم التالي حاول أن يصلي بالناس فلم يقدر فقال « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن ، فقال ﷺ « مروه فليصلّ بالناس » فكررت عائشة قولها فصاح ﷺ : إنكن صواحب يوسف ، مروه فليصل بالناس . وهكذا صلى أبو بكر بالناس كما أمر النبي ﷺ[1] .

وفي اليوم التالي صحا ﷺ وخرج إلى المسجد وكان أبو بكر يصلي بالناس فصلى قاعدا لجانبه ، وظن أبو بكر أنه عوفي فذهب إلى زوجته بنت خارجة بالسنح خارج المدينة فاختار الله غيبته وقبض روحه فحسبه بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب في غيبوبة ولابد أن يفيق ولم يصدق وفاته رغم أنه قد كشف على وجهه ووجد

---

(1) الاصطفا في سيرة المصطفى . محمد نبهان الخباز جـ 3 ص135 قطر .

أنه لا حراك به . وقال إنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وليرجعن كما رجع موسى وما إن جاء أبو بكر من السنح حتى كشف عن وجهه ﷺ وقبله ثم خرج إلى المسجد وأسكت عمر وقال قولته المشهورة « أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت »[1] .

وأما الأنصار فقد أدركوا أنهم أهل المدينة وأن مدينتهم عرضة لطمع القبائل والمنافقين والمرتدين وخصوم الإسلام ، فتجمعوا في سقيفة بني ساعدة وكانت بمثابة دار الندوة بمكة وتشاوروا فيمن يخلف النبي ﷺ وقالوا نولي هذا الأمر سعد بن عبادة وكان زعيمهم فأخرجوه وهو مريض فقال لابنه أسمعهم ما أقوله وخطب فيهم خطبة نقلها ابنه إليهم فكان مما قال « يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة في العرب .... فكنتم أشد الناس على عدوه ، وأثقلهم على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها .. أغنى الله لرسوله بكم الأرض ودانت له بأسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ وبكم قرير العين »[2] .

ومن هذه الكلمات يتضح أن الأنصار يرون أنهم سيصبحون هدف الأعراب والمنافقين وخصوم الدين فهم أولى ببحث أمر الخلافة . وفي أثناء ذلك جاء رجل إلى المهاجرين في بيت النبي ﷺ ونادى أخرج يا ابن الخطاب إنه قد حدث أمر لدى الأنصار فقد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة فأدركوهم فانطلق عمر وأخذ معه أبا بكر وفي الطريق وجدا أبا عبيدة عامر بن الجراح ووجدوا في الطريق معن بن عدي وعويم بن ساعدة وهما من الأنصار فسألوهما فقالا : لا عليكم فلا تقربوهم معشر المهاجرين أقضوا أمركم بينكم فإن اتفقتم فيما بينكم لن يكون خلاف بينكم وبين الأنصار[3] .

---

(1) انظر سابقا ، مواقف لأبي بكر بند 4 .

(3,2) تاريخ الطبري ج3 ص203 .

وشاع الخبر بين المهاجرين فتجمعوا وذهبوا إلى سقيفة بني ساعدة وفي هذا الجمع من المهاجرين والأنصار وقف خطيب الأنصار وقال : نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين حي منا وقد وافت إلينا رأفة منكم .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا استعمل رجلا منكم قرن معه رجلا منا ، فأرى أن يلي الأمر رجلان أحدهما منكم والآخر منا .

وقد شرع عمر بن الخطاب في الحديث وقال له أبو بكر على رسلك ووقف يتكلم باسم المهاجرين فقال : لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار واديا لسلكت وادي الأنصار وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش .

كما قال ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد « قريش ولاة هذا الأمر خير الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » فقال سعد صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء[1] . فهذا هو زعيم الأنصار قد صدق أبا بكر أما غيره فسبق أن وقف الحباب بن المنذر وتكلم عن الأنصار فقال منا أمير ومنكم أمير فقال عمر ابن الخطاب ، لا يجتمع اثنان في قرن والعرب لا ترضى أن يتولى أمرها إلا لمن كانت النبوة فيهم وولي أمورها منهم .

فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير . فقام بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه فقال : يا معشر الأنصار ! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي أن نستطيل بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولي المنة علينا بذلك . ألا إن محمدا ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

---

(1) تاريخ الطبري ج 2 ص 444 .

وقام أسيد بن حضير رضي الله عنه وأظهر ما يدعو إلى ترك الأنصار للأمر ، والمبايعة للمهاجرين فأبدى ما يمكن عليه أن يحدث من خلاف بين الأوس والخزرج فيما إذا تسلمت الأنصار الأمر ، لذا دعا إلى بيعة المهاجرين .

وروى النسائي والحاكم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قال للأنصار يومذاك : ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدّم أبا بكر للصلاة ؟

قالوا : بلى .

قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله ﷺ ؟

قالوا : لا أحد !

ثم قام زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فقال : إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وإن الإمام إنما يكون من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله[1] .

وأما المهاجرون فلم يطلب أحد منهم الإمارة لنفسه ولم يقل أحد أن النبي ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده لأحد من أقاربه فلم تظهر هذه المقولات إلا في العصور المتأخرة[2] .

فلم يكن بين الصحابة خلاف يذكر في هذا الأمر إلا ما كان من حرص الأنصار على حسم هذا الأمر بسرعة التجمع في السقيفة خشية انقضاض القبائل على المدينة .

ولقد كانت مصلحة الإسلام والمسلمين هي هدف الأنصار والمهاجرين . لهذا تراجع زعماء الأنصار وخطباؤهم عن مواقفهم وحسم الخلاف عندما قال عمر :

---

(1) تاريخ الطبري ج2 ص444 .

(2) تفصيل ذلك في كتاب الحقائق الغائبة . سالم البهنساوي عن كتاب الدكتور موسى الموسوي ص9-50 وكلا الكتابين عن دار الزهراء للإعلام العربي . القاهرة .

ولقد ذكر المؤرخ الشيعي أبو الحسن المسعودي أنه قد بويع أبو بكر في السقيفة وجدد الجميع له البيعة في المسجد يوم الثلاثاء . مروج الذهب ج2 ص307 .

يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر .

وقالت الأنصار نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[1] وطلب أبو بكر البيعة بعمر وأبي عبيدة .

فقال عمر أبسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك ، فقال أبو بكر بل أنت يا عمر فأنت أقوى ، وكان عمر أشد وكان كل واحد منهما يريد صاحبه يفتح يده ويضرب عليها ففتح عمر يد أبي بكر وقال إن لك قوتي مع قوتك ، وبايعه آخرون فبايع الناس واستثبتوا للبيعة وتخلف علي والزبير فلم يكونا معهم حيث كانا في بيت الرسول ﷺ بسبب الوفاة . وبايعه عمر كما بايعه المهاجرون والأنصار واجتمعت الكلمة على أبي بكر وفي اليوم التالي ليوم السقيفة تمت البيعة العامة لأبي بكر من المسلمين في المسجد وصعد أبو بكر المنبر فوقف عمر وقال : إن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فقام الجميع وبايعوه البيعة العامة وهي البيعة الثانية .

أما البيعة الأولى فقد تمت في سقيفة بني ساعدة من الخاصة وهم الزعماء والقواد وأهل الشورى وأهل الحل والعقد .

ومن فوق المنبر نادى أبو بكر على الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ كما نادى على علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته وطلب منهما خاصة أن يبايعا أمام العامة فقال كل منهما لا تثريب يا خليفة رسول الله وبايعا[2] . وخطب أبو بكر فحدد نهجه في الحكم فقال :

أما بعد أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى

(1,2) تاريخ الطبري ج3 ص203 وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص70 والكامل لابن الأثير ج2 ص324 .

أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء .

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1] .

الخليفة مع علي وفاطمة :

يروج البعض أن عليا لم يقبل خلافة أبي بكر وحمل السيدة فاطمة بصفتها زوجته وبنت النبي ، على دابته ليلا ليطوف بها على الأنصار فكانوا يقولون :

[« يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل . ولو أن زوجك سبق إلينا ، قبل أبي بكر ، ما عدلنا به » ويجيبهم علي ـــ وقد زاده هذا الجواب غضبا ـــ أفكنت أدع رسول الله ﷺ في بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس في سلطانه ؟ .

ثم تقول فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ماكان ينبغي له ، وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه وطالبهم به »][2] .

هذه صورة دونت في كتب التاريخ الإسلامي ، عن موقف علي وزوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ . وغاب عن ذهن الذين دونوها : أن العربي ـــ أيا كان ـــ يمنعه كبرياؤه وإباؤه أن يستعين بامرأة ـــ أيا كانت المرأة ـــ مهما كلفه هذا الأمر !! كما أن الاحتفاظ بمقام المرأة وصيانتها عن التبذل ، يحول دون الطواف بها ـــ وبخاصة إذا كانت بنت رسول الله ﷺ ـــ على بيوت القوم ونواديهم فهذه الأقوال تسيء إلى الطاهرة السيدة فاطمة الزهراء .

---

(1) تاريخ الطبري ج2 ص446 . ولكن ابن الأثير في كتابه الكامل ج2 ص447,325 يذكر أن عليا عندما علم أن الصحابة يبايعون أبا بكر في السقيفة خرج مسرعا في قميص بلا إزار ولا رداء حتى وصل إلى المجلس وبايع واحضروا إليه ثوبه وظل في السقيفة حتى انتهى المجلس .

(2) الصديق أبو بكر ـــ محمد حسين هيكل ـــ ص74 والإمامة والسياسة ص12 .

فإذا لم يقتنع القوم بالاستنتاج العقلي ، المبني على ما توحي به تقاليد العرب ، فماذا يقولون في رواية الطبري وابن الأثير ، التي نقلت عن سعيد بن زيد ، وهي تثبت أن أبا بكر بويع بعد السقيفة . بإجماع لم يتوقعه أحد .

والرواية هكذا : إن عمر بن حريث ، قال لسعيد بن زيد : « متى بويع أبو بكر » ؟ قال : يوم مات رسول الله ﷺ . كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة[1] .

قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال : لا .... إلا مرتد ، أو من قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل أنقذهم من الأنصار .

قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين ؟ قال : لا ... تتابع المهاجرون على بيعته ، من غير أن يدعوهم[2] .

هذا ، وقد روى إمام الحرمين ، أبو المعالي عبد الملك الجويني ، أن المسلمين أجمعوا على إمامة أبي بكر رضي الله عنه . وانقادوا ــ بأجمعهم ــ له من غير مخالفة[3] .

ثم ماذا يقولون في رواية ابن الأثير وهي تقول : « إن عليا بن أبي طالب ، كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر جلس للبيعة . فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء : عجلا ؛ كراهية أن يبطئ عنها . حتى بايعه . ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه . فتجلله ولزم مجلسه »[4] .

وهاتان الروايتان ، تجريان على طبيعة أصحاب رسول الله ﷺ ، في الحرص على الصالح العام ، وتقديم الأكبر سنا ، إذا تساوت المنزلة عند رسول الله . وهما توائما الحقيقة التي كانت عليها نفوس الصحابة من السمو في الأخلاق ، والصدق في القول والعمل حيث قال الله عنهم ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ (الحشر/ 8) .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص324 ط منير .

(2) راجع الصديق أبو بكر ص79 . وانظر هذا التحقيق العلمي في كتاب أباطيل ينبغي أن تمحى من التاريخ . د . إبراهيم شعوط ص101 - 112 .

(3) كتاب لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ص115 .

(4) الكامل لابن الأثير ج2 ص220 .

كما ورد في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري حيث يقول : « وقد صحح ابن حبان وغيره ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن عليا بايع أبا بكر في أول الأمر . قال : وأما ما في مسلم عن الزهري : من أن رجلا قال له : لم يبايع علي أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها . قال : ولا أحد من بني هاشم . فقد ضعفه البيهقي ، بأن الزهري لم يسنده ، وأما الرواية الموصلة عن أبي سعيد فأصح ... »[1] .

ويروي الحسن البصري عن قيس بن عبادة ، قال : « قال لي علي بن أبي طالب ، إن رسول الله ﷺ ، مرض أياما وليالي ، وينادي للصلاة . فيقول الرسول : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فلما قبض رسول الله ﷺ ، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين ، فرضينا لديننا من رضي رسول الله ﷺ لديننا . فبايعنا أبا بكر »[2] .

وروى ابن عبد البر أن عليا رضي الله عنه قال « خير الناس بعد رسول الله أبو بكر ثم عمر »[3] .

وأما بيعة أبي بكر بعد وفاة الزهراء فهي للتأكيد على عدم وجود أثر في النفس من رفض أبي بكر ميراث الزهراء من أبيها ﷺ .

قال ابن كثير في البداية : وفي صحيح البخاري أن أبا بكر صلى العصر بعد وفاة الرسول ﷺ بعدة ليالٍ ثم خرج من المسجد فوجد الحسن بن علي يلعب مع الغلمان فاحتمله على كاهله ، وجعل يقول : بأبي ، شبه النبي : ليس شبيها بعلي ، وعلي يضحك ولكن لما وقعت البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن عليا لم يبايع فنفى ذلك . وقال ابن كثير عن البيعة الثانية[4] (فهذه البيعة التي وقعت لعلي لأبي بكر بعد

---

(1) إرشاد الساري ج6 ص377 ط بولاق .

(2) كتاب تخريج الدلالات السمعية ، على ما كان في عهد الرسول ﷺ ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، تأليف الخزاعي التلمساني المتوفى عام 789 هـ : مخطوط .

(3) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج3 ص1149 .

(4) البداية والنهاية لابن كثير ج5 ص 286 .

وفاة فاطمة بيعة مؤكدة للصلح الذي وقع بينهما وهي ثانية للبيعة التي ذكرناها أولا يوم السقيفة .

كما روى ابن خزيمة ومسلم أنه لم يكن مجافيا لأبي بكر هذه السنة ، بل كان يصلي وراءه ويحضر عنده للمشورة وركب معه إلى ذي القصة) .

ومن مجموع هذه الروايات ، يتبين أن عليا رضي الله عنه ، لم ينفس على الصديق فضيلته ، فبايعه منذ أول يوم في السقيفة ، ولم يتخلف عن صلاة أو مشورة ثم تفرغ لجمع المصاحف ، وقل ظهوره ، فاستغل المنافقون ذلك ، فأشاعوا أن عليا كره بيعة الصديق ، وزاد الأمر شكا ، مسألة اختلاف الصديق وآل البيت ، حول من يتولى النظر على تركة رسول الله من الصدقات .

ثم جاءت البيعة الأخيرة من علي بعد وفاة الزهراء ، التي هدفت توضيح الأمر للناس ، وإسكات الشائعات ، فظن بعض الرواة أنها هي بيعته .... وليس الأمر كذلك[1] .

أسباب الخلاف :

تفيد الروايات أن حديثا وحوارا تم بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين السيدة فاطمة والصديق أبي بكر .

ولكن ما هو الخلاف ؟ هل على الميراث وقسمته ؟ أم على الولاية على الصدقة[2] .

إن الخلاف إنما كان على الولاية وليس على الميراث ، لحديث البخاري الذي قال فيه : « ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها . وسلاحه . وأرضا حولها لابن السبيل صدقة » .

(1,2) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص111 ، 112 .

كما جاء عن أحمد : « ولا شاة ولا بعيرا ، ولا أوصى بشيء » . رواه من طرق ؛ مسلم وأبو داود ، والنسائي وابن ماجه ، والترمذي في الشمائل ، والبيهقي في السنن .

فالروايات الصريحة تقول . إنه رأى أن فرضا عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله ﷺ ، وألا يدع أمرا كان يصنعه رسول الله ﷺ ، إلا صنعه .

ومما كان يصنعه رسول الله ﷺ ، أنه كان ينفق من المال نفقة أهله سنته ، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجمل مال الله .

فقد ورد في الترمذي من حديث أبي هريرة قال :

جاءت فاطمة إلى أبي بكر ، فقالت : من يرثك ؟ قال أهلي وولدي . قالت : ما لي لا أرث أبي ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا نورث . ولكني لا أعدل من كلمات رسول الله ﷺ . يقول : وأنفق على من كان رسول الله ﷺ ينفق » الحديث . ص 398 جـ 2 ورواه أحمد عن ابن أبي سلمة بمعناه ص10 ج1 . وليس فيه إشارة إلى حديث المغاضبة .

ثم لماذا لا يدل ذلك على رضى فاطمة ، وهو اللائق بها . وهو المعروف من زهدها وورعها ، وإيثارها الفقراء والمساكين على نفسها[1] ؟

هذه بإيجاز شديد مسألة الخلاف حول ميراث النبي ﷺ والتي نسج منها الجاهلون والمرجفون قصصا وروايات والصديق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله ﷺ ، وأنها لا تخالف قط عن أمره ، ولكن قد يخامرها الشك في أن الرسول قد قال هذا الحديث وشرع هذا الحكم . ومن ثم أرسل إلى عمر ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف وسألهم أمامها : « نشدتكم بالذي تقوم السماء والأرض بأمره . ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال : نحن لا نورث . ما تركناه صدقة » ؟؟

---

(1) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص112 والبداية والنهاية لابن كثير ج5 ص289 .

وأدلت فاطمة برأيها ، فقالت للخليفة : إنك تعلم أن الرسول كان قد وهبها لي في حياته فهي لي إذن بحق الهبة ، لا بحق الإرث .

قال أبو بكر : أجل أعلم . ولكني رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم ، وإذن فقد أراد أن يكون فيها حق دائم للفقير .

قالت فاطمة : دعها تكن في أيدينا ، ونجري فيها على ما كانت تجري عليه وهي في يد رسول الله .

قال أبو بكر : لست أرى ذلك فأنا ولي المؤمنين من بعد رسولهم ، وأنا أحق بذلك منكما أضعها في الموضع الذي كان النبي ﷺ يضعها فيه[1] !!

إنه في هذه الواقعة التي واجهت الصديق في بداية حكمه اجتاز إيمانه بالحق وبالقانون امتحانا لا يدرك رهبته ومشقته أحد سوى أبي بكر فهو حريص على النبي ﷺ وعلى تنفيذ أحكامه . كما كان حريصا على ذلك في حياة الرسول ﷺ وحسبنا أن نذكر هنا أنه خلال فترة الاستضعاف كان مع النبي حول الكعبة فخطب في الناس فضربوه ضربا حتى خر صريعا ووحمل إلى بيته فلما أفاق سأل أمه (المشركة) عن النبي ﷺ ليطمئن عليه قالت لا أعرفه فقال لها اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فذهبت إليها فسألتها فقالت لا أعرف ابنك ولا محمدا وإن كنت تحبين أن أذهب معك لابنك ذهبت فمضت معها وانكبت على أبي بكر وقالت هذه أمك تسمع أي تكشف سر المسلمين فطمأنها فقالت إنه في دار الأرقم فأقسم ألا يذوق طعاما حتى يذهب ويطمئن على رسول الله ﷺ فاتكأ عليهما حتى دخل على النبي ﷺ فقبله ولزمه .

خصال الصحابة :

لقد كان الحب والإيثار من أظهر خصال الصحابة رضي الله عنهم لهذا فمن تولى الإمارة منهم كان يستشير الباقين ولا سيما آل البيت الذين بلغت محبة الخلفاء

---

(1) خالد محمد خالد . خلفاء الرسول ص116 .

الراشدين لهم أن اعتزوا بأبنائهم اعتزازا جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرسل رسولا إلى اليمن ليأتي بثياب للحسن والحسين ، وفي ذات مرة طلب الحسين الذي لقي عبد الله بن عمر ، فقال له : من أين جئت ؟ فقال : استأذنت على عمر فلم يأذن لي ، فرجع الحسين فلقيه عمر فقال : ما منعك يا حسين أن تأتيني ؟

قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .

فقال عمر : وهل أنت عندي مثله ؟ وأنت عندي مثله[1] ؟ (أي أعز عليه وأكرم من ولده عبد الله) .

وأخرج الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ .

وأخرج البخاري وأحمد ، عن محمد بن الحنفية قال : قلت لأبي (يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أي الناس خير بعد النبي ﷺ ؟ قال : أبو بكر ! قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، وخشيت أن يقول عثمان .

قلت : ثم أنت . قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال للسائل : على الخبير سقطت ، كانا والله إمامَيْ هدى ، هاديين مهديين ، راشدين مرشدين ، مصلحين منجحين ، خرجا من الدنيا خميصين .

وقال : جعل الله أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما إلى يوم القيامة ، فسبقا والله سبقا بعيدا ، وأتعبا من بعدهما إتعابا شديدا .

وبينما كان علي ذات يوم يقضي في الكوفة ، إذ قال رجل : يا خير الناس انظر في أمري ، فوالله ما رأيت أحدا هو خير منك . قال : قدموه ، فقدم ، فقال له :

---

(1) ابن الجوزي ص164 .

هل رأيت رسول الله ﷺ قال لا ، قال هل رأيت أبا بكر وعمر قال لا ، قال لو أخبرتني أنك رأيت النبي ﷺ لضربت عنقك ولو أخبرتني أنك رأيت الشيخين لأوجعتك ضربا .

ولقد قال رجل لعلي رضي الله عنه كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر ، فقال علي ، سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن ، سبقني إلى إفشاء الإسلام وقدم الهجرة ، ومصاحبة النبي في الغار وإتمام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب وحسبنا أن الله ذم الناس ومدح أبا بكر فقال عز وجل **﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾** (التوبة/ 40) .

أما المآسي التي نالت آل البيت في العصر الأموي والعباسي ، فإنها لم تقتصر على هؤلاء إنما مست جميع الثائرين سواء كانوا من آل البيت أو من غيرهم ، فكما قاتل المنصور في العصر العباسي بعض آل البيت كمحمد ذي النفس الزكية ، فقد حارب أيضا عمه عبد الله بن علي وقتله كما قتل أبا مسلم الخراساني .

أبو بكر وجيش أسامة :

لقد روي ابن سعد في الطبقات أنه في السنة التاسعة للهجرة قد علم النبي ﷺ من الأشخاص الذين يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة ، أن الروم قد جمعوا جنودا لحرب النبي ﷺ وصحابته وأنهم ضموا إليهم في هذه الاستعدادات لخم وجذام وغيرها من بلاد العرب الذين كانوا تحت حكم الروم[1] .

وما إن وصلت طلائع هؤلاء إلى أرض البلقاء حتى ندب النبي ﷺ المسلمين للخروج وكان ذلك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة وكان الحر شديدا والناس في عسرة من العيش فخرج مع النبي ﷺ نحو ثلاثين ألف مسلم ، وتخلف بعض

---

(1) طبقات ابن سعد ج3 ص18 ، وفتح الباري ج3 ص87 .

المسلمين من غير سبب مشروع .

ولقد كان جيش الروم نحو ثلاثين ألف جندي ، ولما وصل جيش المسلمين إلى تبوك تفرق الجيش الرومي وتقدم يوحنا حاكم أيلة وعقد صلحا مع النبي ﷺ على الجزية ، كما تقدم أهل جرباء وأذرج فتصالحوا كذلك وعاد النبي ﷺ وأصحابه في رمضان من ذات العام وذلك ليستعد لأداء مناسك الحج مع أصحابه وقد سميت هذه بحجة الوداع حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك ، وما إن عاد النبي ﷺ من حجة الوداع حتى أمر المسلمين بالاستعداد لغزو الروم واختار لقيادة الجيش أسامة ابن زيد وكان شابا صغيرا وأمره النبي ﷺ أن يسير بالجيش إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة وذلك في المعركة السابقة التي استشهد فيها مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، وكان أسامة ابن ثماني عشرة سنة فاستنكر البعض أن يكون هذا الغلام أميرا على كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وأشاعوا ذلك وكان النبي ﷺ قد لزم البيت من مرضه ، فخرج إلى الناس وقد عصب رأسه وخطب فيهم وقال : « إن تطعنوا في إمارة أسامة بن زيد فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، وايم الله إن كان لخليقا بها ، وايم الله إن كان لأحب الناس إليَّ ، وايم الله إن هذا لها لخليق (أي أسامة) . وايم الله إن كان لأحبهم إلى من بعده فأوصيكم به فإنه من صالحيكم »[1] .

وقد خرج أسامة بجيش كبير من المهاجرين والأنصار وعسكر بالجرف على بعد فرسخ من المدينة أي ثلاثة أميال .

ولكن الجيش لم يواصل سيره وظل في هذا المكان وذلك لاشتداد المرض بالنبي ﷺ .

ولقد كان أول ما بدأ به أبو بكر بعد توليه الخلافة أن أكمل عمل النبي ﷺ حيث حالت وفاته دون قيام الجيش بمهمته ، ولكن بعد أن اجتمع الجيش كله مرة

---

(1) رواه البخاري ومسلم وهذه رواية مسلم ج7 ص131 ومختصر صحيح مسلم للمنذري/ 1681 .

أخرى في معسكره بالجرف بعث قائده أسامة رسولا إلى الخليفة وهذا الرسول هو عمر بن الخطاب أحد جنود هذا الجيش وكان مضمون رسالة أسامة أن يستأذن الخليفة في العودة إلى المدينة بالجيش لحمايتها من حركة الردة والتي شملت الجزيرة العربية كلها ما عدا المدينة ومكة والطائف[1] .

ولقد كان جواب الخليفة (أنفذوا بعث أسامة فوالله لو خطفتني الذئاب لأنفذته كما أمر رسول الله ﷺ وما كنت لأرد قضاء قضاه ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته)[2] حينئذ قال عمر بن الخطاب للخليفة إن الأنصار يطلبون قائدا للجيش أكبر من أسامة فوقف أبو بكر وكان جالسا وهز عمر من رأسه وقال (ثكلتك أمك يا ابن الخطاب : استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله)[3] ، ثم نهض الخليفة وخرج إلى معسكر الجيش وفي صحبته عمر بن الخطاب وأمر الجيش بالتحرك ومشى ليودع الجيش وقائده فرفض أسامة أن يظل راكبا فرسه بينما يمشي الخليفة على قدميه وقال لتركبن أو لأنزلن يا خليفة رسول الله ﷺ وشرع في النزول من على الفرس فثبته أبو بكر بيده وقال (والله لا نزلت ولا أركب ، وماذا على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله) . ولقد كان نتيجة إصرار أبي بكر على إنفاذ جيش أسامة على الرغم من تحرك المرتدين في كل مكان ، أن دب اليأس في قلوب القبائل التي ارتدت فما أن مر جيش أسامة في طريقه إلى الشام بهذا العدد الكبير حتى دب الوهن في قلوب هذه القبائل بعضهم لبعض[4] ، لو كانت المدينة تئن من الضعف والخلاف كما سمعنا ما كان بوسعها أن تبعث هذا الجيش في هذه الفترة العصيبة ليحارب الروم وهي قوة كبرى لايستهان بها .

إن خروج هذا الجيش بهذه القوة وفي هذه الظروف ثم عودته منتصرا كان له أثر في إرهاب المرتدين والتعجيل بقطع دابر هذه الفتن .

(1,2,3) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج2 ص335-342 والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج2 ص856 وتاريخ الطبري ج3 ص225 ، والصديق أبو بكر : د . محمد حسين هيكل ص103 .
(2) خلفاء الرسول خالد محمد خالد ص101 .

ولقد أثبت أسامة قدرته على القيادة واتجه بالجيش إلى أرض البلقاء بالشام وأغار على آبل وبعث السرايا إلى قضاعة وقضى على كل فتنة وكل من وقف في طريق الجيش وجعل شعار المعركة (يامنصور أمت)[1] ولما فضت الروم جموعها التي حشدتها على عهد النبي ﷺ ، وانفض عنهم العرب الذين كانوا قد تحالفوا معهم من النصارى في لخم وجذام وغيرها ، وعاد جيش أسامة إلى المدينة يسوق أمامه الغنائم التي تركها العدو حين ولى الأدبار .

أبو بكر ودستور الحرب :

إنه على الرغم من أن الروم حشدوا الحشود لغزو المدينة وقتلوا قواد المسلمين في مؤتة فقد كانت تعليمات أبي بكر للجيش الذي تجمع لتأديب الروم وردعهم ، هي قوله (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ولا تفرقوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع (أي الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[2] .

مانعو الزكاة والمرتدون :

نظرا لأن الإسلام لم ينتشر خارج مكة والمدينة إلا بعد فتح مكة وهزيمة ثقيف في الطائف . فإنه لعدم استقرار الإيمان في نفوس القبائل التي في أطراف الجزيرة العربية فقد هزتهم وفاة النبي ﷺ فمنهم من ارتد عن الإسلام كله ومنهم من منع الزكاة وبدأوا يفاوضون أبا بكر في أن يرفع عنهم الزكاة وخصوصا بعد توجه جيش أسامة إلى بلاد الروم .

لقد أدرك أبو بكر أن التهاون مع مانعي الزكاة سيؤدي إلى أن يطمع غيرهم ويفاوضون على الانتقاص من حقوق الإسلام ، كما نظر إلى أن هذه المفاوضة إنما

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص334 وجولة تاريخية في عصر الخلفاء للدكتور الوكيل ص23 .
(2) العبر لابن خلدون ج2 ص856 والكامل لابن الأثير ج2 ص335 .

يراد منها الوقوف على مدى قوة المسلمين ومدى استعدادهم للدفاع عن المدينة ، فضلا عن أن موقف الخليفة الذي أعلنه ألا يفرط في أي أمر من أمور الإسلام التي ورثها عن النبي ﷺ ولأن النصر من عند الله لهذا كله عندما حضر مندوبون عن عبس وذبيان وغطفان وفزارة للتفاوض أعلن الخليفة عن تعبئة المسلمين جميعا للحرب بما فيهم غير القادرين ونادى في المسلمين (إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تأتون أو نهارا ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا)[1] .

وقد وزع أبو بكر الجنود لحراسة المدينة من أي هجوم محتمل وتولى قيادة الحراسة على أبواب المدينة كل من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن مسعود . ولقد باغتهم العدو في الليلة الثالثة للحراسة ظنا منه أن وجود الجيش في بلاد الروم سيجعل أبا بكر يخضع لمطالبهم ولكن كانت المفاجأة بخروج الجميع للحرب والمواجهة بما فيهم القاعدون وغير القادرين فارتد الأعداء على أعقابهم خاسرين فتعقبهم الخليفة على رأس مجموعة من الجنود واشتبك معهم في ثلث الليل الأخير في معركة فاصلة حتى ولوا الدبر ووصلوا إلى ذي القصة فأقام المسلمون في منازلهم وطاردوهم وأجلوهم عن هذه المنازل وعين الخليفة حامية لحراسة المنازل حتى لا يعود إليها المنهزمون وكانت الحامية بقيادة النعمان بن مقرن .

وهذا الانتصار في معركة ذي القصة جعل القبائل تذعن إلى القيادة الجديدة وترسل رسلا لإعلان الولاء للخليفة . وفي أثناء ذلك وصل جيش أسامة من الروم منتصرا وكان ذلك تأييدا لموقف أبي بكر الإيماني والصارم والحكيم والذي عبر عنه عبد الله بن مسعود بقوله (لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر ، أجمعنا على ألا نقاتل عن ابنة مخاض وابنة لبون وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضي

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص342 .

منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة ، وأن يردوا قتلانا وأن نغنم ما أخذنا منهم وأن ما أخذ منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم)[1] .

والجدير بالذكر أن السبب في الإجراءات التي اتخذها أبو بكر والتي امتدحها عبد الله بن مسعود هو أنه بعد أن جعل النعمان بن مقرن رئيسا لحامية من المسلمين بعد تطهير ذي القصة من المرتدين وثب بنو ذبيان وعبس على هذه الحامية وقتلوهم كل قتلة وفعل من وراءهم فعلهم فحلف أبو بكر على تأديبهم[2] .

قتال مانعي الزكاة :

يذكر الطبري أنه لما أراح أسامة وجنده ظهرهم ، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية فعقد احدى عشر لواء .

عقد لخالد بن الوليد وأمر بطليحة بن خويلد فإذا أفرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح[3] .

كما ذكر الطبري السبب وهو أن مالك بن نويرة وآخرين أرسلوا إلى أبي بكر وفودا حين وقع الخبر بموت النبي ﷺ ، أن يعفوا من الزكاة واجتمع ملأ من أنزلوهم على قبول ذلك حتى يبلغوا ما يريدون إلا أبا بكر فإنه أبى إلا ما كان رسول الله ﷺ يأخذه ، فردهم وأجلهم يوما وليلة فتطايروا إلى عشائرهم[4] .

كما ذكر أن سجاح بنت الحارث بن سويد قد ادعت النبوة بعد موت النبي ﷺ فاستجاب لها الهذيل وترك النصرانية وهؤلاء الذين أقبلوا معها لتغزو بهم أبا بكر فلما انتهت إلى الحزن ، راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة فأجابها[5] .

وذكر الطبري أيضا أنه لما قدم خالد بن الوليد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص342 .
(2) انظر تاريخ الطبري ج 2 ص478 .
(3,4) تاريخ الأمم والملوك ج2 ص502,496,487,480 .

الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب ، وإن امتنع أن يقتلوه ، وكان مما أوصى به أبو بكر أن إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا فإن أذن القوم وأقاموا الصلاة فكفوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم يقتلوا وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة ، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع ، فاختلفت السرية بينهم وفيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، فلما اختلف فيهم أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء وجعلت تزداد بردا ، فأمر خالد مناديا فنادى أدفئوا أسراكم وكانت في لغة كنانة ، دفأه (قتله) وفي لغة غيرهم أدفه فاقتله فظن القوم وهي في لغتهم القتل أنه أراد القتل فقتلوهم وقتل ضرار بن الأزور مالكا[1] .

وسمع خالد ذلك فخرج وقد فرغوا منهم فقال إذا أراد الله أمرا أصابه .

وقد اختلف القوم فيهم فقال أبو قتادة هذا عملك فزجره خالد فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه عمر فيه ، فلم يرض إلا أن يرجع إليه حتى قدم المدينة معه ، وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال وتركها لينقضي طهرها . وقال عمر لأبي بكر إن في سيف خالد رهقا فإن لم يكن هذا حقا ، حق عليه أن تقيده ، وأكثر عليه في ذلك .

وكان أبو بكر لا يقيد من عماله فقال : هيه يا عمر ، تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد ، ودفع الدية عن مالك بن نويرة ، وكتب إلى خالد أن يقدم ففعل فأخبره خبره فعذره وقبل منه وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك .

وروى الطبري عن شعيب عن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه قال شهد قوم من السرية أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا وشهد آخرون أنهم لم يكن من ذلك شيء فقتلوا

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج2 ص480, 487, 496, 502 .

وقدم متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دم أخيه مالك ويطلب إليه في سبيلهم فكتب له برد السبي وألح عمر على أبي بكر أن يعزل خالدا وقال إن في سيفه رهقا أي حمقا وسفها فقال أبو بكر لا يا عمر لم أكن لأشيم سيفا سله الله على الكافرين[1] .

موقف أبي بكر من قتل ابن نويرة :

إن التحقيق الذي قام به الخليفة الأول قد انتهى إلى براءة ساحة خالد بن الوليد من تهمة قتل مالك بن نويرة . وأما زواج خالد من أرملة ابن نويرة فتلك سنة متبعة في هذا العصر لأسباب اجتماعية وإنسانية وقد تزوج سعد بن أبي وقاص سلمى بنت حفص بعد وفاة زوجها المثنى بن حارثة في ميدان المعركة ولم يتهم سعد بما اتهم به خالد .

وأما عزل عمر لخالد فيرجع إلى سياسة عمر في عزل القواد وتولية من بعدهم حتى يدرك المسلمون أن النصر من عند الله كما سيشار إليه عن خلافة عمر .

إن ما تناقلته الكتب والروايات عن موقف أبي بكر وعمر من خالد بن الوليد فيه تناقضات كثيرة مما يكشف عن أن الهوى والغرض كانا مسيطرين على أصحاب هذه الفكرة .

لنقرأ ما كتبه ابن الأثير في كتاب « الكامل » بعد ما ذكر أن أبا بكر استقدم خالدا ليحقق معه في موضوع قتل مالك بن نويرة ، فلما وصل خالد إلى المدينة دخل المسجد يرتدي قباء « عليه صدأ الحديد وقد تغرز في عمامته أسهما ، فقام إليه عمر بن الخطاب فنزعها وحطمها . وقال له : أرئاء قتلت امرءًا مسلما ثم نزوت على امرأته ؟ والله لأرجمنك بأحجارك[2] .

---

(1) تاريخ الأمم للطبري ج2 ص503 .

(2) الكامل لابن الأثير ج2 ص242 - 243 .

ثم قال بعد ذلك « إن متمما بن نويرة « أخا مالك » قدم على أبي بكر يطلب دية أخيه ، ويسأله أن يرد عليهم سبيهم ، فأمر أبو بكر برد السبي وودى مالكا من بيت المال ، أ .هـ ، ومعنى ذلك ، أن خالدا قتل مالكا المسلم ، فأصبح مدينا بقتله وبزواج امرأته .

لكن نجد الآتي : في ذات الصحيفة « لما قدم متمم بن نويرة على عمر « بعد قتل أخيه » قال له عمر : ما بلغ بك الوجد على أخيك ؟ قال : بكيته حولا ، حتى أعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة[1] وما رأيت نارا قط إلا كدت أتقطع عليه أسفا لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح ، مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه .

ولقد قال عمر : هذا والله التأبين . لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدا[2] فقال متمم لا سواء يا أمير المؤمنين ، لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته[3] ، وهذا يفيد أن أخاه مات على غير الإسلام .

يروي المؤرخون أن الأسرى باتوا ليلتهم مكبلين وكانت الليلة شديدة البرد ، فأمر خالد بإدفاء الأسرى فنادى مناديه ودافئوا أسراكم ، فظن الحراس أن خالدا يريد قتلهم فقتلوهم وسمع خالد صياح القوم فخرج ليرى الخبر فوجدهم قد فرغوا منهم فقال : إذا أراد الله أمرا أصابه .

ولقد تحمل الخليفة دية مالك بن نويرة من ماله الخاص دفعها إلى أخيه متمم لأنه طالب بها وذلك ليسكت وتنتهي هذه الزوبعة ، وإن كان من المؤرخين من ضعف رواية الخطأ في القتل .

فيروي ابن كثير هذه الرواية بصيغة تدل على الضعف وعدم اعتماده عليها ولئن صحت هذه الرواية فإن خالدا لا دخل له في قتل القوم ، ويكون قتلهم وقع خطأ غير مقصود لا من خالد ولا من الحراس .

---

(1) كان متمما فقد إحدى عينيه قبل أخيه مالكا .

(2) استشهد زيد بن الخطاب في واقعة اليمامة تحت لواء خالد بن الوليد .

(3) الكامل لابن الأثير ج2 ص243 وانظر أباطيل يجب أن تمحى ص119 .

وعلى هذا يكون زواج خالد من امرأة مالك إنما أراد به تعويضها عمن فقدت فيكون لها فيه عزاء كما فعل سعد بن أبي وقاص مع زوجة المثنى بن حارثة رضي الله عنهما وهي السيدة سلمى بنت حفص .

إنه من المحققين من يرى أن مالكا قد ارتد لأن الأصفهاني في الأغاني وابن خلكان في الوفيات يوردان أن مالكا لم يقر بالزكاة ولم يذكر النبوة وكل واحد من الأمرين يوجب قتل صاحبه شرعا فكيف إذا اجتمعا[1] .

وتجري رواية أخرى على النحو التالي : يقول المؤرخون : إن خالدا استدعى مالكا ولامه على ما كان منه من متابعة سجاح ومنع الزكاة وقال : ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك فقال خالد : أهو صاحبنا وليس بصاحبكم ؟ ثم التفت إلى ضرار بن الأزور وقال : يا ضرار اضرب عنقه فضرب عنقه[2] .

إن التحقيق الذي تولاه أبو بكر أظهر براءة خالد وعزل عمر له ، لم تكن لهذه الشبهة بل لاختلاف سياسة عمر بعض الشيء عن أبي بكر كما هو مبين بعد ذلك .

أسباب قتال مانعي الزكاة :

إن الذين منعوا الزكاة لم يكونوا جميعا قد ارتدوا عن الإسلام ولا أنكروا كلهم حكم الزكاة بل كان لبعضهم فهم خاص أو شبهة ضعيفة تخلص في زعمهم أن الزكاة تدفع شرعا للنبي ﷺ فقط لقول الله تعالى ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم والله سميع عليم** ﴾ (التوبة/ 103) .

فمنهم من قال إن الصدقة تسقط بوفاة النبي لأن الله أمر أن تدفع إليه خاصة ، ومنهم من قال إنها لا تسقط ولكن لا يلتزم المسلم بتسليمها إلى أمير المؤمنين بل

(1) د . محمد السيد الوكيل ، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص42 .
(2) ابن كثير (322/6) .

يوزعها بنفسه لأن تسليمها للنبي ﷺ يرجع إلى أنه كان يطهر صاحب المال ويزكيه ويصلي عليه وهذه الصلاة سكن لصاحب المال أما غير النبي فلا يملك ذلك[1] .

وقد غاب عن هؤلاء أن التزكية والتطهير في الآية القرآنية يرتبها الله على دفع الزكاة فهي أداة تطهير وتزكية . أما صلاة النبي ﷺ على المزكي أي صاحب المال فهي على معناها اللغوي وهو الدعاء له فكل من يتولى جمع الزكاة يدعو لصاحب المال بالبركة أو بالأجر والثواب وثابت الأعمال ولا يرتبط بوجود النبي وكذلك الدعاء فهو ليس قاصرا على النبي ﷺ وهو باق وغير منقطع[2] .

وأيضا توجد أصناف أخرى من مانعي الزكاة ظاهروا من أدعى النبوة وأنكروا وجوب الصلاة والزكاة[3] .

وقد وقف أبو بكر من هذه القضية موقفا خالدا أثبت فيه أنه رجل الساعة فعلًا فلم يفرق بين العبادة البدنية كالصلاة والعبادة المالية كالزكاة ورفض أن ينتقص من الدين شيء أو أن يفصل بين الدين والدولة ولو بصفة مؤقتة .

يروي أبو هريرة هذا الموقف فيقول (لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب فقال عمر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها . قال عمر فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[4] .

وفي رواية عناقا بدل عقالا .

---

(1) أحكام القرآن لابن العربي ج2 ص995 والمجموع للنووي ج5 ص334 .

(2) معالم السنن للخطابي ج2 ص165 ونيل الأوطار للشوكاني ج4 ص102 .

(3) المرجع السابق .

(4) رواه الجماعة عدا ابن ماجه .

والعناق هو الأنثى من الماعز المولودة والعقال هو الحبل الذي يربط به البعير .

لقد أقر الصحابة موقف أبي بكر وأجمعوا عليه بعد أن زالت الشبهة التي كانت لدى عمر بن الخطاب وأصبح هذا إجماعا من الصحابة ومن ثم فالإسلام هو أول شريعة وقانون ونظام استخدم السلاح ليحمي حق الفقراء ويكلف الدولة والأغنياء بالقتال من أجل استخلاص هذا الحق ، قال الإمام النووي إذا منع واحد أو جمع الزكاة وجب على الإمام قتالهم[1] .

والجدير بالذكر أن الزكاة ركن من أركان الإسلام حسب الثابت في الحديث الصحيح بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وبالتالي فالامتناع عن أداء الزكاة هو تعطيل أو هدم لركن من أركان الإسلام ويكون القتال عن ذلك فرض عين . وبالتالي فإن موقف أبي بكر ليس اجتهادا في مسألة خلافية إنما هو التزام بنص صريح في السنة النبوية وأيضا في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ .

وأما محاربة مانعي الزكاة مع المرتدين مع أن فيهم من ليس مرتدا فإن الخليفة سوى بينهم وبين المرتدين لمشاركتهم لهم في التمرد والخروج على سلطة الدولة ومنع ما منعوه من حقوق الدين .

وأيضا لأنهم يعطلون ركنا من أركان الإسلام ويفصلون بين الدين والدولة وهذا لا وجود له في شريعة الإسلام فالسكوت عليه هو بمثابة القبول بعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع كحال فعل النصارى ، ولكن هؤلاء فعلوا ذلك تنفيذا لنص مقدس عندهم هو ما نسب للسيد المسيح في قوله : [دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله]

---

(1) فقه الزكاة للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ج1 ص81 .

وبينما نزل القرآن الكريم لتصحيح هذا كله ورد الأمر كله لله ، قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ 54) ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ وقال ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ (آل عمران/ 154) . وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ (المائدة/ 44) .

فضلا عن ذلك فإن مانعي الزكاة لم يمكثوا في ديارهم على حالهم بل تنادوا ليزحفوا على المدينة وجمعوا الجموع لذلك وأرسلوا وفودا للتفاوض مع الخليفة ليقرهم على بدعتهم هذه .

لهذا ولغيره من الأسباب التي اقتنع بها أبو بكر وقف موقفه الفريد وأمسك بعمر ابن الخطاب الذي كان يجادله ليهادن مانعي الزكاة وقال له (أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام) .

لمحة حول الردة وحروبها :

إن الردة التي شملت أكثر الجزيرة العربية باستثناء المدينة ومكة والطائف هي أول معضلة واجهت أبا بكر الصديق هذه الردة قد كان لها جذور وبذور في أواخر عصر النبي ﷺ :

(1) فقد ارتد الأسود العنسي في اليمن وانقض على نجران واستولى على صنعاء وحاول السيطرة على مدن اليمن فكتب النبي ﷺ إلى مسلمي اليمن أن يقتلوه وجاء خبر قتله في ليلة وفاته ﷺ .

(2) وادعى طلحة بن خويلد الأسدي النبوة في بني أسد ، فأرسل إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور ليكون عاملا على بني أسد وليحارب من ارتد منهم ومات النبي قبل أن يحسم أمر هذا الكذاب .

(3) وادعى مسيلمة بن حبيب الحنفي النبوة في أهل اليمامة وكتب إلى النبي ﷺ

(من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك أما بعد ، فإني أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم لا يعدلون) .

فكتب إليه رسول الله ﷺ « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »[1] .

ولما توفي رسول الله ﷺ عمت حركة الردة الجزيرة إلا ما رحم ربك وذلك لنعرات جاهلية كانت لدى ضعاف الإيمان وضعاف النفوس ، فالولاء القبلي جعل بنو أسد يلتفون حول كذابهم طليحة ، كما التفت بنو حنيفة حول كذابهم مسيلمة وكلاهما يعرف أنه كذاب حتى كتب طليحة إلى مسيلمة (أشهد أنك لكاذب وأن محمدا لصادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)[2] .

وكان أن وقف أبو بكر من هذه الفتنة موقف الواثق من أن النصر من عند الله فلم يقبل التفاوض معهم أو مهادنتهم أو التخلص منهم على مراحل ، وأعلن الحرب عليهم جميعا مع إنفاذه جيش أسامة لحرب الروم .

وحتى يعذر الخليفة إلى الله تعالى وحتى لا يبدأ بالقتل والقتال أرسل رسالة عامة إلى كل أنحاء الجزيرة العربية سلمها لقواده ليقرءوها على الناس وفيها[3] .

[بسم الله الرحمن الرحيم]

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه ، سلام على من اتبع الهدى و لم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو واشهد أن لا إله إلا

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ص97 والكامل لابن الأثير ج2 ص334 .
(2) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج3 ص246 والكامل في التاريخ لابن الأثير ج2 ص362 .
(3) تاريخ الطبري ج2 ص480 و 482 .

الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، نقر بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده . أما بعد فإن الله تعالى أرسل محمدا من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ... كما جاء فيها :

(فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حيٌّ قيومٌ لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه ويجزيه وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله فإن كل من لم يهده الله ضال وكل من لم يعافه مبتلى وكل من لم يعنه الله مخذول فمن هداه الله كان مهتديا ومن أضله كان ضالا قال الله تعالى : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان قال الله تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ وقال ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك .. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم فإذا أذنوا فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم وإن أذنوا أسألوهم ما عليهم) .

توزيع الجيوش في حروب الردة :

اختار أبو بكر أحد عشر قائدا وعينهم أمراء في أحد عشر جيشا ووزعهم على المناطق المختلفة لقتال المرتدين وزود كلا منهم بكتاب ليقرأه على من بعثه إليهم وفيه :

(وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان

وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم)[1] .

وقد وزع أبو بكر هؤلاء الأمراء على الألوية التالية :

1 ــ لواء خالد بن الوليد :

لقد أمر أبو بكر خالد بن الوليد على لواء حربي وحدد مهمته في محاربة طليحة ابن خويلد الأسدي ، مدعي النبوة وذلك بمهاجمته في عقر داره في بزاخة وهي عين ماء لقبيلته بني أسد ثم أمره أن يتوجه بعد ذلك إلى البطاح لمحاربة مالك بن نويرة ومن معه والبطاح هي عين ماء لبني أسد أيضا[2] .

وقد اشتبك خالد في معركة مع طليحة وحلفائه من بني أسد ومن انحاز إليه من فلول ذي القصة من عبس وذبيان وغطفان ومن معهم كطيئ وسليم وهوازن فهزمهم وفر طليحة إلى الشام ثم أسلم بعد ذلك عندما أسلم قومه في عهد أبي بكر وبعد وفاته جاء ليبايع عمر فرفض ثم قبل منه وانضم إلى المجاهدين لفتح العراق ثم قضى خالد على جيب حربي من المنهزمين في غطفان وطيئ وسليم وهوازن حرضتهم على التجمع أم زمل سلمى بنت مالك وانتهت بذلك هذه الفتنة[3] .

---

(1) تاريخ الطبري ج2 ص480 إلى ص482 .

(2) معجم البلدان للبلاذري جـ 1 ص 92,68 .

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ 2 ص 242 والبداية والنهاية لابن كثير جـ6 ص 322 .

فتنة مالك بن نويرة :

وبعد الانتهاء من فتنة مدعي النبوة (طليحة) كانت أوامر الخليفة أن يتقدم خالد ابن الوليد بجيشه نحو البطاح لمحاربة مالك بن نويرة وكان النبي ﷺ قد عينه عاملا على صدقات بني حنظلة فلما مات الرسول ﷺ أعفاهم من الزكاة وامتنعوا معه عن دفعها على النحو سالف الذكر .

ولقد أصاب مالك ومن معه الخوف والهلع عندما علموا بهزيمة طليحة وحلفائه وعندما رأى جيش خالد متجها نحو البطاح هرب هو وقومه في الجبال وتحصنوا بها فأمر خالد جنوده بأسر من يجدوه فوقع مالك بن نويرة وبعض أعوانه في الأسر واختلفت روايات رسل خالد في أمر إسلام هؤلاء القوم فمنهم من قال إنهم أذنوا للصلاة فهم مسلمون ومنهم من قال لم يؤذنوا فرأى خالد حبس الأسرى حتى الصباح ليتبين الأمر وكانت ليلة شديدة البرد وطلبوا إشعال نار للأسرى فوافق خالد فنادى المنادي (دافئوا أسراكم) وهذا يعني قتلهم في لغة كنانة وكان الحراس من كنانة فقتلوهم وسبق تفصيل أمر هذه القضية .

والجدير بالذكر أن مالك بن نويرة قد اتخذ موقفا معاديا للإسلام ينتهي به إلى هذا المصير فقد كانت هناك امرأة من بني يربوع جماعة مالك بن نويرة تسمى سجاح بنت الحارث التميمية كانت تعيش مع أخوالها التغلبيين في العراق وكانت تعتنق النصرانية ولما علمت بوفاة النبي ﷺ ادعت النبوة وتحركت ومعها بعض القبائل نحو المدينة لغزوها ولما وصلت إلى بني يربوع من قومها اتبعها بعضهم وكان من بينهم مالك ابن نويرة وعطارد بن حاجب[1] ورجال من زعماء تميم واقنعها مالك بعدم الذهاب إلى المدينة والانضمام إليه لمحاربة المناوئين له من بني تميم وبعد توحيدهم معه يتوجهون إلى المدينة فاستجابت له وقالت (فشأنك بمن رأيت وإنما أنا امرأة من بني يربوع وإن كان مالك فهو ملككم)[2] .

---

(1) دكتور محمد السيد الوكيل . جوله تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص34,33 .
(2) تاريخ الطبري ج3 ص269 .

وبعد معركة بين سجاح ومن معها وبين المخالفين لهم من بني تميم تصالحوا واتجهت إلى المدينة واشتبكت في معركة مع قوس بن خزيمة انتهت بهزيمتها واستسلمت على أن تعود من حيث أتت وألا تتجه نحو المدينة فهداها شيطانها إلى أن توحي لمن معها بهذه الكلمات (عليكم باليمامة دفوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة لا يخلفنكم بعدها ملامة)[1] .

ولما سمع اتباعها هذا السجع السخيف أشاعوا أن هذا وحي من الله وإن كان منهم من تبعها طمعا في جمالها .

ولقد اتجهت معهم إلى اليمامة فراسلها مسيلمة الكذاب وزعم أنه يضمن لها نصف الأرض التي كانت لقريش إذا تصالحت معه وانتهى الأمر إلى أن التقيا للصلح ودخلا معا خيمة أسدل ستارها ولم تخرج منها إلا وهي عروس لمسيلمة وقد بنى بها ثم عادت إلى العراق بعد أن وعدها مسيلمة بنصف خراج اليمامة .

ولا يخفى أن مسيلمة لا يحتاج إلى زواج قال ابن كثير (وقد كان مسيلمة لعنه الله شرع لمن اتبعه أن الأعزب يتزوج فإذا ولد له ذكر فيحرم عليه النساء حينئذ إلا أن يموت ذلك الولد الذكر فتحل له النساء حتى يولد له ذكر)[2] .

2 ـــ *لواء عكرمة بن أبي جهل* :

وعقد أبو بكر لواء لعكرمة بن أبي جهل وأمره بالتوجه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب مدعي النبوة وجعل معه شرحبيل بن حسنة وأمرهما بالتشاور معا لقتاله مجتمعين غير أن عكرمة من شدة حرصه على القضاء على مسيلمة بادر بالاشتباك معه ولم ينتصر فأرسل أبو بكر إليه رسالة كلها لوم وتوبيخ لمخالفته الأوامر كما أرسل رسالة إلى شرحبيل ألا يشتبك مع مسيلمة حتى يصل إليهما خالد بن الوليد حيث أرسل إليه أبو بكر كتابا بذلك ولكن للأسف الشديد أخطأ شرحبيل كخطأ عكرمة

---

(1) المرجع السابق ص272 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج6 ص321 .

واشتبك مع مسيلمة وهزم شرحبيل كعكرمة لمخالفتهما الأوامر وعدم طاعتهما وأيضا لعدم اتفاقهما معا من قبل وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ (الأنفال/ 46) .

كما قال الله تعالى ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم** ﴾ (الأنفال/ 17) .

والتنازع هنا هو رغبة كل منهما في الاستئثار بالنصر ومن ثم خالف أوامر الخليفة والنصر في الإسلام يتنزل إذا فرغت نفوس المؤمنين من حظوظ الدنيا بما فيها الرغبة في أن يكون النصر على أيديهم .

وما إن وصل خالد إلى اليمامة بجيش من البدريين وهم من شهدوا غزوة بدر حتى اشتبك بهذا الجيش مع جنود بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب وكاد المرتدون أن يوقعوا هزيمة بالمسلمين إلا أن صاح خالد صيحته في جنوده لاختيار الجنة ومفارقة الحياة فأحاط جيش المسلمين بجيش المرتدين وهزموهم حتى تحصنوا بحديقة فكانت هذه نهايتهم حيث اقتحمها المسلمون فقتل من المرتدين سبعة آلاف شخص حتى سميت حديقة الموت وكان قد قتل سبعة آلاف أخرى أثناء المعارك وسبعة آلاف ممن كانوا يهربون هنا وهناك بينما قتل من الأنصار نحو أربعمائة شخص ومن المهاجرين نحو ستمائة شخص وكان أكثرهم من حملة القرآن وكان هذا من أسباب اتجاه أبي بكر لجمع القرآن الكريم[1] .

وقيل إنه قد استشهد من المسلمين ما بين سبعمائة إلى ألف ومائتي مسلم[2] .

والجدير بالذكر أن وحشيا قاتل حمزة والذي أسلم قد تتبع مسيلمة الكذاب أثناء المعركة وقتله ليكفر عن جريمته السابقة .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص ٥٦٣ وتاريخ الطبري ج3 ص252 .

(2) فتوح البلدان للبلاذري ج1 ص111 .

وبهزيمة جيش مسيلمة وقتله انتهت فتنة الادعاء بالنبوة وخضعت البلاد التي كانت تنتظر هذه المعركة كاليمن والبحرين وحضرموت وعمان[1] .

3 ـــ لواء المهاجر بن أبي أمية :

عقد الخليفة لواء بقيادة المهاجر بن أبي أمية وأمره وجنوده بمحاربة أتباع الأسود العنسي والذي كان قد ادعى النبوة في آخر أيام النبي ﷺ وقتله أحد المسلمين في ليلة وفاة النبي ﷺ . فتوجه إلى نجران وأمضى مهمته وقضى على الفتنة ثم ذهب بجيشه إلى كندة بحضرموت تنفيذا لأوامر الخليفة فخضع قومها لسلطان الخليفة وانتهت فتنة الردة هناك . حيث كانوا قد استجابوا من قبل للأسود وقد التقى القواد الثلاثة بمأرب ثم فوزامق صهيد واقتحموا حضرموت[2] واستخلف المهاجر بن أمية عكرمة على الجيش ثم سار إلى كندة ودار القتال وهزمت .

4 ـــ لواء خالد بن سعيد بن العاص :

كما عقد الخليفة لواء بقيادة خالد بن سعيد بن العاص وأمره بالتوجه مع جنوده إلى مشارف الشام لإرهاب الطامعين وتأمين الحدود وإظهار قوة الإسلام والمسلمين فأدى هذا الجيش مهمته .

5 ـــ لواء عمرو بن العاص :

كما عقد لواء بقيادة عمرو بن العاص وأمره بالتوجه بجيشه إلى شمال الحجاز وقراءة رسالته على قبائل قضاعة ووديعة والحارث ومحاربة من خالف منهم .

وكان شرحبيل قد أمر بالمقام حتى يأتيه أمر أبي بكر وظل يغير مع عمرو على أهل الردة من قضاعة ، وكان وكيع بن مالك معه جموع يساجل عمرا وعمرو يساجله .

---

(1) الخلفاء الراشدون للدكتور الشيخ أمين عوض الله ص 45 .
(2) تاريخ الطبري ج2 ص544 و 545 و ص522 .

وكانوا فرقتين ، فرقة أطاعت الزبرقان بن بدر فثبتوا على إسلامهم ودافعوا عنه ، وأما المقاعس والبطون فلم يتابعا إلا ما كان من قيس بن عاصم حيث قسم الصدقات التي كانت قد اجتمعت إليه في المقاعس والبطون ولما رأى قيس ما فعلت الرباب وعمرو من تلقي العلاء بن الحضرمي ندم على ما فرط منه وتلقى العلاء بإعداد ما كان قسم من الصدقات ونزع عن أمره الذي كان به وخرج مع العلاء لقتال المرتدين من أهل البحرين[1] .

6 ـــ لواء حذيفة الغلفاني :

لقد ارتد قوم بعمان وعلى رأسهم ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي وادعى لنفسه صفات النبوة وألجأ المسلمين إلى الجبال والبحر فبعثوا إلى الخليفة أبي بكر يستنصرونه فبعث إليهم حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير كما بعث عرفجة بن هرثمة إلى مهرة وأمرهما أن يجتمعا معا ويبتدئا بعمان وأن يجدا في السير متساندين فإذا قربا منها أرسلا إلى المسلمين بها وإلى جيفر وعباد ويعملا برأيهما فالتزما رأي الخليفة وأمره وأرسل لهما شرحبيل بن حسنة بعد أن أمره أن يظل بأدنى اليمامة حتى يأتيه أمر الخليفة وقد أمره أن يحجم عن مسيلمة ويتجه إلى عمان حتى يعين حذيفة وعرفجة في قتال المرتدين بها فإذا انتهت هذه المهمة يذهبون إلى مهرة وأمرهم جميعا أن يستعينوا بعكرمة بن أبي جهل .

وأتى عمان عسكر هؤلاء بمكان يدعى رجاما وأرسلوا إلى جيفر وعباد فخرجا من مكانهما وعسكرا بصحار وطلبا من حذيفة وعرفجة وعكرمة القدوم إليهما في صحار وتقابلت هذه البعثة المؤمنة بجنودها عدو الله (لقيط) وجيشه في دبا وهي سوق عظمى ، فاقتتلوا بها قتالا شديدا ورأى المرتدون أن الظفر لهم لكثرة عددهم وعتادهم فانضم إلى المسلمين قوم من بني ناجية وعلى رأسهم الخريت بن راشد وقوم من عبد القيس وعلى رأسهم سيحان بن صوحاني فقوى الله بهم المسلمين وولى المشركون الأدبار بعد أن قتل منهم عشرة آلاف رجل وتركوا أموالهم وأولادهم .

---

(1) تاريخ الطبرى ج2 ص 544 و ص545 و ص 522 .

وظل حذيفة بعمان حتى تستقر الأمور ، أما عرفجة فرحل إلى الخليفة ومعه خمس الغنائم وكانت ثمانمائة رأس غنم .

7 ـــ *لواء عرفجة بن هرثمة :*

وعقد الخليفة لواء بقيادة عرفجة بن هرثمة ، وأمره أن يتجه إلى مهرة على النحو المبين بالبند السابق حيث أمره أن ينضم إلى عرفجة في حرب المرتدين بعمان ثم يتجها معا إلى مهرة ولكن قد انضم إليهما عكرمة الذي أشار أن يظل حذيفة بعمان .

وقد توجه عكرمة وعرفجة مع الجنود إلى مهرة واستنصروا بأهل عمان ومن حولها واقتحموا بلاد مهرة فوجدوا فيها فريقين متنازعين أحدهما يتزعمه شخص اسمه شخريت وهم قلة فدعاه عكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام لينضم معه ضد خصمه فاستجاب هو ومن معه .

أما الفريق الآخر وهم كثرة فزعيهم المصبح وهو أحد بني محارب النجد وقد انقادت أكثر بلاد مهرة إليه وقد أرسل عكرمة إليه يدعوه إلى الإسلام فاعتز بكثرة اتباعه فنشبت المعركة بين المسلمين ومن انضم إليهم وبين المصبح وأتباعه .

وكانت حامية جدا فكشف الله جنود المرتدين وتم قتل زعيمهم وهزمهم الله هزيمة نكراء وفروا تاركين المتاع والأدوات وظل عكرمة حتى جمعهم على الإسلام وجمع أهل النجد وأهل الساحل وأهل جيروت والعبرات وذات الخيم وبايعوه على الإسلام[1] .

8 ـــ *لواء شرحبيل بن حسنة :*

وعقد الخليفة لواء بقيادة شرحبيل بن حسنة وذلك لقتال مسيلمة الكذاب وذلك بالاشتراك مع عكرمة بن أبي جهل وأمرهما بعدم الانفراد بالرأي وأن يجتمعا على قتال عدو الله ومن معه ولكن عكرمة تعجل وقاتل وحده فهزم فأرسل أبو بكر إلى

---

(1) تاريخ الطبري ج2 ص531 .

شرحبيل ألا يحارب مسيلمة حتى يصل خالد بن الوليد ليكون الجميع تحت قيادته ولكن شرحبيل خالف ذلك وتسرع بالاشتباك مع مسيلمة وجنوده فزاد هذا التفرق من قوة مسيلمة حتى وصل خالد بن الوليد وتوحد الجنود والقادة تحت إمرته فهزموا المرتدين .

وقد كان الأمر الصادر إلى شرحبيل أن يتوجه بعد حرب مسيلمة إلى قضاعة لمساعدة عمرو بن العاص فنفذ ذلك وأغار على أهل الردة من قضاعة حتى استقاموا على أمر الله تعالى .

9 ـــ *لواء طريفة بن حاجز :*

كان الفجاءة إياس بن عبد ياليل قد عاد إلى الإسلام بعد الردة وطلب من أبي بكر سلاحا ورجالا لمحاربة أهل الردة من بني سليم وعامر وهوازن فاستجاب له الخليفة فإذا به يشن الغارة على المسلمين بهذه البلاد فأرسل إليه الخليفة سرية أميرها طريفة بن حاجز وبعث إليه عبد الله بن قيس بعوثا فكانت المعركة مع هذا الخائن الذي ولي هاربا فلحقه طريفة فأسره وأرسله إلى أبي بكر فأمر أن توقد النار في مصلى المدينة وأن يحرق فيها مثلما فعل بالمسلمين فكان ذلك .

وروى الطبري أيضا أنه لما لحق به طريفة قال له أنا أمير أبي بكر مثلك فقال إذًا فلنذهب معا إليه فلما قدم على الخليفة أمر بقتله على النحو السابق .

10 ـــ *لواء القعقاع بن عمرو :*

كانت بنو عامر تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلاهم مع المسلمين ولا هم مع المرتدين انتظارا لما تسفر عنه معارضة أسد وغطفان للخليفة وخروجهم على الإسلام .

وكان فيهم علقمة بن عامر وقد ارتد في زمن النبي ﷺ وذهب إلى الشام ثم عاد عندما علم بوفاة النبي وعسكر في بني عامر وبلغ ذلك الخليفة فبعث إليهم سرية أميرها القعقاع بن عمرو ، فأغار على الماء الذي عليه علقمة وسابقهم على فرسه فسبقهم فأسلم علقمة وأسلم أهله وولده ومن أقام معهم من الرجال .

وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة وقالوا ندخل في الإسلام الذي خرجنا منه فبايعهم على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيئ فيما عدا قرة بن هبيرة ونفرا معه حيث أمر بقتله وأوقفهم مثلما فعلوا بالمسلمين حيث قتلوا فيهم كل قتلة .

وكان هذا هو أمر خالد بن الوليد فكتب إليه أبو بكر (ليزدك ما أنعم الله به عليك خيرا واتق الله في أمرك فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم يخشون)[1] .

وقد اجتمعت فلول غطفان إلى ظفر وبها أم زمل سلمى ابنة مالك بن حذيفة ابن بدر وأمرتهم بالحرب ولجأ إليهم الشاردون من كل جانب من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيئ فلما بلغ ذلك خالد بن الوليد سار إليهم وحدث قتال شديد وكانت تقود المعركة وهي على الجمل وحولها مائة جمل يحمونها فانتهت المعركة بقتلها وقتل مائة رجل ممن حولها وانتهت فتنتهم .

11 ـ لواء العلاء بن الحضرمي :

لقد كان بالبحرين المنذر بن ساوي ومات بعد ممات النبي ﷺ بشهر فارتد بعده أهل البحرين وفيهم عبد القيس وبكر .

وأما قبيلة عبد القيس فقالت لو كان محمد نبيًا لما مات وارتدوا ، وكان فيهم الجارود بن المعلى وكان قد أسلم ومكث بالمدينة مع النبي ﷺ ، فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ثم ارتدوا بوفاة النبي ﷺ فوقف فيهم الجارود وقال لهم :

تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ، قالوا : نعم . قال تعلمونه أم ترونه . قالوا بل نعلمه . قال : فما فعلوا ، قالوا : ماتوا .

قال فإن محمدا ﷺ مات كما ماتوا قالوا نشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك سيدنا وأفضلنا وظلوا على إسلامهم .

---

(1) تاريخ الطبري ج2 ص491 .

وأما قبيلة بكر فظلت على ردتها ، وكذلك ارتدت ربيعة بالبحرين وقالوا نرد الملك إلى آل المنذر فجعلوا المنذر بن النعمان بن المنذر ملكا عليهم .

أمام هذه الردة بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمي إلى البحرين لقتال أهل الردة فاستقبله قيس بن عاصم بالصدقات فأكرمه العلاء وانضم إليه جنود من جنود عمر وسعد بن الرباب فسلك بهم إلى الدهناء فأراهم الله آية حين أمر العلاء الجند بالنزول فنفرت الإبل في جوف الليل فما بقي عندهم بعير ولا زاد حيث فرت بما عليها إلى بطن الصحراء فنادى العلاء أن اجتمعوا وكان الناس قد تفرقوا وأصابهم الهلع واليأس فقال لهم بعد أن تجمعوا على النداء ألستم مسلمين ؟ ألستم في سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟ قالوا بلى . قال فأبشروا والله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم ونادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بهم وظل يدعوا ربه حتى لمع سراب الشمس فالتفت إلى الصف وأقبل على الدعاء حتى لمع لهم ثانٍ وثالث ثم لمع لهم آخر فقال ماء فقام والناس معه نحو هذا السراب حتى نزلوا على الماء وشربوا ، واغتسلوا وما أن ظهر النهار حتى عادت إليهم الإبل من كل جهة فأناخت عند كل رجل .

وأرسل العلاء إلى الجارود وآخر أن ينضما إلى عبد القيس وخرج هو فيمن كان معه من الجنود وتجمع المسلمون كلهم إليه ، كما تجمع المشركون فعسكروا في خندقهم وظلوا كذلك شهرا يتربصون حتى سمع الناس ذات ليلة في معسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء الهزيمة أو القتال فقال العلاء من يأتينا بخبر القوم فقال عبد الله بن حذف أنا أتيكم به وخرج حتى دنا من خندقهم فأخذوه فانتسب لهم لأن أمه كانت منهم . وبعد أن خرج من معسكرهم ذهب إلى معسكر المسلمين وأخبرهم أن القوم سكارى فوثب المسلمون عليهم حتى اقتحموا معسكرهم ووضعوا السيوف فيهم ، واستولى المسلمون على كل ما لديهم في المعسكر ولحق قيس بن عاصم رئيسهم أبجر وكان يركب فرسا أقوى من فرس قيس ولكنه طعنه في العرقوب وقطع العصب وقسم علاء الغنائم وكتب العلاء إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل بلزوم ما هم عليه والتربص بأهل الردة بكل سبيل .

وأرسل إلى المثنى بن حارثة الشيباني وخصفة التميمي ؛ فأقاموا للمرتدين بالطريق

فمنهم من تاب وقبلوا منهم ومنهم من أبى فمنعوهم من الرجوع .

وقام العلاء وندب الناس للتوجه إلى دارين وبينها وبين ساحل البحر مسيرة يوم وليلة بالسفن واجتازوا الخليج وهم يلحون على الله بالدعاء واقتتلوا قتالا شديدا وهزموا المشركين وسبوا الذراري منهم وساقوا الأموال وأعلن العلاء أن من أحب المقام في البحرين فله ذلك ومن أحب العودة فلا بأس وكتب إلى أبي بكر أن الله فجر لنا الدهناء وأرانا آية وعبرة بعد غم وكرب ، لنحمد الله ونمجده[1] .

* * *

(1) تاريخ الطبري جـ 2 ص524 - 528 .

فتح بلاد الفرس

الأسباب والنتائج :

إنه بعد إتمام صلح الحديبية في سنة ست من الهجرة أمن النبي ﷺ جانب قريش وتفرغ لدعوة الإسلام العالمية فأرسل رسلا وكتبا إلى رؤساء الدول وملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام . فأرسل كتابا إلى قيصر ملك الروم حمله دحية الكلبي .

كما أرسل كتابا إلى كسرى بن هرمز عظيم الفرس وملكهم حمله إليه عبد الله بن حذافة السهمي حيث كان له معرفة بهم ويتردد على كسرى كثيرا .

ولقد تضمن الكتاب دعوته وقومه من المجوس إلى الإسلام فإن أبى فعليه إثم المجوس ولكن غرور كسرى وعظمة ملكه ودولته دفعه إلى أن يمزق الكتاب فقال النبي ﷺ مزق الله ملكه .

ولقد تمادى كسرى فكلف أميره باليمن يقال له باذان أن يبعث رجلين من عنده إلى البلاد التي تسمى الحجاز ليلقي القبض على هذا الرجل الذي تجرأ وأرسل هذه الرسالة إلى كسرى ، فأرسل باذان كاتبا من عنده ومعه رجل من الفرس وأرسل معهما رسالة إلى رسول الله ﷺ يأمره أن يحضر معهما ليرسله إلى كسرى فلما وصل الرجلان إلى الطائف فرح الكفار بهما واستبشروا لأن كسرى ملك الملوك سيكفيهم محمدا ﷺ وأخبر أهل الطائف الرجلين عن المدينة حيث يوجد بها الرسول ﷺ .

وعند وصولهما إلى النبي ﷺ قال له الكاتب واسمه (بابويه) إن أطعت كتبنا إلى ملك الملوك كتابا ينفعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من تعلم من القوة والملك

سيهلكك ويهلك قومك ويخرب بلادك . فنظر النبي ﷺ إلى الرجلين وقد حلقا اللحية وكان لهما شوارب كبيرة فقال النبي ﷺ من أمركما بهذا ؟ يعني حلق اللحية وتوفير الشوارب هكذا . ولم يجبهما على المهمة التي أرسلا من أجلها احتقارا لها ، فقالا ربنا أمرنا بهذا أي كسرى . فقال الرسول ﷺ لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي . وعن مهمتهما قال لهما ارجعا حتى تأتياني غدا حيث ينتظر الخبر من الله . وفي الغد أخبرهما أن الله قد أعلمه أنه سبحانه وتعالى قد سلط على كسرى ابنه شيراويه فقتله وحدد لهما الشهر والليلة والساعة وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من شهر جمادى الأولى سنة سبع للهجرة بعد ست ساعات من الليل[1] .

فقالا هل تدري ما تقول ؟ أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ يقصدان باذان ملك اليمن من قبل كسرى . قال النبي ﷺ نعم أخبراه ذلك عني وقولا له (أسلم فإن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك) فلما قدما اليمن وأخبرا باذان بذلك قال : والله ما هذا بكلام ملك، فلننتظر ما قد قال ، فلإن كان هذا حقا فإنه لنبي مرسل وإن لم يكن فنرى فيه رأينا[2] .

ولما وصل البريد إلى ملك اليمن من ملك الفرس وجد فيه كتابا من شيراويه بن كسرى يقول فيه : « إني قد قتلت كسرى و لم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذلي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه » .

فلما قرأ باذان الكتاب قال إن هذا الرجل لرسول من عند الله فأسلم وأسلم معه الأبناء من فارس ممن كان معه باليمن وقد ولاه النبي ﷺ على اليمن وكانت عاصمتها صنعاء وظل كذلك حتى مات فولى النبي ﷺ (شهر) على صنعاء ثم ولى عددا من الصحابة كلا منهم على مخلاف من اليمن[3] .

---

(1) الاصطفا في سيرة المصطفى ﷺ . محمد الخبار ج3 ص30 .
(٢) الكامل لابن الأثير ج2 ص146 .
(٣) المرجع السابق والاصطفا للخباز ج3 ص31 .

وأما شيراويه ملك الفرس فإنه قد قتل جميع إخوته فيما عدا (جوان شير) حيث كان طفلا فلما مات هذا الطفل تولت (بوران) بنت كسرى الملك وقال النبي ﷺ (لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) . رواه البخاري في صحيحه .

وفي خلافة أبي بكر الصديق كان المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي ينزلان مع جمع من العرب في أرض العجم (الفرس) فكتب المثنى إلى الخليفة يخبره بحال الفرس ويسأله أن يمده بجيش ليؤثر في فارس . وكان خالد بن الوليد قد انتهى من مهمته في بني حنيفة فأمره الخليفة أن يتجه إلى ثغر الهند لفتح بلاد فارس كما ندب عياض بن غنم ليغزو فارس من الشمال ويبدأ بشمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل المرتدين وألا يستعين بمرتد وقد طلبا مددًا من الخليفة فأرسل إلى خالد القعقاع بن عمرو التيمي فلما قيل له أتمده برجل واحد قال لا يغلب جيش فيه مثل هذا .

وأمد عياضً بعبد يغوث الحميري .

كتاب خالد إلى هرمز :

وقد أرسل خالد بن الوليد وهو باليمامة إنذارا إلى صاحب ثغر الهند وهي المنطقة التي سيبدأ بغزوها وكان اسمه هرمز وقد جاء في الإنذار (أسلم تسلم أو اعقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك وقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

ولقد أرسل هرمز بهذا الكتاب والإنذار إلى أزدشير ملك الفرس فجمع الجنود جهة مكان تجمع المسلمين وكان خالد بن الوليد قد وزع جنده إلى ثلاث فرق كل فرقة تتجه إلى طريق وكانت الفرق برئاسة كل من المثنى بن حارثة وعدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ، فلما علم خالد بخطة ملك الفرس غير خطته وأمر بالتجمع في كاظمة فتحول هرمز إليها وكان أشد الناس دهاءً وخبثا وكان أسوأ الناس جوارا للعرب وكان جنوده قد قيدوا أنفسهم في السلاسل كدليل على تفانيهم في القتال وجعلوا الماء بين أيديهم واضطر خالد أن ينزل إلى مكان بغير ماء وقال لجنوده حطوا

أثقالكم ثم أغيروا على الماء وسيصبح لأصبر الفريقين وأكرم الجندين وكان هرمز قد اتفق مع أصحابه على أن يغدروا بخالد بن الوليد عندما يطلب مبارزته فلما تلاقيا للمبارزة صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لتنفيذ خطتهم وإنقاذ ملكهم ولكن خالدا قتله وسارع القعقاع بن عمرو إلى أصحاب هرمز فهزموهم .

ثم رحل خالد بجيشه حتى نزل قريبا من موضع البصرة وقد أمد كسرى هرمز بجيش كبير لينضم إلى جيوشهم وعسكروا جميعا فأرسل المثنى بن حارثة إلى خالد يخبره بذلك فبعث خالد رسالة إلى أبي بكر مع الوليد بن عقبة واشتبك خالد مع جيش الفرس وبدأت الحرب بالمبارزة فقتل أخوان من ذرية (أزدشير) واشتد القتال حتى هزم الفرس فعلم كسرى بذلك في المدائن فجهز جيشا وزعه تحت إمرة ثلاثة قواد لتحاصر جيوش المسلمين من ثلاث جهات فعلم خالد بذلك فأمر جيشه بالرحيل وخلف على الفرس حامية تحمي ظهر الجيش وتحفظ له خط الرجعة ونظم الهجوم على الفرس من ثلاث جهات جعل جهتين منهما كمينا واشتد القتال و لم يشعر القوم إلا بالكمين قد أحاطهم من جانبين فانهزمت جيوش الفرس .

وكانت هذه الوقائع في شهر صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة وقد بلغ جيش خالد ثمانية عشر ألفا وكان يوصي خيرا بالفلاحين والتجار وأهل الأعمال ولا يتصدى إلا للمحاربين ومن معهم من أهليهم وذلك تنفيذا لأوامر الخليفة أبي بكر[1] .

وقد اصيب في هذه المعركة كثير من نصارى بكر بن وائل حيث كاتبوا الفرس ليكونوا عونا لهم على العرب المسلمين واجتمعوا مع الفرس في أُليس فهزمهم خالد وكانت جموعهم كثيرة كما هزم جنود مفيشيا وكانت مدينة كالحيرة .

خالد ومرزبان الحيرة :

كان لأقاليم الفرس رؤساء كل رئيس منهم يسمى مرزبان فلما علم مرزبان الحيرة بانتصارات خالد بن الوليد في الأقاليم الأخرى استعد للحرب وجعل جنوده خارج

---

(1) الخلفاء الراشدون . عبد الوهاب النجار ص77 .

الحيرة وقدم ابنه أمامهم بجيش ليقوم بسد نهر الفرات حيث كان خالد بن الوليد قد أركب الجنود في السفن مع الغنائم والأثقال فلما أغلق النهر وتحول مجراه جنحت السفن فأصاب المسلمين خوف وقلق وعلموا من ملاحي السفن أن الفرس قد فجروا الأنهار وتحول الماء إلى طرق أخرى ولن يعود الماء إلى نهر الفرات إلا بسد الأنهار الأخرى فحاصر خالد ابن مرزبان الحيرة في فم الفرات وهزمه ومن معه وسد الأنهار فعادت المياه إلى طريقها الطبيعي وتوجه نحو الحيرة ونزل بين النجف والخرنق وكان مرزبان الحيرة قد عسكر في جهة القصر الأبيض وأصابه الحزن لقتل ابنه وموت الملك أزدشير وألم به الرعب فعبر نهر الفرات وهرب من المعركة واشتبك خالد مع جنود رئيس الحيرة وكانوا متحصنين في قصور كثيرة يصعب اقتحامها وإذا نجح الاقتحام سيؤدي إلى قتل أكبر عدد من جنود الحيرة فأرسل خالد إلى قواده أن يعلنوا هؤلاء القوم برسالة الإسلام في الجهاد وهي أن يختار هؤلاء الأعداء بين الإسلام فيكون لهم جميع حقوق المسلمين فإن رفضوا يؤجلوهم ويطلبوا منهم قبول الجزية منعا من الحرب فإن أبوا يكونون قد اختاروا الحرب ففعل أمراء الجنود ذلك ولكن قادة الفرس اختاروا الحرب وصوبوا أهدافهم حول مرمى المسلمين فرشقهم المسلمون بالنبل وأغاروا عليهم وفتحوا الدور والقصور فقبلوا الجزية وقدموا الهدايا لقادة المسلمين وإلى الخليفة أبو بكر فقبل أبو بكر الهدايا بشرط أن تخصم من الجزية التي ارتضوها وكتب إلى خالد أن يحسب لهم قيمة الهدايا من الجزية فأبرم خالد معاهدة معهم بذلك وأن تكون الجزية مقابل حمايتهم من أي عدوان داخلي أو خارجي على بلادهم فإن لم يمنعهم من ذلك فلا شيء عليهم وكتب هذا في شهر ربيع الأول سنة اثنى عشر من الهجرة .

كما صالح خالد بن الوليد الرؤساء والملوك الآخرين في بلاد فارس على ما صالح عليه أهل الحيرة . ولما استقر الأمر للمسلمين في بلاد الفرس أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يتجه إلى العراق لمساندة عياض بن غنم الذي كلفه الخليفة بفتح شمال العراق فسار خالد بجنوده حتى وصل إلى الأنبار .

الفتوحات في بلاد الروم

الأسباب والنتائج :

في بداية القرن السابع الميلادي احتدم الصراع بين الدولتين اللتين كانتا تحكمان العالم آن ذاك وهما دولة الفرس ودولة الروم وهذا الصراع أدى إلى حروب بسبب أطماع ملوك الفرس ويسمون الأكاسرة وذلك في مقابل الاضطراب المتفشي في دولة الروم وقد نشبت الحرب في عصر النبي ﷺ قبل أن يتولى هرقل رئاسة الروم فدخلت جيوش الفرس بلاد الروم ووصلت إلى مشارف القسطنطينية كما واصلت قوات فارسية أخرى زحفها إلى أرجاء الشام .

ولقد نزل في ذلك قول الله تعالى في أول سورة الروم ﴿ **أ لم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله** ﴾ .

وعلى الرغم من هزيمة الروم أمام الفرس ومن ضعف الروم بسبب المؤامرات وحوادث القتل والنهب وبسبب ملكية البطارقة وهم قواد الجيش للأرض ومن عليها من البشر وما عليها من الجماد والحيوان وهو ما سمي في التاريخ بالنظام الإقطاعي ، إلا أن ما أخبر به القرآن الكريم عن انتصار الروم بعد هزيمتهم قد تحقق فبعد أن تولى الإمبراطور هرقل عرش الروم سنة 610 قام بتطهير الجيوش وإعدادها لمواجهة الفرس في جبهتين فبعث جيشا إلى أرمينية وجعل نفسه قائدا عاما لجيوش الميدان الثاني في أرض الشام وزحف (كسرى برويز) بجنده إلى سوريا وفتحها واستولى على إنطاكية ومدن أخرى من سوريا وفلسطين وشجع الجند على نهب أورشاليم حتى حرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة ثم استولى الفرس على مصر وهاجموا القسطنطينية

ولكن موقعها الجغرافي المنيع حال دون سقوطها في أيديهم .

ولقد تحمس الروم للدفاع عن بلادهم وعن كيانهم وتحالفت الكنيسة مع الإمبراطور فقدمت له كل ما لديها من ذهب وفضة وظل هرقل ثلاث سنين يعد الجيوش حتى دخل بلاد الفرس فسحب برويز جنده ليدافع عن عاصمة الملك وبلغت جنود الروم الزحف حتى بلدة (نينوي) عاصمة الآشوريين القديمة وهي من مدن العراق حاليا وانتصر هرقل على الفرس سنة 628 وعادت للدولة الرومانية هيبتها .

لقد كان انتصار العرب على الروم في وقت كانت دولة الروم قد استعادت قوتها فكل عشرة آلاف جندي كان لهم قائد يسمى بطريقا وهو أحد أشراف روما ونبلائها ويعمل تحت يد البطريق ضابطان يتولى كل منهما قيادة خمسة آلاف جندي وكان يسمى طومارخان وتحت يد كل طومارخان خمسة ضباط يقود كل منهم ألف جندي وتحت كل ضابط من الخمسة خمسة آخرون يتولى كل واحد منهم قيادة مائتي جندي كما كان يوجد تحت كل ضابط ضباط صف يقود كل واحد منهم عشرة جنود[1] .

و لم يكن انتصار العرب على الروم والفرس بسبب وحدة العرب أو العقيدة القومية بل كان الانتصار للعقيدة الإسلامية التي غرسها النبي ﷺ في نفوس اتباعه .

وترجع خطة الفتح الإسلامي إلى عصر النبوة فهو الذي أرسل الرسائل والكتب إلى الرؤساء والملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وعلى ضوء مواقف هؤلاء من رسله إليهم كانت خطته والتي نفذها الخلفاء من بعده .

فعلى سبيل المثال أرسل إلى أمير الغساسنة في بصرى يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام فقتلوا رسول النبي ﷺ فأرسل إليهم في السنة الثامنة للهجرة 629 ميلادية زيد بن حارثة الكلبي على رأس جيش قوته ثلاثة آلاف رجل وعند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء التقى المسلمون بقوة الروم فاستشهد منهم من استشهد وكان على رأسهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وأصبح

---

(1) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب ص22 .

الجيش بغير قيادة فأمَّر خالد بن الوليد نفسه وحمل الراية وقاد الجيش في خطة للانسحاب حتى يعيد صفوف الجيش ليواجه التنظيم المحكم لجيش الروم .

ولهذا عندما عاد الجيش إلى المدينة وقابله الصبية بصيحات يا فرار[1] كان رد النبي ﷺ بل كرار انحازوا إليَّ وأنا فئتهم وذلك في توضيح منه لقول الله تعالى ﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزًا إلى فئة** ﴾ (سورة الأنفال / 16) .

وفي العام التالي السنة التاسعة للهجرة سنة 630 ميلادية قاد النبي ﷺ حملته إلى الروم وهي غزوة تبوك وعاد بعد أن فرض هيبة الدولة الإسلامية .

وفي السنة الحادية عشرة سنة 632 ميلادية أعد النبي ﷺ جيشا بقيادة أسامة بن زيد لمواجهة الروم وتوفي النبي قبل تحرك الجيش فأخذ خلفاؤه هذه الخطة وذلك بدءا بالخليفة الأول أبي بكر[2] .

* * *

---

(1) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص 400 .

(2) قادة فتح الشام ومصر . اللواء الركن محمود شيت خطاب ص26 .

غـــزو الـــروم

لقد جمعت الروم جموعا كثيرة في السنة التاسعة للهجرة لغزو النبي ﷺ بالمدينة وقد استعد ملكهم الإمبراطور هرقل وزود الجيش بمئونة عام وضمت قواته إليها قبائل العرب المتاخمة للروم مثل لخم وجذام وغسان وعاملة وقدموا إل البلقاء وهي من أعمال دمشق .

وقد وصل إلى النبي ﷺ خبر أن هرقل عسكر في قاعدة لهم بحمص[1] .

لهذا بعث النبي ﷺ إلى مكة وغيرها يستنفر المسلمين للانضمام إليه في غزوة إلى تبوك وهي بين وادي القرى والشام وتبعد عن المدينة سبعمائة وستة وثمانين كيلو مترا وهي حاليا من بلاد المملكة العربية السعودية .

هذه الغزوة هي آخر غزواته ﷺ وكانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة (سبتمبر ــ أكتوبر سنة 630 ميلادية) .

وكانت في شدة الحر وشدة القحط ولذلك سميت بغزوة العسرة وحث النبي الأغنياء للتبرع لهذه المعركة ، ولقد كان أول المتبرعين للجيش الإسلامي أبا بكر الصديق فقد تبرع بجميع أمواله فدفع أربعين ألف درهم فقال له النبي ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئا ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وتبرع عثمان بن عفان بعشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير محملة بالزاد وخمسين فرسا ، كما تبرع آخرون .

---

(1) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين . محمد الخضري ص210 ومحمد رسول الله ــ محمد رضا ص457 والاصطفا في سيرة المصطفي ، محمد نبهان الخباز جـ 3 ص 142 - 146 .

وتحرك الجيش حتى وصل إلى الحجر وبها أطلال منازل ثمود في الصخور فاستراحوا بها وأمرهم النبي ﷺ ألا يشربوا من مياهها شيئا ولا يتوضئوا منها للصلاة ولا يخرجن أحد هذه الليلة من المعسكر ، فخالف اثنان وخرجا فحملت الريح أحدهما إلى مكان مجهول وغطت الرمال الآخر ففزع الجنود عندما تيقنوا من ذلك وشاهدوا الريح العاتية وخافوا من شدة الظمأ وطول المسافة لما بقي من الطريق ، فأرسل الله سحابة أمطرتهم من رحمة الله فاطمأنوا وشربوا وأخذوا من الماء ما يستطيعون ، ولما وصل النبي ﷺ تبوك عرف أن الروم قد انسحبوا لما علموا بقدوم الجيش الإسلامي وخافوا مواجهته فآثر النبي ﷺ البقاء عند الحدود يقاوم من سولت له نفسه الاعتداء أو المواجهة ويؤمن الحدود ويفرض سلطان الدولة الإسلامية ولم يتتبع جيش الروم .

وقد وجه النبي ﷺ رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على هذه الحدود وهو يوحنا ابن رؤبة ، ليذعن ويصالح المسلمين فأقبل على النبي ﷺ ببعض الهدايا وأعلن الموادعة وتصالح على دفع الجزية عن بلاده إيلة فقبل منه النبي ﷺ ثلاثمائة دينار سنويا وأهداه رداء من نسج اليمن .

موقف أبي بكر من الروم :

عندما شاع ارتداد القبائل العربية عن الإسلام ودخولهم في حرب مع خليفة النبي ﷺ ناصر الروم هذه القبائل ودعموا المرتدين ، فعزم أبو بكر على قتال الطرفين معا فبدأ بالقبائل المرتدة وما إن انتهت حروب الردة حتى أمر خالد بن سعيد بن العاص العائد من اليمن ، أن يتجه إلى تيماء وأن يضم إليه من لم يرتد من قبل وألا يبدأ أحدا بقتال حتى تصله أوامر القيادة .

ولقد اجتمعت جموع كثيرة إلى خالد بن سعيد فجمع الروم العرب الذين بالشام وهم قبائل كلب وتنوخ ولخم وجذام وغسان فطلب خالد بن سعيد المدد من أبي بكر فأمره ألا يقتحم حتى لا يناله العدو من الخلف فحدث قتال وأرسل أبو بكر الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وانتصروا على ماهان قرب القدس فانتقل إلى دمشق وجاءته جنود كثيرة من الروم فتراجع خالد بن سعيد بجنوده إلى ذي المروة

وعمل عكرمة على حماية المتراجعين ثم وصل المجاهدون من اليمن في بداية السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

ولما علم الخليفة أبو بكر بتراجع خالد بن سعيد إلى ذي المروة وهي بمنطقة وادي القرى أمره أن يظل في مكانه ووضع الخليفة أبو بكر خطة للحرب في بلاد الشام على النحو التالي :

(1) يعزل خالد بن سعيد ويتولى مكانه يزيد بن أبي سفيان وتكون وجهته دمشق ويكون في جنده أخيه معاوية وسهيل بن عمرو .

(2) عمرو بن العاص ويختص بمنطقة فلسطين .

(3) شرحبيل بن حسنة ويتجه إلى الأردن .

(4) أبو عبيدة بن الجراح ويتجه إلى حمص .

(5) يظل عكرمة بن أبي جهل أميرا على ستة آلاف من الجنود لمساندة الجيوش الأربعة سالفة الذكر .

تحرك هرقل ملك الروم وانتقل إلى حمص بجنود كثيرة وأرسل قواده بجنود أخرى لمحاصرة الجيوش الإسلامية الخمسة .

وكان عدد جنود الروم نحو ربع مليون مقاتل بينما كان عدد المسلمين سبعة وعشرين ألف مجاهد .

معركة اليرموك :

تشاور قادة الجيوش الإسلامية مع عمرو بن العاص لمواجهة جيوش الروم كثيرة العدد والعتاد فاقترح أن يتجمعوا في مكان واحد فلن يهزموا من قلة وأن يطلبوا المدد من الخليفة وأن يكون مكان المعركة في موقع ييسر وصول الرسائل من الخليفة إليهم فاختاروا اليرموك وكتب الخليفة إلى خالد بن الوليد بالعراق أن يذهب إلى اليرموك لدعم المسلمين وأن يكون هو الأمير وما إن وصل خالد بن الوليد إلى اليرموك بجنده الذين قدموا معه من العراق ورأى الروم مجتمعين على هذا النحو حتى جمع المسلمين وخطب فيهم وقال إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، اخلصوا

جهادكم وأريدوا الله بعملكم .... ثم قال إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا فإن هؤلاء تهيئوا إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، هلموا نتشاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني عليكم اليوم .

وقسم خالد بن الوليد الجيوش الإسلامية إلى مجموعات بلغت نحو ست وثلاثين مجموعة كل مجموعة من ألف مجاهد وجعل أبو عبيدة في القلب وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة .

وعين أمراء المجموعات من القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وعبد الرحمن ابن خالد بن الوليد وحبيب بن مسلمة وصفوان بن أمية وسعيد بن خالد بن العاص وخالد بن سعيد بن العاص وعبد الله بن قيس ومعاوية بن أبي حديج والزبير بن العوام وضرار بن الأزور .

وكان قائد الجيوش أبو الدرداء (عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري) وكان القاص هو أبو سفيان بن حرب أي يتولى التوجيه المعنوي وكان يقاتل من قبل تحت راية ابنه يزيد وقد فقد عينه الأولى في حنين والثانية في اليرموك أثناء جهاده مع المسلمين حيث أسلم في فتح مكة .

ونشب القتال فنادى أبو سفيان إنهم أنصار الشرك وأنتم أنصار الإسلام اللهم هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك ثم ذهب إلى النساء فوعظهن وحمسهن وعاد إلى الجنود ونادى هذا رسول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم[1] .

وأمر خالد بالهجوم فنشبت المعركة حامية الوطيس وبينما هم على هذا الحال من الحماس وطلب نعيم الجنة وحب الموت في سبيل الله إذا بحامل البريد من المدينة يشق

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص 9 .

الصفوف ويسأل عن خالد بن الوليد ويسلمه رسالة فإذا بها خبر وفاة أبي بكر وأمر الخليفة عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد وإسناد القيادة إلى أبي عبيدة بن الجراح .

فاتفق خالد مع حامل البريد أن يخفي أمر وفاة أبي بكر عن الجنود وشكره أن لم يخبرهم بذلك واخفى الكتاب حتى لا يجزع الجنود والجدير بالذكر أن أبا بكر كان قد ولى أبو عبيدة القيادة العامة في فتوحات الشام ولكنه طلب إعفاءه من ذلك فلم يقبل الخليفة ولما اجتمعت الجيوش في اليرموك في حرب الروم أسند أبو بكر القيادة إلى خالد بن الوليد[1] بدلا من أبي عبيدة ثم جاء عمر بن الخطاب وأعاده إلى منصب القيادة وجعل خالد بن الوليد قائدا عل حمص في موضع أبي عبيدة سابقا .

خالد وقيادة المعركة :

وقف أحد قواد الروم وهو جرجة ونادى ليخرج إلينا خالد بن الوليد فخرج للقاء به بين صفوف الجنود وأناب عنه أبا عبيدة بن الجراح وبعد عدة أسئلة من القائد الرومي والجواب عليها من خالد أعلن جرجة إسلامه وسأل عن سبب تسمية خالد بسيف الله فأجابه خالد أن الرسول ﷺ هو الذي اختار له هذه التسمية .

ولقد ظل خالد يدير المعركة رغم عزله حتى لا يضعف المسلمون وواجه ميسرة الروم حيث كانوا يحملون على ميمنة المسلمين فقتل منهم ستة آلاف وصاح في المسلمين والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر إلا ما رأيتم ثم اعترض صفوف الروم بمئة فارس مخترقا مئة ألف منهم فاضطربت جموعهم وحمل عليهم المسلمون وولوا هاربين حتى قال ابن كثير لم تر في يوم اليرموك إلا مخا ساقطا ومعصما نادرا ، وكفا طائرا[2] .

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ص116 وفتوح الشام للواقدي ج1 ص14 والكامل لابن الأثير ج2 ص155 وطبقات بن سعد ج7 ص397 .

(2) ابن كثير ج7 ص12 .

وصلى المسلمون إيماء بأبصارهم فقط واستشهد القائد الرومي جرجة ودخل خالد ابن الوليد في وسط جنود الروم مرة أخرى فألقى ذلك الرعب والذعر فيهم وفر الفرسان بالخيل هاربين وجاهد نساء المسلمين في هذه المعركة وقاتلن وقتل عدد منهن كما قتلن عددا من جنود الروم وكن يضربن من ينهزم من المسلمين[1] .

وفر المنهزمون من الروم حتى وصلوا دمشق وكان ملكهم هرقل في حمص فتركها إلى غير رجعة .

ثم واصل الجيش الإسلامي السير إلى الأردن لتتبع ما بقي من جنود الروم ثم واصلوا السير إلى دمشق وحاصروا فلول الروم هناك وترك الروم معسكراتهم بما فيها من العتاد والنقود وكانت المعركة الفاصلة في اليرموك في شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وبعد انتهاء المعركة أخرج خالد كتاب الخليفة عمر وقرأه على الجنود حيث تضمن نعي أبي بكر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة ثم قال خالد الحمد لله فقد كان أبو بكر أحب إليَّ من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وألزمني حبه وكان أبغض إليَّ من أبي بكر[2] .

وفاة أبي بكر :

لا خلاف في الشهر الذي توفى الله فيه أبا بكر وهو شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، إنما وقع الخلاف في يوم الوفاة حيث يذكر المؤرخون إنه في يوم الاثنين السابع من جمادى الآخرة مرض على أثر اغتساله في يوم شديد البرد وظل مريضا خمسة عشر يوما وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ويرى المحققون أن الوفاة في منتصف جمادى الآخرة[3]، لأن معركة اليرموك انتهت في جمادى الآخرة والبريد يصل من المدينة إلى الشام في عشرة أيام

---

(1) ابن كثير ج7 ص 13 ، والكامل لابن الأثير جـ 2 ص 414 .
(2) ابن كثير جـ7 ص 14 .
(3) دكتور محمد السيد الوكيل . جولة تاريخية ص71 ,72 .

فلو كانت الوفاة في أواخر جمادى الآخرة لتحتم أن تكون نهاية معركة اليرموك في رجب ولذلك فالصحيح ما ذكره الطبري في قوله مرض أبو بكر رحمه الله في جمادى الأولى وتوفي للنصف من جمادى الآخرة قبل الفتح بعشرة أيام[1] .

والجدير بالذكر أنه عندما شعر أبو بكر أن هذا المرض هو مرض الموت رد إلى بيت مال المسلمين كل ما عنده ولم يترك لأهله شيئا حتى البعير الذي كان يسقي عليه الماء والمحلب الذي يحلب فيه اللبن والعبادة التي كان يستقبل بها الوفود والعبد الذي كان يخدم أطفاله .

ولما شاهد ذلك عمر بن الخطاب غلب عليه البكاء وقال يرحم الله أبا بكر لقد أتعب كل من يجيئون من بعده .

وقال عبد الرحمن بن عوف : تسلب عيال أبي بكر عبدا وبعيرا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم وطلب من عمر أن يرد ذلك على عياله وقال عمر لم يكن أبو بكر ليخرجك ذلك عند الموت وأردها أنا على عياله ولكن البستان الذي أوصى برده إلى بيت المال وكان من نصيبه في فيء بني النضير فأنا الإمام وولي الأمر فأرفض أن نأخذ البستان وأرده على عياله .

أما علي رضي الله عنه قال : رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلامًا ، وأخلصهم إيمانًا ، وأشدهم يقينًا ، وأعظمهم غناءً ، وأحفظهم على رسول الله ﷺ ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خلقًا وخُلقًا وهديًا وسمتًا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيرًا ، صدقت رسول الله حين كذب الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله في كتابه صديقًا ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾ يريد محمدًا

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص394 .

ويريدك ، وكنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا ، لم تقلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ـــ كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا في بدنك قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك عظيما عند الله ، جليلا في الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك[1] .

* * *

(1) الدكتور موسى الموسوي الشيعة والتصحيح ص47 .

الفصل الرابع

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

- نشأته وإسلامه
- مواقف عمر بعد إسلامه
- مبايعته بالخلافة وتكييفها
- سياسته الداخلية
- الفتوحات في بلاد الروم
- الفتوحات في بلاد الفرس
- خالد والأمراء بين الخليفتين
- مؤامرة قتل عمر
- موقف الخليفة والصحابة من المؤامرة

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

نشـــأته :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رباح بن عبد الله بن رزاح بن عدي بن كعب ، وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب النبي ﷺ وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء ، وإنما سمي الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل وكنيته أبو حفص وهو أول من سمي بأمير المؤمنين ، وكان أول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة ، وأول من دعا بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعري (وأبو موسى أول من كتب إليه : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبي موسى الأشعري) فلما قرئ ذلك على عمر قال : (إني لعبد الله وإني لعمر[1] وإني لأمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين) .

كان عمر في صغره يرعى الغنم لأبيه ولخالات له حسبما روى ابن عساكر في سنده وذكر أنه كان يرعى الغنم أحيانا ويحتطب أحيانا .

كما روى ابن عساكر أن عمر اشتغل بالتجارة في ماله وأنه كان يذهب أحيانا إلى الشام .

ولم يكن عمر صاحب مال وفير بل كان ماله قليلا وظل يعمل في التجارة في الجاهلية وفي الإسلام حتى تولى الخلافة فتفرغ لها وأصبح راتبه من بيت مال المسلمين ، وكان متواضعا ، خشن الملبس[2] شديدا في ذات الله واتبعه عماله

(1) مروج الذهب للمسعودي ص 313 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص139 .
(2) تاريخ الطبري ج5 ص17 .

في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كل يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم (وغيره) ويستمال بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها ، وكان أكثر ركابه الإبل ورحله مشدودة بالليف وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال ، فكانوا يلتزمون بسياسته وأخلاقه وكان يلزمهم بذلك .

وقد ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة وهو من أسرة محافظة صالحة ، حيث يجتمع نسبه مع الرسول في الجد السابع (كعب بن لؤي) ومن جهة أمه يجتمع معه في الجد السادس (مرة بن كعب) وقبيلة بني عدي بن كعب التي ينتسب إليها عمر كانت تتولى أعمال السفارة لقريش وهي وظيفة أنشأها قصي بن كلاب وكان عمر قبل الإسلام آخر سفير لقريش .

إسلام عمر :

لقد ورث عمر عن أبيه الغلظة والقسوة وعن خاله عمرو بن هشام (أبي جهل) العداء للإسلام ولذلك عندما آمنت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وهو ابن عمه حمل عليهما حملة شعواء وقسا عليهما قسوة شديدة ، أما كيف علم بذلك فيرجع إلى أن رسول الله ﷺ كان يجمع المسلمين الاثنين والثلاثة والأربعة منهم في بيت من البيوت ويرسل إليهم من يعلمهم مبادئ الإسلام ويقرئهم القرآن ، وكان من جملة هذه الأسر ، أسرة ضمت سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب ، ونعيم ابن عبد الله النحام رجل من قوم عمر ، وكان خبَّاب بن الأرت يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام[1] .

---

(1) التاريخ الإسلامي . محمود شاكر ج3 ص112 - 116 . المكتب الإسلامي .

وخباب بن الأرت : رجل ينتسب إلى تميم ، وقع في السبي فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية ، وأعتقته ، فكان لذلك خزاعيا بالولاء ، وكان أبوها حليفا لبني زهرة ، لذا نشأ زهريا بالحلف ، كان من أوائل الذين أسلموا ، وتفقه في الدين ، وتولى تعليم غيره ، حضر المشاهد كلها . توفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد أن شهد مع علي صفين والنهروان .

وشعر عمر بن الخطاب بالغضب الشديد ، والأسى الكبير ، عندما لاحظ تفرق كلمة قريش بين مسلمها وكافرها ، بعد أن وقف وجهاء قريش في وجه الدعوة ، وحاولوا منعها . وبينما كان مرة في البيت إذ ذكروا له أن محمدا ﷺ يجتمع مع رهط من أصحابه الذين لم يهاجروا إلى الحبشة أمثال حمزة بن عبد المطلب ، وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ، وذلك في بيت عند الصفا فاشتد غضبه ، فتوشح سيفه نحوهم ، يريد إنهاء هذه المشكلة ، ويقضي على ما حل في قريش من تفرقة ، وانطلق يبدو على وجهه الغضب ، والتقى بالطريق مع نُعيم بن عبد الله وهو رجل من قومه ، ومن الأسرة المسلمة التي يلتقي فيها سعيد بن زيد ابن عم عمر وزوجه فاطمة أخت عمر .... وسأل نعيم عمر إلى أين يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما ، قال نعيم ذلك خوفا من انطلاقه إلى رسول الله ﷺ ، فلربما حدث ما يكره ، ففضل أن ينال سعيد وزوجه فاطمة بعض الأذى وينجو محمد ﷺ . ولم يقل ذلك كراهية بالإسلام .

إنه مع شدة عمر وجلافة طبعه كان رقيقا طيب القلب ، إذا لم توجه إليه كلمات تغضبه أو إذا لم تكن إثارة مباشرة له . فمع ما عرف من عناده للإسلام في جاهليته وشدة إيذائه للمؤمنين فإن قلبه كان يرق عليهم أحيانا ، إذ عندما انطلق المهاجرون الأوائل إلى الحبشة ، وكان فيهم عامر بن ربيعة وهو من بني عدي بالحلف ، ومعه زوجه ليلى (أم عبد الله) بنت أبي حشمة بن غانم ، مر عليهم عمر بن الخطاب وهو على شركه ، وكان عامر قد مضى لبعض حاجته ، فوقف عمر على زوجة عامر ، فقال لها : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ، قالت : نعم والله ، لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا ، قال : صحبكم الله ،

ورأت له رقة لم تكن تراها ، لقد وجدت حزنه على خروجهم ، فلما جاء عامر من حاجته قالت له ، يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ، فقال لها : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : نعم ، فقال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، وذلك يأسًا منه ، لما كان يرى من غلظته وقسوته على المسلمين .

لقد توجه عمر إلى بيت ابن عمه ليؤدبه وزوجته إذ تأكد له إسلامهما فلما طرق الباب كان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرأها عليهم ، فاختفى خباب في قسم من البيت ، ودخل عمر وسأل أخته عن الصوت الذي كان يسمعه من الباب ، فأنكرت فقال لقد علمت بإسلامكما وبطش بزوجها فقالا نعم قد أسلمنا فافعل ما شئت ، فلما رأى الدم ينزف من أخته ندم وطلب أن يطلع على ما عندها من القرآن لأنه يجيد القراءة والكتابة ليقرأ هذه الصحيفة فقالت له إنما المشركون نجس وهذه الصحيفة لا يمسها إلا المطهرون فاضطر للاغتسال ليقرأ الصحيفة ولما قرأ صدرا منها قال ما أحسن هذا فسمع ذلك خباب فخرج وقال له : يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا خباب على محمد ﷺ حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة ، فأخذه بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم .

مواقف عمر بعد الإسلام :

ما إن أسلم عمر حتى قال للنبي : ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا . قال رسول الله ﷺ : بلى ، والذي نفسي بيده إنكم على الحق ، إن متم وإن حييتم . قال : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ، وكان الرسول على ما يبدو قد رأى أنه قد آن الأوان للإعلان ، وأن الدعوة التي كانت كالوليد الضعيف الذي لا بد له من الرعاية والحفظ ، قد غدت قوية تمشي وتستطيع أن تدفع عن نفسها ، فأذن بالإعلان وخرج ﷺ في صفين ، عمر في أحدهما ، وحمزة في الآخر ، ولهم كدير ككدير الطحين ، حتى دخل المسجد ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط ، وسماه رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق .

إلا أن عمر لم يكن يجرؤ أحد من قريش على إيذائه ، بينما يصيب الأذى المسلمين الآخرين ، ولعل هذا كان من أكثر ما يزعج عمر ، فكان يقول : لا أحب إلا أن يصيبني ما أصاب المسلمين . لذا كان يتعرض لرءوس الكفر ، ويعلن أمامهم إسلامه ، بل يذهب إلى بيوتهم ، ويطرق أبوابهم ليخبرهم بنبأ إسلامه ، علهم يقومون بشيء ضده ، فيناله ما ينال إخوانه المسلمين ، ويستطيع في الوقت نفسه أن ينتقم من تلك الرءوس . ولم يرد عمر أبدا أن يكون له نعمة ليست للمسلمين ، فيكون هو في عافية وراحة وهم في إيذاء وتعب ، وعندما أعلن إسلامه ، وبدأت قريش تقاتله وثب على عتبة بن ربيعة ، فبرك عليه وجعل يضربه ، وأدخل أصبعه في عينه ، فجعل عتبة يصيح ، الأمر الذي جعل الناس يتنحون عن عمر ، فقام عمر فجعل لا يدنو منه إلا أخذ شريف من دنا منه ، حتى أحجم الناس عنه .

واشتد أذى قريش على المسلمين ، وكان قد انتشر الإسلام في يثرب ، فطلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يهاجروا إلى إخوانهم في المدينة ، وبدأت وفود المسلمين تترك مكة متجهة إلى المدينة وكلها متخفية في هجرتها وانتقالها ، إلا هجرة عمر ، فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة ، تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما ، واختصر عنزته ومضى متجها إلى

الكعبة وزعماء قريش بفنائها فطاف في البيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف وقال لهم شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .

ولقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[1] ولقد ذكر المسعودي أنه سمي بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل[2] .

وكانت غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا على الرغم من أن عددهم كان ثلث عدد الكفار وعلى الرغم من قلة الاستعداد الحربي ، وكان رباط العقيدة هو الأصرة الوحيدة التي كان لها الأثر الظاهر في هذه المعركة .

فقد قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المعركة خاله العاص بن هشام ضاربا بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة ، بل كان يفخر بذلك تأكيدا لهذه الفكرة ، ومر يوما عمر بسعيد بن العاص ، فوجد منه إعراضا فقال له : أني أراك كأن في نفسك شيئا ، أراك تظن إني قتلت أباك في بدر ، إني لو قتلته لم اعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه علي فقتله .

وساق المسلمون أمامهم سبعين أسيرا منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، ومنهم عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ ، وقد شاور رسول الله ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، وكان ممن استشار أبو بكر وعمر وعلي وعبد الله بن رواحة ، فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، فإني أرى أن تأخذ منهم فدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال عمر : لا والله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان فأضرب

---

(1) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير ج9 ص445 . دار إحياء التراث العربي بيروت .
(2) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص313 .

عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، حتى يعلم أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار ، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم ، وأيد عمر كل من علي وعبد الله بن رواحة . وسكت رسول الله ﷺ و لم يجبهم . ودخل بيته . ثم خرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه ، حتى يكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه ، حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﴿ **فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾[1] ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ، قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[2] ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[3] . ومثلك مثل موسى قال : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[4] ، ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم عالة ، فلا يطلقن منهم أحد بفداء أو ضرب عنق .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فلما إن كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر ، وإذ هما يبكيان فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت .

قال نزل قول الله ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾[5] ، ثم أنزل الله بعد ذلك آية ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾[6] .

---

(1) إبراهيم 36 .
(2) المائدة 118 .
(3) نوح : 26 - 27 .
(4) يونس 88 .
(5) الأنفال : 67 - 68 .
(6) محمد : 4 .

وكان من بين الأسرى خطيب قريش سهيل بن عمرو ، فقال عمر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، دعني أنتزع ثنيتي سهيل بن عمرو فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا ، فقال رسول الله ﷺ : لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا ، وإن عسى أن يقوم مقاما لا تذمه (وهذا ما حدث فعلا بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ هم عدد من أهل مكة بالرجوع عن الإسلام ، حتى خافهم والي مكة عتاب بن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة النبي وقال (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه فتراجع الناس عن رأيهم)[1] .

عمر وحقوق النساء :

لقد اشتهر عن عمر أنه قال من فوق المنبر ، أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وذلك عندما أعلن تحديد مهور النساء فلا تزيد عن أوقية فقالت امرأة من سواد الناس كيف ذلك والله يقول ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارا ...** ﴾[2] الآية .

إن هذا الموقف من عمر إنما هو التزام منه بحكم الإسلام . أما بيئته فيكشف عنها ما ورد في صحيح البخاري قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان ابن بلال عن يحيى عن عبيد بن حنين أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يحدث أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له ، حتى خرج حاجا فخرجت معه ، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال : فوقفت له حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه ، فقال : تلك حفصة وعائشة ، قال : فقلت : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك ، قال : فلا تفعل ، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني ، فإن كان لي علم خبرتك به . قال : ثم قال عمر : والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء

---

(1) التاريخ الإسلامي ج3 ص130 .
(2) النساء 20 .

أمرا ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينما أنا في أمره أتأمره إذ قالت امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ، قال : فقلت لها : مالك ولم هاهنا ، فيما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان . فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله ، وغضب رسول الله ﷺ . يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها ـــ يريد عائشة ـــ قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها ، فقالت أم سلمة : عجبا لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه . فأخذتني والله أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد .

ولقد أعلن سحبه لقرار تخفيض المهور عندما اعترضت عليه امرأة في آخر صفوف النساء بالمسجد[1] .

مبايعته بالخلافة :

عندما مرض أبو بكر واستشعر أنه مرض الموت تذكر أن جيوش المسلمين في بلاد الفرس والروم .

فماذا عليه لو استشف آراء كبار الصحابة ليعرف اتجاههم ؟ وماذا لو استشارهم ليلزمهم بما أشاروا عليه به ؟

فلو وجد بعض التحفظات ، فإنه قد يستطيع إقناعهم بالتنازل عن تلك التحفظات ولكنه إذا مات قبل أن يطلع على رأيهم ويقنعهم بالتنازل عما قد يعن لهم فإنهم قد لا يجتمعون على أحد ، وتكون الفتنة بينما المسلمون في حروبهم مع الفرس والروم .

---

(1) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية / سالم البهنساوي ص35, 97 .

تماثل في ذهنه ما حدث عند وفاة رسول الله ﷺ عندما لم يخطر على بال المسلمين وفاة نبيهم ، وحين ثقل عليهم مصابهم ، والأمر لا بد له من خليفة يطبق منهج الله في الأرض . إذن لابد من استخلاف رجل يخلفه ، ولابد من الاستشارة ، ولاح في ذهنه أولئك الصحابة الذين كان رسول الله ﷺ يستشيرهم .

وشعر أبو بكر بالمرض ، واشتد عليه وثقل فجمع عددا من الصحابة المعروفين الذين كان رسول الله ﷺ يشاورهم في الأمر ، وقال لهم : إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميتا لما بي ، وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي .

لقد استشار عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وسائر أهل الشورى حرصا منه على أن يجتمع فرأي المسلمين على رجل منهم وشاع أن عمر هو المرشح بين المسلمين فرأى بعضهم أن يطلب من الخليفة اختيار شخص آخر وتزعم هؤلاء طلحة بن عبيد الله فذهب واستأذن في الدخول على أبي بكر وقال له (ما أنت قائل لربك إذا سألك في استخلافك عمر علينا وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف إذا خلا بهم بعد لقائك ربك) ؟

قال أبو بكر (أقول لربي اللهم استخلفت على أهلي خير أهلك)[1] .

وقال لطلحة أبلغ عني ذلك لمن وراءك .

يروي الواقدي عن ابن سبرة عن عبد المجيد بن سهيل عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال لما نزل بأبي بكر رحمه الله الوفاة دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال أخبرني عن عمر فقال : يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكنه فيه غلظة ، فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى الأمر إليه لترك

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص425 والطبري 428/3 .

كثيرا مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمَّقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه ، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا ؟ قال نعم[1] .

ثم دعا عثمان بن عفان ، فقال يا أبا عبد الله ، أخبرني عن عمر ، قال : أنت أخبر به ، فقال أبو بكر عليَّ ذاك يا أبا عبد الله . قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله ، قال أبو بكر رحمه الله : رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا ، قال أفعل ، فقال له أبو بكر لو تركته ، ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم يا أبا عبد الله ، لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئا[2] .

ثم دعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له أخبرني عن عمر ؟

قال : عمر عند ظنك ورأيك فيه إن وليته ، وقد كان واليا معك تحظى برأيه وتأخذ منه فامض لما تريد فإنك لم ترد إلا الخير[3] .

كما استشار قاعدة عريضة من المهاجرين والأنصار في مقدمتهم أهل الشورى وأهل الحل والعقد كلهم وافقوا على عمر إلا نفرا قليلا قال برأيهم طلحة بن عبيد الله حسبما ذكر من قبل .

ولعل هذا الحوار بين الخليفة وطلحة قد أثار في نفس أبي بكر الشكوك، في رضا المسلمين بيعة عمر ، فأراد أن يخاطب الناس بالأمر مباشرة ، وانتهز فرصة اجتماع الناس في المسجد وأشرف عليهم من حجرة له مطلة على المسجد ، وقال : (أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد وليت عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا) فأجاب الناس ، سمعنا وأطعنا[4] .

(4,1) تاريخ الطبري ج2 ص617, 618 .

وطلب الخليفة عثمان وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن قحافة إلى المسلمين ، أما بعد قال ثم أغمي عليه فذهب عنه فكتب عثمان أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب و لم آلكم خيرا منه ، ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليَّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر ، وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي ، قال : نعم ، قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرّها أبو بكر رضي الله تعالى عنه من هذا الموضع .

ونظر عمر إلى السماء في إشفاق وقلق وقال : إني قائل كلمات فأمنوا عليهن : (اللهم إني غليظ فليني ، اللهم إني ضعيف فقوني ، اللهم إني بخيل فسخني) .

ثم قال : (يا أيها الناس إن الله ابتلاني بكم ، وابتلاكم بي ، وأبقاني منكم بعد صاحبي ، اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت وأنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين بهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض .... وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف)[1] .

ونزل من على المنبر فصلى بالناس صلاة الظهر ، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من سنة الهجرة النبوية ، وهو أول يوم في خلافة عمر رضي الله عنه .

وعمر الذي كان جبارا في الجاهلية و لم يعرف أنه بكى أبدا أصبح في الإسلام رقيق القلب وخصوصا بعد توليه الخلافة ، فسمح لمن تابوا من أهل الردة بالاشتراك في الجهاد وقد منعهم أبو بكر ثم صعد المنبرحين اجتمع الناس لصلاة الظهر وقد رأي رأيا أحب أن يعلنه على الناس بصراحته المشهورة ، فنادى في الناس برد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم وقال : (كرهت أن يكون السبي سنة في العرب)[1] .

---

(1) هيكل ص 91 الفاروق عمر 3 جولة تاريخية د . محمد الوكيل ص89 .

السياسة الداخلية

إن خلافة عمر حافلة بالأعمال المستحدثة وكل منها موضع لدراسات عليا بالجامعات ولقد جعل للمسلمين تاريخا مستقلا هو التاريخ الهجري .

وفيما يلي بعض أعماله :

(1) بيت المال :

أنشأ بيتا للمال ونظمه من جديد حيث كانت توزع الزكاة والصدقات كلها في عهد أبي بكر ولكن عمر وضع سياسة جديدة لموارد الدولة وطريقة صرفها وأبقى مدخرات .

(2) تدوين الدواوين :

استشار عمر الصحابة في كيفية تدوين الدواوين أي إنشاء سجلات لأمور الجيش والزكاة وموارد الدولة والخراج والجزية والعائلات وسائر الأمور الإدارية والمالية ، وانتهى من هذه الاستشارات إلى أن أمر بإنشاء جميع ذلك وكان ديوان بلاد الشام بلغتهم وهي الرومية وديوان العراق بلغتهم وهي الفارسية ، وفي عهد عبد الملك بن مروان نقل ديوان الشام إلى العربية كما نقل الحجاج ديوان العراق إلى العربية حيث شاعت هذه اللغة .

وتم ترتيب سائر الشئون الإدارية والفنية والحربية والعسكرية والاجتماعية وذلك مقارنة بنظيرها في بلاد الروم والفرس بعد تطويرها .

(3) *حقوق الرعية :*

كان عمر شديد الحرص على حقوق الناس فكان يشترط على الولاة والأمراء ألا يظلم أحد في نفسه أو ماله وألا ينشغل الوالي بمنصبه أو بمصلحة له أو لأهله عن أحد من الرعية ، وكان يكتب لكل منهم كتابا بذلك ويشهد عليه بعض الصحابة من المهاجرين والأنصار وكان مما يدونه في هذا الكتاب (إني لم استعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم وإنما استعملك لتقيم فيهم الصلاة وتحكم فيهم بالعدل وتقسم بينهم بالسوية) وكان يسأل الناس عن الولاة والأمراء ويستمع إلى شكواهم وكان بجانبه مجموعة من كبار الصحابة للتحقيق مع الولاة والأمراء . وسنوضح هذا في بند خاص .

(4) *حقوق غير المسلمين :*

كان شديد الحرص على أن يشعر غير المسلم أن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وكان يعفي هؤلاء من الجزية إذا كانت عليهم ديون أو التزامات ولقد مر بيهودي يسأل الناس وكان كبير السن ضرير البصر فأخذ بيده إلى بيته وأعطاه بعض المال وأرسل إلى خازن بيت مال المسلمين أن انظر هذا وأمثاله وافرضوا لهم من بيت مال المسلمين ، ما يكفيهم فذلك حقهم .

(5) *نظام الشورى :*

كان لا يبرم أمرا حتى يجمع أهل الشورى ويستشيرهم ويقول لا خير في أمر أبرم من غير شورى ، وكان يستشير العامة أولا ثم يجمع أهل الشورى من كبار الصحابة وأصحاب الرأي ويعرض عليهم المسألة وما يستقر عليه الرأي يمضي فيه ، فإذا كان مخالفا لهم لا يعمل برأيه حتى يقنع أكثرهم أو يعدل هو عن رأيه وسنضرب لذلك مثلا بالغنائم في بند خاص .

وكان إذا اتخذ قرارا ووجد أنه قد أخطأ يعلن للناس ذلك ويعدل عنه فعندما كثرت الأموال بعد الفتوحات وغالى الناس في مهور النساء وضع حدا أعلى للمهر

فوقفت امرأة وهي في آخر المسجد وقالت ليس لك هذا يا عمر فالله يقول ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا** ﴾ فالله يعطينا بالقنطار وأنت تمنعنا الدراهم ، فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر ورجع عن قراره[1] .

(6) *القضاء في عهد عمر :*

قام عمر بفصل القضاء عن أعمال الخليفة والولاة وعين القضاة المختصين بالأقاليم فكان أبو الدرداء قاضي المدينة وشريح قاضي الكوفة وأبو موسى الأشعري بالبصرة وقيس بن أبي العاص بمصر وهكذا .

أما البلاد الصغيرة والتي ليس فيها منازعات فظل القضاء فيها بيد الولاة والذين كان يحاسبهم كل عام ويستبدلهم في فترات .

وكتاب عمر إلى القاضي أبي موسى الأشعري قد تضمن كثيرا من نظم القضاء وأصوله وواجبات القضاة وهذا الكتاب مازال مرجعا للمسلمين وغيرهم حتى اليوم .

(7) *أمثلة لسياسة عمر :*

لقد كان جبريل ينزل بحكم الله الذي يؤيد رأي عمر في بعض السياسات وفي هذا قال النبي ﷺ « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » رواه الترمذي .

كما روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : « لقد كان فيمن كان قبلكم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر »[2] .

ومن الأمثلة على تأييد الوحي لعمر أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ (النساء / 43) .

طلب عمر من الله أن ينزل لهم في الخمر بيانا شافيا حيث يطلب التحريم الكلي فلما نزل هذا التحريم في الآية 91,90 من سورة المائدة وفيها قول الله ﴿ **فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ فرح عمر وطابت نفسه .

---

(1) مسند أحمد ج1 ص77 والترمذي ج4 ص355 والنسائي 96/6 وأبو داوود 135/6 .

(2) جامع الأصول في أحاديث الرسول للإمام مبارك بن محمد بن الأثير الجزري ج9 ص444 .

وأيضا تمنى أن يفرض الحجاب على نساء النبي ﷺ فلا يكلمهن أحد إلا من وراء حجاب فلما نزلت الآيات في ذلك ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ (الأحزاب / 53) . اشتد فرحه وحمد الله تعالى ، كما نزل الوحي يؤيد رأيه في شأن أسرى غزوة بدر وهذه سبق تفصيلها .

وعندما توفي عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين طلب ابنه من النبي ﷺ أن يصلي عليه فوافق ولكن عمر جادله معترضا على طلب ابن زعيم المنافقين فنزل الوحي يؤيد قول عمر في قول الله ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا** ﴾ (التوبة / 84) .

(8) توزيع الغنائم :

إنه بعد فتح العراق وفارس والشام ومصر في عهد عمر بن الخطاب نشأت المشكلة وهي حق المحاربين في الغنائم وكانت أراضي شاسعة فطلب المحاربون حصتهم وهي أربعة أخماس هذه الغنائم فكتب سعد بن أبي وقاص بعد فتح العراق وأبو عبيدة عامر بن الجراح بعد فتح الشام يسألان أمير المؤمنين عن تقسيم المدن والأراضي كطلب المحاربين ، فجمع عمر الفقهاء وأهل الرأي وقادة المسلمين ليتشاوروا في الأمر فرأى بعضهم أن تقسم طبقا للحكم الوارد في القرآن الكريم في قول الله تعالى ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...** ﴾ (الأنفال / 41) ، أي الخمس لبيت المال والباقي للمحاربين حيث لم تكن لهم مخصصات ومرتبات .

فقال عمر لو فعلنا ذلك فلا يبقى لمن بعدكم شيء حيث لا يجدون أرضا ولا بيوتا إذ ستورث إلى الأبناء والأحفاد فلا يجد المسلمون بعد ذلك ما يسدون به الثغور ولا يجد الأرامل والفقراء من أهل الشام والعراق وغيرهم ما ينفقون منه .

وقد انضم إلى أمير المؤمنين في هذا الرأي كل من علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمر .

وعارض غيرهم واستمسكوا بظاهر الآية القرآنية وانتهى الطرفان إلى تحكيم عشرة من الأنصار منهم خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج .

فوقف أمير المؤمنين أمام هيئة التحكيم وقال إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا

في أمانتي فيما حُملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق . وعرض هذه القضية واستدل على رأيه بما ورد في سورة الحشر بعد آيات تقسيم الغنائم حيث قال الله تعالى ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ .

وقال أمير المؤمنين هذه الآية عامة لمن جاء بعد هؤلاء المحاربين فإذا وزعت الغنائم بين الحاضرين فكيف ندع من يجيء بعدهم .

وانتهى هذا الحوار باقتناع الجميع برأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعدم توزيع هذه الأراضي على المحاربين ليجد الفقراء من أهل الشام والعراق وغيرهم ما ينفقون منه في المستقبل .

(9) عام الرمادة والسياسة التموينية :

حدث في العام الخامس من خلافة عمر قحط شديد لجميع الناس ببلاد الحجاز وجاعوا جوعا شديدا كان ذلك في العام الثامن عشر من الهجرة وتوافدت الوفود من البلاد إلى المدينة عاصمة الخلافة يشكون الجوع وسمي هذا العام بعام الرمادة لأن الأرض أسودت من قلة المطر فكانت تشبه الرماد وكانت الريح تهب بتراب كالرماد فأقسم عمر ألا يذوق لحما ولا سمنا ولا لبنا حتى يجد الناس ذلك بل إنه من شدة الجدب والقحط توافدت الوحوش إلى الناس تبحث عما يسد جوعها[1] .

ولقد أوقف عمر حد السرقة في هذا العام وهذا ليس تعطيلا لهذا الحد كما يكتب البعض لأن شروط تنفيذ الحد لم تكن متوفرة فأوقف تنفيذ حد السرقة لهذا السبب ، فالذي يأكل ما يكون ملكا لغيره بسبب شدة الجوع وعجزه عن الحصول على الطعام يكون غير مختار فلا يقصد السرقة ولهذا لم يقطع عمر يد الرقيق الذين أخذوا ناقة وذبحوها وأمر سيدهم حاطب بدفع ثمن الناقة[2] .

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص98 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص90 .
(2) فقه السنة ج2 ص 492 .

ولقد كان من الوسائل التي اتخذها عمر في هذه المجاعة أن صلى صلاة الاستسقاء وكان من دعائه : (اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم فاسقنا وأحي البلاد والعباد)[1] .

كما كان من دعاء عمر (اللهم إنا كنا نتوسل بالرسول ﷺ واليوم نتوسل بالعباس عم نبيك ﷺ)[2] وقد استجاب الله ونزلت الأمطار .

وخطط عمر لمكافحة المجاعة فأرسل إلى ولاة الأقاليم يطلب منهم المؤونة فكان أول من لبى أبو عبيدة بن الجراح أرسل أربعة آلاف راحلة كلها طعام فأمر عمر أن تقسم لمن هم حول المدينة حتى يظلوا في أماكنهم وتصلهم الأطعمة حيث يقيمون دون أن يتزاحموا على مقر الخلافة وحتى لا يأكل أهل العاصمة قبلهم .

وأرسل معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام بالزاد وثلاثة آلاف عباءة وأرسل سعد بن أبي وقاص ألفي بعير من العراق محملة بالدقيق .

وأشرف عمر على توزيع التموين بنفسه بما فيه من تمر ودقيق وغير ذلك فحدد لكل أسرة كمية ترسل إليهم شهريا وقال لو اضطررت سأرسل لكل عائلة بعض المسلمين الجائعين يشاركونهم الطعام وقال في ذلك (لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحياة ، فعلت فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم)[3] ولقد بلغ عدد من أطعمهم عمر بنفسه في ليلة واحدة سبعة آلاف شخص وبعد أيام أحصاهم فكانوا عشرة آلاف[4] .

كما أوقف إلزام الناس بالزكاة في هذا العام ولما انتهت المجاعة وخصبت الأرض جمع الزكاة عن عام الرمادة أي اعتبرها دينا على القادرين حتى يسد العجز لدى الأفراد المحتاجين وليبقي في بيت المال رصيد بعد أن أنفقه كله .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص99 .
(2) التاج والجامع للأصول ج1 ص318 .
(3) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص316 .
(4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص315 - 317 .

سياسة اختيار الأمراء ومحاسبتهم

لم يكن عمر يكتفي بالصلاح والتقوى في اختيار الأمراء بل يشترط أيضا قوة الشخص وكفاءته وقدرته على القيام بالعمل المنوط به .

ولقد استعمل المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وفي الصحابة من هو أفضل منهم أمثال عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد ، وما ذلك إلا لقوة أولئك في العمل وخبرتهم ، ولأن عمر يريد أن يشرف عليهم ، ويريد أن يهابوه ، كما أنه لا يريد أن يدنس كبار الصحابة بالعمل ، وقلما كان يريد أن يستعمل بني هاشم وآل البيت ، ويقول لابن عباس : إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم .

وكان يشترط على الولاة حين يستعملهم بأن لا يظلموا أحدا في جسمه ولا في ماله ، ولا يشغل منصبه في فائدة خاصة أو مصلحة له أو لأهل بيته ، ويكتب بذلك كتابا للوالي ويشهد عليه عددا من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار . ويقول للوالي : إني لم استعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، وإنما أستعملك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل .

وكان يراقب الولاة ويتدخل في طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم ، أي كانت بيده السلطة كلها ، وإضافة إلى ذلك يطلب من عماله أن يوافوه في كل موسم حج . كما يسأل الناس عن ولاتهم وتمسكهم بالشرع وحكمهم بالعدل ، ويستمع إلى شكوى الناس على أمرائهم . وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه يعد من كبار المحققين مع الولاة إذا سمع عن أحدهم شيئا . فقد أرسله للتحقيق مع سعد بن أبي وقاص عامله على العراق ، كما سمع شكوى على المغيرة بن شعبة ؛ وعمرو بن العاص ، وقدامة بن مظعون ، وسعيد بن عامر ، وعياض بن غنم وغيرهم ، ولعل أشهر

شكوى وأبلغها ما كان على عمرو بن العاص والي عمر على مصر .

قال أنس : كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ! قال : وما لك ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو ، فقال : فرسي ورب الكعبة . فلما دنا مني عرفته فقلت : فرسي ورب الكعبة . فقام إليَّ يضربني بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، وبلغ ذلك عمرا أباه وخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه ، وهذا حين آتيتك . فوالله ما زاد عمر على أن قال : اجلس . ثم كتب إلى عمرو : إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ، وأقبل معك بابنك محمد . وقال للمصري : أقم حتى يأتيك . فدعا عمرو ابنه ، فقال : أأحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟

قال : لا . قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟

فقدم على عمر .

قال أنس : فوالله إنا عند عمر ، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه .

فقال : أين المصري ؟

قال : ها أنذا .

قال : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين .

ثم قال عمر : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت . يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني .

قال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه .
أيا عمرو ! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا[1] .

* * *

(1) التاريخ الإسلامي . محمود شاكر جـ 3 ص 207 و 208 ، وابن كثير 91/7 وابن سعد 316/3 .

الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب

لم تتوقف الجيوش الإسلامية في حربها لبلاد الفرس أو بلاد الروم بسبب وفاة الخليفة الأول واستمرت المعارك على الجبهتين وكان الخليفة عمر بن الخطاب يتابع المعارك بنفسه ولا يترك للقواد حرية التصرف كما فعل أبو بكر . وفيما يلي موجز للفتوحات في عهد عمر بن الخطاب .

أولا : الفتوحات في بلاد الروم :

كان خالد بن الوليد هو قائد الجيوش في حرب الشام وكانت شهرته الحربية في حروب أهل الردة وفي العراق والشام قد جعلت عمر بن الخطاب يبدأ خلافته بعزله وإسناد القيادة لأبي عبيدة بن الجراح حتى لا ينسى المسلمون أن النصر من عند الله .

ولما شرع خالد في تسليم القيادة لأبي عبيدة قدمه للجنود بقوله : بعث عمر عليكم أمين هذه الأمة وقال أبو عبيدة للناس : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة[1] .

وبدأت المعركة بقيادة أبي عبيدة وكان على الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة نفاثة الكناني وعلى الخيول خالد بن الوليد وأقبلت الروم بجيوش جرارة سدت أقطار هذه البقعة كلها ويصيحون بأصوات مرتفعة يتقدمهم الرهبان بالإنجيل . فتقدم خالد بفرسه إلى أبي عبيدة وقال له إني مشير عليك بأمر فقال له أبو عبيدة قل أسمع لك وأطيع .

---

(1) الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي الكناني العسقلاني ج2 ص595 ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج2 ص794 ، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج3 ص58 .

قال خالد إن هؤلاء القوم يلزم لهم حملة كبيرة وإني أخشى على الميمنة والميسرة وأرى أن نفرق الخيل ونجعل فرقة وراء الميمنة وأخرى وراء الميسرة حتى إذا صدوهم كانوا من ورائهم ونفذ أبو عبيدة هذه الخطة وجعل خالدا من وراء الميمنة وقيس بن هبيرة في الجيوش الأخرى في الميسرة وتأخر أبو عبيدة إلى وراء الجيوش حتى إذا رآه المنهزم من المسلمين استحى منه ورجع إلى القتال متحمسا ولهذا وضع خالد في صدر الجيوش سعيد بن زيد .

كما وزع خالد السيوف على النساء وجعلهن من وراء الجيش وقال لهن من شاهدتنه موليا الأدبار فاقتلنه بالسيف ثم عاد إلى موقعه ولما تبارز الفريقان قال أبو عبيدة للمسلمين (لا تبدءوهم بقتال والتزموا الصمت إلا من ذكر الله وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ولا تبرحوا أماكنكم ولا تخطوا إليهم خطوة حتى آمركم إن شاء الله) .

ولما تقدمت جيوش الروم تقدم إليهم أبو عبيدة ومعه يزيد بن أبي سفيان وضرار بن الأزور وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ونادوا في جيوش الروم نريد أميركم لنتفاهم معه فأذنوا لهم بالدخول فوجدوه في خيمة من حرير وفرشها من حرير فقال الصحابة إن الله حرم هذا على الرجال ولا نجلس فيها فجلس معهم حيث أرادوا . وعرض أبو عبيدة على أمير الروم ومن معه الإسلام والجزية وذلك تجنبا للقتال ولكن من غرورهم وخيلائهم قالوا لابد من القتال .

وعرض ماهان قائد جيوش الروم عليهم أن لكل رجل من جيوش المسلمين عشرة دنانير وما يلزمه من الكسوة والطعام وأن يرسل لهم هذه كل عام ويرجعوا إلى بلادهم معللا ذلك لأنهم ما خرجوا من بلادهم إلا بسبب الجوع والفقر فرفضوا هذا العرض .

وبدأت المعركة في أوائل رجب في السنة الثالثة عشرة للهجرة وحملت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين وتوغلوا على جهة القلب من الجيوش فنادى عكرمة بن أبي جهل من يبايع على الموت فبايعه أربعمائة من الأعيان والمشاهير وكان من إيثار

كل منهم أخاه على نفسه أن كل جريح كان يرفض أن يشرب ويعطي القربة لجاره فظلت القربة تتنقل بينهم حتى ماتوا من العطش و لم يشرب أحد ولقد حمل خالد ابن الوليد بالخيل على ميمنة الروم وحمل بمئة فارس على ألف من فرسان الروم فهزموهم .

وتقدم يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالا شديدا وكان أبوه أبو سفيان بن حرب تحت رايته فأمر ابنه بالتقوى والصبر ونادى يا نصر الله اقترب الثبات الثبات يا معشر المسلمين وانهزم الروم .

وخاطب هرقل أهل إنطاكية لما هزموا وقال لهم أخبروني عن الذين يقاتلونكم ألستم أكثر منهم وأنتم محصنون في بلادكم ؟ قالوا نحن أكثر أضعافا في كل موطن ومعركة فقال هرقل فلماذا تنهزمون قال كبيرهم : إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف ويتناصفون بينهم أما نحن فنشرب الخمر ونزني وننقض العهد ونظلم ونفسد في الأرض .

وبعد معركة اليرموك انتقل هرقل من حمص وتصالح أهلها وأهل دمشق مع المسلمين وتجمع الروم بغور الأردن فانتقل إليهم أبو عبيدة ولكنه توقف في المرج حيث علم أنه يتجمع الروم أيضا بدمشق فأراد أن يستشير الخليفة هل يبدأ بدمشق لأنها حصن الشام وقلب ملكهم أم يناجزهم في غور الأردن فجاءه الأمر من عمر ابن الخطاب أن يبدأ بدمشق فإذا فتحت فسر أنت وخالد بن الوليد إلى حمص واترك عمرو بن العاص وشرحبيل على الأردن وفلسطين .

فتح دمشق :

رأي أبو عبيدة أن الروم قد تجمعوا في فحل وبيسان نحو ثمانين ألفا فتوجه إليهم بعد فتح دمشق وأحرز النصر عليهم واستولى على البلدين .

كما أرسل بعض الجنود إلى طبريا ليفتحوها لتكون ردءا للمسلمين في حرب دمشق وليقطع منها إمدادات الروم إلى دمشق التي نقض أهلها الصلح عندما علموا بوجود قوة للروم كما فعل ذلك أهل حمص .

في معركة دمشق كان هو في الميسرة وخالد في القلب وعمرو بن العاص في الميمنة ودخل الجيش الغوطة واحتلها ودخل دمشق من الناحية الشرقية ووزع أبو عبيدة الجنود حسب التشكيل الذي وضعه على أبواب دمشق كلها وكانت نحو سبعة أبواب محصنة ولذلك استمر حصار دمشق عدة أشهر وفي إحدى الليالي أقام جنود الروم حفلة وباتوا ليلتهم سكارى وعلم المسلمون ذلك من الرجال الذين كانوا لهم عيونا عليهم .

وكان الروم يحيطون دمشق بخنادق مملوءة بالمياه حيث كان نهر بردى بمثابة الخندق لها فوضع خالد وجنوده سلالم على الأسوار وصعدوا إليها حتى إذا ما أصبحوا فوق السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لله ونزلوا على الحراس واشتبكوا معهم وفتحوا الباب بالقوة فاندفع جنود المسلمين من هذا الباب إلى الداخل حيث كان خالد قد أمرهم بالدخول عند سماع التكبير فطلب زعماء دمشق الصلح فرفض خالد ذلك وقال إنما دخلنا المدينة عنوة وليس صلحا ولم يستسلموا إلا بالقوة فجاء أبو عبيدة وأمره بالكف عن القتال وكان ذلك في رجب من السنة الرابعة عشرة وولى يزيد بن أبي سفيان على دمشق وأرسل شرحبيل بن حسنة إلى الأردن وعمرو بن العاص إلى فلسطين أي إلى المناطق التي حددها الخليفة من قبل .

فتح حمص :

علم أبو عبيدة أن هرقل أرسل البطريق (توذرا) إلى مرج الروم (الصبورة الآن) كمدد لجيوشهم فتقدم أبو عبيدة وبدأ القتال وفر الروم وقتل من ثبت منهم في المعركة وفر أتباعهم إلى جهة حمص فلحقهم أبو عبيدة واتبعه خالد بن الوليد وحاصروها في فصل الشتاء وبعد انتهاء موجة البرد القارصة استسلم أهل حمص على أساس دفع الجزية واستشار أبو عبيدة الخليفة فأمره أن يظل بحمص وأن يرسل خالدا إلى المناطق الأخرى لمتابعة الروم .

فتح قنسرين :

أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين وبعد محاصرتها دخلها عنوة في السنة الخامسة عشرة من الهجرة .

فتح قيسارية :

ونظرا لأن المناطق الساحلية لم يتقدم إليها المسلمون كما هو الشأن في المدن الداخلية ، فقد أمر عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان بفتح قيسارية وأن يصبح أميرا عليها وذلك إذا استنصر بالله وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا فنعم المولى ونعم المصير .

والتزم معاوية بتعليمات الخليفة وحاصر القوم وكثرت المعارك لعدة مرات وفي النهاية استسلموا بعد أن قتل من الروم نحو ثمانين ألفا وانقطع أي أمل لهم في إحراز أي نصر .

فتح أجنادين :

تحرك عمرو بن العاص إلى أجنادين فهي مكان العبور لفلسطين من الجنوب وهي بالقرب من الفالوجا وكان يرابط فيها قائد محنك يسميه الروم الأرطبون وكانت له قوة في الرملة وأخرى في بيت المقدس فقال عمر بن الخطاب سأرمي الروم بأرطبون العرب عمرو بن العاص .

فكان عمرو كلما جاءته قوات وزعها على الرملة وبيت المقدس ليشتبكوا في هذه البلاد مع الروم فيمنعهم من مساندة الأرطبون في أجنادين وطال الحصار وتبودلت الرسل بين الفريقين دون جدوى فتقدم عمرو بن العاص بنفسه كرسول من الرسل ودخل على الأرطبون وشعر الأرطبون من خلال الحوار أن هذا عمرو بن العاص فأراد قتله خيانة فأمر الحرس بالفتك به أثناء مروره بينهم فشعر عمرو من كلام الأرطبون بلغة الروم أن هناك مؤامرة فقال له أيها الأرطبون إن الخليفة قد بعث معي عشرة من القواد للحوار معك وأردت أن آتيك أولا لأنقل إليهم كلامك ثم يحضروا

معي إليك إذا لم نتوصل معا إلى شيء فوجد الأرطبون أنها فرصة لقتل هؤلاء القواد فقال لعمرو اذهب فأحضرهم معك وأرسل إلى الحرس بعدم اغتيال عمرو ورجع عمرو إلى جيش المسلمين وأخبرهم فبدأت معركة كمعركة اليرموك فتأكد الأرطبون من دهاء عمرو وقال لقد خدعني إنه أدهى العرب وفتح عمرو أجنادين وتقدم بالمسلمين نحو بيت المقدس بعد أن استولوا على يافا ونابلس واللد والرملة وغزة .

فتح بيت المقدس :

تحركت الجيوش إلى بيت المقدس لتحاصره أملا في الصلح وتجنب القتال فوافق أهلها بشرط أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب هو الموقع لهم على شروط الصلح .

لما كتب عمرو إلى الخليفة أنه لا يلاقي حربا كئودا وأن البلاد قد ادخرت لك وتريدك للصلح[1] . فاستشار عمر من معه من الصحابة فأشار عثمان بعدم الخروج إليهم إضعافا لهم وأشار علي بن أبي طالب بالذهاب إليهم لأن هذا فيه مساندة للمسلمين في حصارهم فأخذ الخليفة بهذا الرأي واستخلف عليا مكانه على المدينة واتجه إلى بيت المقدس ومعه جماعة من الصحابة وكان العباس في المقدمة[2] .

وكتب عمر إلى أمراء الجنود في بلاد الشام أن يلتقوا به في مدينة الجابية في يوم حدده لهم وأن يستخلفوا على الجنود غيرهم وحضر الأمراء في الموعد والمكان وكان فيهم أبو عبيدة وخالد فلاحظ عمر أن منهم من يلبس الديباج فأخذ الحصا ورماهم بها فقالوا إنها يلامقة وإن علينا السلاح ، فقال فنعم إذن[3] واليلامقة كلمة فارسية تعني القباء المحشو .

وقد تدارس عمر مع الأمراء في أمر فتح بيت المقدس ولهذا يرى جمع من المؤرخين أنه قد جاء إلى الجابية للتشاور مع القواد في هذه المعركة ولم يحضر إليها للصلح

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص609 .
(2) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص55 .
(3) الكامل لابن الأثير ج2 ص500 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص59 .

ويؤكد هذا أن الجابية تقع في الجنوب الغربي لدمشق وهي أقرب إلى دمشق منها إلى القدس[1] .

الطريق إلى القدس :

يروي الواقدي أن عمر بن الخطاب قدم على بعير ورأسه معرض للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ويرتدي كساء من الصوف هو فراشه إذا نزل وروى ابن كثير عن ابن أبي الدنيا أن عمر نزل عن بعيرة وخاض في الماء ومعه البعير فقال له أبو عبيدة إنك بهذا صنعت عظيما عند أهل الأرض فصك في صدره وقال لو غيرك قال ذلك يا أبا عبيدة إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلب العز بغيره يذلكم الله[2] .

وظل عمر بالجابية عدة أيام وحضر وفد يمثل أهل القدس والرملة فصالحهم ووقع معهم كتابا شهد عليه من معه من الصحابة تضمن أن أهل إيلياء لهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم فلا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدودها ولا يكرهون على الدين. ولا يضار أحد منهم ولا يساكنهم أحد من اليهود وعليهم أن يعطوا الجزية وأن يخرجوا جنود الروم من المدينة وكذلك اللصوص ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يكون مع الروم بنفسه وماله وأن يخرج معهم فهو في مأمن حتى يصل مكانه[3] .

أما جنود الروم فلم تعجبهم بنود الصلح حيث أصبحوا كباقي الأفراد فخرجوا من القدس واتجهوا إلى مصر للانضمام إلى قوات الروم هناك .

واتجه عمر إلى بيت المقدس فدخل المسجد من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة الإسراء وصلى فيه تحية المسجد وسأل كعب الأحبار عن مكان الصخرة فدله

---

(1) المرجع السابق ص501 وابن كثير ج7 ص56 وجولة تاريخية للدكتور الوكيل ص198 .
(2) ابن كثير ج7 ص55 إلى ص59 وابن الأثير ج2 ص500 .
(3) تاريخ الطبري ج3 ص608 .

عليها حيث كان النصارى قد جعلوها مزبلة تلقى فيها القاذورات باعتبارها قبلة لليهود وذلك كمعاملة لهم بمثل ما فعلوه في كنيسة القيامة حيث جعلوها محلا للقمامة لهذا لم يكن مكان الصخرة واضحا ودل كعب الأحبار عمر عليها فرفع عنها القاذورات والأوساخ واتبعه المسلمون في ذلك وأمر برفع ما تبقى من التراب والأوساخ عن الصخرة .

وأثناء طواف الخليفة مع البطريك الأكبر (صفرونيوس) وهو يتحدث معه حانت وقت الصلاة فطلب منه عمر أن يدله على مكان يصلي فيه فقال له فصل حيث أنت في هذه الكنيسة لأنها معبد من المعابد فرفض عمر حتى لا يقلده المسلمون في ذلك فيؤذون مشاعر النصارى وفعل ذلك أيضا الخليفة عندما زار كنيسة المهد في بيت لحم ورفض أن يصلي فيها حتى لا يتخذها المسلمون مسجدا بل كتب عهدا خاصا بهذه الكنيسة نص فيه ألا يدخلها المسلمون جماعات بل يدخلونها كأفراد وذلك احتراما لكتاب الصلح الذي كتبه الخليفة لأهل إيلياء وهو الصلح المعروف بصلح بيت المقدس وتسلم عمر مفاتيح مدينة بيت المقدس بعد أن كتب لهم هذا الصلح[1] وذلك سنة خمس عشرة للهجرة وهذا الصلح مازال محفوظا حتى اليوم وهو من أقدم العهود والمواثيق .

فتح مصر :

عندما كان عمر في الجابية طلب منه عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر وكان الخليفة لا يرى ذلك بسبب تفرق قوات المسلمين في بلاد الشام والفرس فألح عمرو لأن في ذلك قوة للمسلمين ولأن جيوش الروم تجمعت بها للانقضاض على جيوش الأمة الإسلامية فقال له عمر اذهب حيث طلبت وسأستخير الله في ذلك وسيأتيك كتاب عاجل إن شاء الله . فإذا أمرتك ألا تدخل مصر فانصرف ما لم تكن قد دخلتها قبل وصول كتابي إليك . وتحرك عمر في جوف الليل ومعه نحو أربعة

---

(1) الطبري ج3 ص603 .

آلاف جندي[1] .

وأرسل عمر كتابا إليه أن ينصرف هو ومن معه من المسلمين ووصله الكتاب وهو في رفح فلم يفتحه حتى لا يجد فيه أمرا بالعودة وقد انشرح صدره لفتح مصر ولم يأخذ الكتاب من رسول عمر حتى إذا ما تجاوز رفح متجها إلى العريش نزل في قرية وسأل عنها قالوا إنها من قرى مصر فطلب رسول عمر وأخذ منه الكتاب وقرأه على الجنود فإذا به الأمر بالانصراف فقال لهم عمرو أتعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا نعم قال فإن عهدي مع الخليفة إذا أدركني كتابه ولم أدخل حدود مصر أنصرف وأرجع عنها إذا أمرني بذلك وإذا كنت في حدود مصر أكمل السير على بركة الله .

وفتح عمرو العريش والفرما وهي مدينة فيها آثار للقدماء المصريين وحصون كثيرة ثم تحرك إلى بلبيس وقاتل جيوش الروم شهرا وفتحها واتجه إلى أم دنين وكانت قرية في مكان حديقة الأزبكية في القاهرة حاليا وطال حصاره لها فطلب من الخليفة أن يرسل له جيشا فأرسل إليه أربعة آلاف بقيادة الزبير بن العوام .

وقامت فرقة من خمسمائة فارس لمداهمة أم دنين وتم فتحها[2] .

حصن بابليون :

تجمع الرومان في حصن بابليون حيث يحميه نهر النيل من الغرب ويحميه خندق من المياه في ناحية الجنوب مما تعثر معه فتح الحصن فكتب عمرو إلى الخليفة يطلب قوة أكبر فأرسل إليه أربعة آلاف ومعهم رسالة أن على رأس كل ألف من هؤلاء رجلا بألف وهؤلاء القواد الأربعة هم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة ابن الصامت ومسلمة بن مخلد ، وجاء في الرسالة يصبح معك اثنا عشر ألفا ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

---

(1) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص81 .

(2) تاريخ الطبري ج2 ص108 وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص87 إلى 91 .

ولقد قام المقوقس وهو حاكم مصر من قبل الرومان بمفاوضة عمرو بن العاص للصلح واختار الجزية وكتب إلى إمبراطور روما بذلك فطلب حضوره إلى روما ولما وصل إليها عزله وأرسل من هو أقوى منه فاستطاع الزبير بن العوام من عمل سلالم يصعدون بها إلى سور الحصن وما إن وقفوا على السور وكبروا وكبر المسلمون خارج الحصن حتى فر الحراس خائفين وفتح الزبير باب الحصن فاضطر الرومان للصلح .

وأثناء المفاوضة مع المقوقس كان عبادة بن الصامت هو المتحدث باسم وفد المسلمين وكان أسود اللون فرفض المقوقس أن يفاوضه وطلب غيره لأن هذا عبد أسود فقالوا إن هذا الأسود أفضلنا وهو سيدنا ونقدمه علينا فقال له عبادة بن الصامت إن خلفي ألف رجل أسود بل أشد سوادا مني وكل منا لايهاب مئة رجل من عدونا إنما أردنا الجهاد في سبيل الله ولا نبالي إن كان لكل منا قنطار من ذهب ولو كان لكل منا قنطار من ذهب أنفقناه في سبيل الله لأن نعيم الدنيا ليس هو النعيم والرخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة . فقال المقوقس لمن حوله إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها[1] .

ونصح المقوقس قومه بقبول الجزية فرفضوا ثم عادوا وقبلوها عندما فتح المسلمون الحصن .

وتضمن الصلح أن الجزية ديناران عن كل نفر بلغ الحلم وأنه ليس على الشيخ الكبير ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء جزية .

ثانيا : الفتوحات في بلاد الفرس :

كانت الفرس قد اختارت امرأة تحكمهم وهي أميرة من البيت الساساني وقد اختارت هذه المرأة رستم قائدا عاما لقوادها فأدار المعارك على النحو التالي :

---

(1) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص99 .

موقعة الجسر :

كانت هزيمة الفرس في عهد أبي بكر سببا في أن يغير رستم قائد الفرس خطته وجيوشه فاختار القائد بهمن جاذويه واشتبك مع المسلمين بقيادة أبي عبيد مسعود الثقفي . ومن دهاء بهمن أن خير المسلمين أن يعبروا جسر الفرات أو يعبر هو وجنوده إليهم فاستشار أبو عبيد قواده ورأوا عدم عبور الفرات وأن يعبر الفرس ولكن أبا عبيد ظن أن عدم العبور فيه ضعف ورفض النزول على رأي أهل الشورى وقاموا بعبور الفرات فاقتتلوا مع الفرس وفوجئوا بالفيلة تحارب وتشتبك مع الخيول ففرت الخيول من الفيلة فحارب المسلمون على أرجلهم بغير خيول وبدءوا يقطعون أحزمة الفيلة فسقط جنود الفرس من عليها ولكن أحد الفيلة دهس أبا عبيد فضعفت معنويات المسلمين وسقط منهم سبعة يحملون اللواء فأسرع عبد الله بن مرشد الثقفي بقطع الجسر ونادى يا معاشر المسلمين موتوا على ما مات عليه أمراؤكم حتى تظفروا بالنصر فأصبح الفرس والمسلمون بمحاذاة الجسر ووثب الفرس إلى الفرات فغرق أكثرهم وجاء المثني بن حارثة بجنود لحماية ظهور المسلمين وكان مثخنا بجراحه وكان هو الذي يتولى قيادة المسلمين في العراق بعد رحيل خالد بن الوليد وطلب من أبي بكر وهو على فراش الموت مددا لاستكمال المعارك في بلاد العراق فأوصى أبو بكر عمر بن الخطاب أن يستجيب له فبدأ ولايته بإرسال أبي عبيد بن مسعود الثقفي وأمره أن يشرك الصحابة معه في الأمر[1] .

واستطاع المثني بن حارثة أن يوقف الخسائر وقام المسلمون بربط الجسر بعد غرق الكثيرين من الفرس وعبروا إلى الضفة الثانية مرة أخرى بعد أن كانت خسائرهم أربعة آلاف قتيل وخسائر الفرس ستة آلاف قتيل .

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص444 والكامل لابن الأثير ج2 ص433 .

معركة البويب :

أرسل المثنى بن حارثة إلى عمر بن الخطاب رسالة يخبره بهذه الهزيمة وهي الأولى للمسلمين في بلاد الفرس فأرسل إليهم جنودا بقيادة جرير بن عبد الله البجلي فاتجه بهم المثنى إلى الحيرة فأعدت ملكة الفرس جيشا من اثني عشر ألف مقاتل وأمرت عليهم القائد مهران فالتقى الفريقان في منطقة تسمى البويب وطلب مهران من المسلمين أن يعبروا إليه النهر أو يعبر هو إليهم فقال له المثنى بل اعبروا أنتم وطلب من المسلمين أن يبدءوا القتال في التكبيرة الرابعة وتحرك الفرس تتقدمهم الفيلة فكبر المثنى فتحرك جنود المسلمين بقوة وأوقعوا الهزيمة بالفرس حتى قتلوا القائد مهران[1] .

معركة القادسية :

أمام هذه الهزيمة رأى قواد الفرس أن يسند الملك إلى إمبراطور من الرجال واختاروا يزدجرد الثالث وهو ابن إحدى وعشرين سنة وظل رستم قائدا للجيوش .

وأرسل عمر بن الخطاب جيشا بقيادة سعد بن أبي وقاص وهو يتكون من أربعة آلاف جندي وقد توفي المثنى بن حارثة قبل وصول هذا الجيش .

كما كتب الخليفة عمر إلى قائد المسلمين في بلاد الشام أبي عبيدة بن الجراح ليرسل جيشا إلى بلاد الفرس .

ووضع عمر الخطة لتنزل الجيوش في القادسية فوجد سعد بن أبي وقاص أن المثنى قد ترك له وصية بأن يعسكر في القادسية لأنها باب فارس ولم يقبل سعد أن تعود أرملة المثنى إلى المدينة بمصابها هذا فتزوجها .

ولقد تجمعت جيوش المسلمين بالقادسية وبلغت ثلاثين ألف جندي بينما تجمع الفرس بقيادة رستم في جيش بلغ مائة وعشرين ألف جندي تتقدمهم الفيلة .

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ج2 ص312 والطبري ج3 ص468 .

وأرسل سعد بن أبي وقاص رسولا إلى رستم يفاوضه لقبول الإسلام أو الجزية لتجنب الحروب .

وكان هذا الرسول وفدا مكونا من أربعة عشر رجلا نصفهم من أصحاب الأصل والرأي والعقل والنصف الآخر من لهم بسطة في الجسم والمهابة مع الرأي والحكمة وأمرهم سعد أن يتوجهوا إلى المدائن لمقابلة الملك يزدجرد ويشرحوا له الإسلام فأغراهم الملك بالمال والطعام والكساء وعبثا ، ولم يفهم أنهم قد خرجوا من ديارهم ابتغاء مرضاة الله فأبى واستكبر وأمر رستم أن يذهب إلى القادسية ليحاصر المسلمين وكان رستم يرغب في التفاوض والتفاهم بالحكمة .

وكان رستم يخشى من الاشتباك مع المسلمين لما علمه من حبهم للموت على الحياة ومن انتصاراتهم في كل مكان ولهذا لم يصل إلى القادسية إلا بعد أربعة أشهر لعل يزدجرد يقبل الصلح .

وطلب رستم من سعد بن أبي وقاص أن يرسل له رسولا يتكلم معه فأراد أن يرسل وفدا كما فعل مع الملك ولكن ربعي بن عامر قال له إن الأعاجم لهم مفاهيم أخرى فإذا ذهبنا لهم بوفد كهذا استكبروا لأن قد احتفلنا بهم . فأرسله سعد منفردا ودخل على رستم راكبا فرسه حاملا سيفه في ملابس بالية وشق وسادتين ربط فيهما الفرس بعد أن وقف به على البساط ومزق الحرير والنمارق برمحه وجلس على الأرض فسأله عن السبب قال لا نحب أن نجلس على زينتكم هذه فقال له الترجمان ما جاء بكم هنا ؟

قال ربعي إن الله هو الذي بعثنا ليخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إلى دين الله فمن قبل ذلك قبلنا منه وتركناه وأرضه . قال رستم سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤجلوا هذا حتى ننظر فيه وتنظروا أنتم .

قال ربعي نعم وكم أحب إليكم ؟ أيوما أو يومين ؟

قال رستم حتى نكاتب أهل الرأي والرؤساء في قومنا .

قال ربعي إن ما سنه له رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن نمكن الأعداء ثلاثا

فانظر في أمرك خلال هذا الأجل فإما أن تسلم وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ذلك ونكف عنكم وإن احتجت إلينا نصرناكم ودافعنا عنكم أي مقابل الجزية فإذا رفضتم فالمنابذة أي الحرب في اليوم الرابع ولا نبدؤكم بذلك في هذا اليوم إلا أن تبدأنا أنت بذلك وأنا كفيل بذلك عن أصحابي .

قال رستم أسيدهم أنت ؟

قال ربعي لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم .

وقد استشار رستم أصحابه فيما سمعوه ولكنهم استكبروا فأرسل مرة أخرى إلى سعد بن أبي وقاص يطلب رجلا آخر فأرسل إليه حذيفة بن محصن فحاوره رستم فلم يجد عنده إلا ما عند الأول .

وفي اليوم الثالث طلب رستم رجلا آخر فحضر إليه المغيرة بن شعبة فلم يجد عنده إلا ما عند صاحبيه ولكن رستم أظهر له الاستخفاف بالمسلمين لأن العرب كانوا يلجئون إلى الفرس عند المجاعة فيقنعون بشيء من التمر والشعير وأنهم مستعدون أن يفعلوا ذلك مع الجيوش الإسلامية فأوضح له المغيرة أنهم لا يطلبون الدنيا وكرر عليه الخيارات الثلاثة في الإسلام : الإسلام أو الجزية أو القتال .

وقال رستم والشمس (أي أقسم بالشمس) لا يأتي الغد حتى نقتلكم جميعا . وما إن انصرف المغيرة حتى قال رستم لرجاله إن هؤلاء القوم صادقون ولا يختلفون فأصر قادة الفرس على موقفهم[1] .

نهاية رستم والمعركة :

قاد رستم جيوشه وهو على سريره لإظهار الاستخفاف بالمسلمين أما سعد فكان قد مرض ووضع تحت صدره وسادة وأشرف على المسلمين من سطح القصر وأمر بتحريض المسلمين على القتال عند صلاة الظهر فإذا انتهت الصلاة وسمعوا التكبيرة

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص523 .

الرابعة فعليهم الزحف حتى يخالطوا الفرس وأن يقرءوا سورة الأنفال ونشبت المعركة واستمرت أربعة أيام لا تهدأ حتى قتل من بني أسد خمسمائة في اليوم الأول فاستنجد سعد بعاصم بن عمرو ليحمي بني أسد فأمرهم أن يصوبوا السهام نحو راكبي الفيلة وأن يقطعوا الحبال التي تشد الصناديق على ظهور الفيلة فلما فعلوا ذلك هاجت الفيلة وقتل كل فيل صاحبه .

وهكذا رد بنو تميم فرسان الفرس عن بني أسد .

وفي اليوم الثاني وصلت طلائع الجيش القادم من الشام فانغمس هذا الجيش في صفوف الفرس وفي مقدمته القعقاع بن عمرو ونادى بالمبارزة فخرج إليه القائد الثاني بعد رستم فهجم عليه وأرداه قتيلا وصاح بالمبارزة فأخرجوا له قائدين فقتل القعقاع الأول وقتل الحارث بن ظبيان الآخر ونادى القعقاع يا معشر المسلمين احصدوهم بالسيوف حصدا واستمر القتال إلى منتصف الليل .

وكان أبو محجن محبوسا في بيت سعد تعزيرا له عن ذنب فلما دارت المعركة استعطف سلمى امرأة سعد بن أبي وقاص لتفكه ليحارب مع المسلمين ففعلت ذلك فركب فرس سعد وانضم إلى ميمنة المسلمين وأخذ يقصف الفرس قصفا لا يوجد مثله ولم يعرفوه ولما علم سعد قصة أبي محجن عفا عنه وقال لا نؤاخذك بما تقوله بلسانك حتى تفعله فقال والله لا أجيب لساني إلى قول قبيح أبدا[1] .

وفي اليوم الثالث كان القتلى والجرحى من المسلمين نحو ألفين ومن المشركين نحو عشرة آلاف واستمر القتال حتى المساء والفريقان متعادلان بسبب الجيوش الجرارة التي كان يرسلها يزدجرد وسمي هذا اليوم يوم عمواس[2] .

وأصبح الصباح والجيوش لا تعرف النوم أو الراحة وصاح فيهم القعقاع اصبروا ساعة فإن النصر مع الصبر فتزاحموا حتى اختلطوا بجيش رستم وأزاحوا قائديه عن

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص330 .

(2) الطبري ج3 ص556 .

مكانهما وخلعت الريح خيمة رستم وتقدم القعقاع ومن معه حتى وصلوا إلى سرير رستم فإذا به قد ركب بغلا ومعه جنود ببغال أرسلها الملك فقطع هلال بن علفة حبالها فسقط رستم وكسرت فقرات ظهره فضربه هلال بالسيف فتحامل رستم وألقى بنفسه في النهر فأخرجه هلال إلى الشاطئ وقتله بعد أن ألقى به تحت أرجل البغال ونادى في المسلمين أنه قد قتل رستم وانقطعت آمال الفرس بموت رستم فاجتمع المسلمون وكبروا فرحا بنصر الله . وكان شهداء المسلمين ثمانية آلاف وخمسمائة في ثلاثة الأيام وقتلى الفرس خمسين ألفا .

وأرسل سعد بهذا الانتصار إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقرأ هذه الرسالة على المسلمين[1] .

فتح المدائن :

ظل سعد بن أبي وقاص بالقادسية حتى تصله أوامر الخليفة عمر بن الخطاب ، وفي نهاية شهر شوال سنة خمس عشرة هجرية أي بعد شهرين جاءه خطاب من الخليفة بالذهاب إلى المدائن فتوجه بجيشه يتقدمه مجموعات حربية يحمي هو ظهورها بجيشه ويرأس هذه المجموعات زهرة بن الحوية وعبد الله بن المعتم وشرحبيل بن السمط وهاشم بن عتبة وسبقهم زهرة إلى الكوفة ثم أدركه عبد الله وشرحبيل فتركهما بالكوفة وتوجه نحو المدائن وفي الطريق تصدى له جماعة من الفرس فهزمهم وقتل قائدهم واتجه زهرة إلى بابل حيث عقد صلحا مع دهقان في ببرس وأخبره دهقان بالتجمعات الحربية في بابل فظل في ببرس حتى يأتيه التوجيه من سعد بن أبي وقاص في شأن أهل بابل[2] .

فرأي سعد أن يتقدم عبد الله وشرحبيل وهاشم لينضموا إلى زهرة ويكون هو من خلفهم ونزلوا جميعا في بابل حيث كان جنود الفرس بقيادة الفيروزان فهزمهم

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص337 .

(2) المرجع السابق ص325 وتاريخ الطبري ج3 ص620 .

سعد هزيمة منكرة بأسرع ما يمكن في أي معركة في التاريخ حتى قال عنها المسلمون إنها أسرع من لفت الرداء .

وفر الهرمزان نحو الأهواز وهرب الفيروزان إلى نهاوند واستولى على كنوز كسرى وذهب مهران ونخيرجان إلى المدائن بعد أن عبرا نهر دجلة وقطعا جسره لمنع المسلمين من العبور .

وكانت مدينة بهرسير أو نهر شير هي خط الدفاع الأول عن المدائن العاصمة وهي إحدى سبع مدن تسمى بالمدائن وقد حشد فيها كسرى أعدادا هائلة من الجنود لحمايته .

تقدم زهرة نحو هذه المدينة فطلب قائدها دهقان الصلح فبعث به زهرة إلى سعد وتصالحا على الجزية . وتقدم زهرة نحو المدائن فتصدت له بوران بنت كسرى التي تولت الملك قبل يزدجرد حيث كان تحت قيادتها كتيبة تعهدت أن يموت أفرادها ولا يزول ملك فارس وكانت الكتيبة قد دربت أسدا كبيرا من أسود كسرى ليتقدمهم في طريق المسلمين حتى يقع الرعب في نفوسهم فقام هاشم بن عتبة وصارع بسيفه الأسد وانهال عليه ضربا بالسيف حتى قتله وكان سعد بن أبي وقاص قد نزل بجنوده وشهد شجاعة هاشم بن أخيه وقبله وتقدم هاشم نحو هذه الكتيبة وهزمهم هزيمة نكراء وهو يردد قول الله تعالى ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ وتتابعت كتائب المسلمين تعلو أصواتها بالتكبير حتى وصلت كتيبة سعد واجتمع الجميع عند بهرسير[1] .

فتح بهرسير والمدائن القصوى :

وحاصر سعد مدينة بهرسير وهي إحدى مدن المدائن السبع لمدة شهرين في شهر ذي الحجة سنة خمس عشرة هجرية ثم نصب حولها عشرين منجنيقا كانت ترمي أهل المدينة فخرجوا للقتال هروبا من قذائف المنجنيق ثم لاذوا بالفرار داخل المدينة

---

(1) الكامل لابن الأثير ج2 ص354 وتاريخ الطبري ج3 ص623 .

التي أكل أهلها الكلاب من الجوع فجاء رسول يزدجرد يحمل عرضا من الملك أن يكون للفرس المدن التي تصل من المدائن إلى نهر دجلة وأن يكون للمسلمين ما بعد النهر ورفض المسلمون ذلك وفر أهل بهرسير إلى المدائن وتركوها خاوية على عروشها ووصل المسلمون إلى نهر دجلة فوجدوا الجسور كلها مقطعة فلا يستطيعون العبور ولكن بعد أيام جاء الفيضان وملئ نهر دجلة وفاض ورأى سعد بن أبي وقاص في نومه أن خيول المسلمين عبرت دجلة فاستيقظ من النوم فرحا وعزم على تفسير الرؤيا بالعبور الفعلي وأعلن للجيش أنه عزم على اقتحام البحر فقالوا عزم الله لك ولنا على الرشد فافعل ما شئت .

ولم يكن للمسلمين أي خبرة بعبور البحار والأنهار أو التعامل معها ولكنهم وافقوا على الفور بخوضها والقتال فيها لأنهم أيقنوا أن النصر من عند الله وأن الله سيتم نوره ويظهر دينه .

وتقدم عاصم بن عمرو ومعه ستمائة وأعلنوا أنهم يضحون بأنفسهم تحت تصرف قائدهم وجعل سعد بن أبي وقاص عاصم أميرا عليهم فتقدم بهم عاصم حتى وقفوا على شاطئ نهر دجلة وسميت هذه الكتبة بكتيبة الأهوال وقسمها نصفين نصف للاقتحام والنصف الآخر بقيادة أخيه القعقاع بن عمرو لحمايتهم فما إن تقدم عاصم ومن معه بكتيبته (الأهوال) ودخلوا النهر حتى تبعهم القعقاع في صمت بكتيبته التي سميت الخرساء فأخذت الفرس الدهشة حين رأو الخيول تعبر النهر وقالوا إن هؤلاء من الجن واستولت هاتان الكتيبتان على ما يلي الشاطئ الشرقي وتسمى الفرضة الشرقية لهذا اقتحم سعدا وقواته نهر دجلة ولم يتخلف أحد ومشوا على المياه كما يمشون على الأرض وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه يرافق سعدا في هذه المعركة وعبرت الجيوش النهر كما عبرت الخيول المياه دون أن يغرق أحد أو يضيع متاع والتحمت الجيوش بحامية الفرضة واقتتلوا مع جيوش الفرس قتالا شديدا فجاء رجل من الفرس ونادى في جيوشهم لماذا تقتتلون والمدائن ليس فيها أحد[1] ؟!

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص13 والكامل لابن الأثير ج2 ص357 .

وهكذا سقطت المدائن القصوى وهرب يزدجرد بما يستطيع حمله وأخذ أولاده متجها إلى حلوان ووقف المسلمون أمام القصر الأبيض بالمدائن بزخارفه وزيناته وضخامته وشرفاته وتذكروا بشرى الرسول ﷺ بفتح المدائن .

واكتشف المسلمون أنه يوجد داخل القصر بعض الجنود متحصنين فيها فخاطبهم سلمان الفارسي بلغتهم كما كان يخاطب غيرهم من أهل الفرس فقال لهم (إني منكم في الأصل وأنا أرق لكم وأدعوكم إلى ثلاث ، فإن تسلموا فأنتم إخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين)[1] .

وقبل أهل القصر أداء الجزية مقابل حمايتهم وعلم أهل المدائن بذلك فعادوا إليها بعد هروبهم منها والتزموا بهذا الصلح .

ودخل سعد القصر الأبيض وجعل إيوان كسرى مصلى وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن كما صلى أول جمعة في هذه البلاد في صفر سنة ست عشرة للهجرة[2] .

وكان تاج كسرى كبيرا ثقيلا لا يستطيع أحد حمله وكان مشدودا بسلاسل من الذهب وكان البساط قد نقشت عليه صور للمدن والبلدان بحيث يستطيع أن يسأل عن كل مدينة وحاكمها وهو في مجلسه ليقف على أحوالها ولم يخطر ببال أحد من المسلمين أن يضع يده على شيء مما تحت يده وظلت عائلات المسلمين في المدائن حتى فتح تكريت والموصل وغيرها فتحولت هذه الأسر وغيرها إلى الكوفة وأرسل خمس الغنائم إلى المدينة وفيها بساط كسرى والتاج والسواران وسيفه وزبرجده وقال جابر بن عبد الله والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على رجل من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة . وقال عمر إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة فقال علي إنك عففت فعفت الرعية .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص14 .

(2) الكامل لابن الأثير ج2 ص358 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص66 .

فتح جلولاء :

عندما فر يزدجرد من المدائن باتجاه حلوان وجد عددا من الجنود فجعل عليهم القائد مهران أميرا وأقاموا بمدينة جلولاء وتحصنوا بها وحفروا الخنادق فبعث سعد إلى الخليفة فأمره أن يظل في المدائن وأن يرسل إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وحدد الخليفة أربعة قواد ووزع أماكنهم تحت قيادة هاشم ففتح الله هذه المدينة .

فتح حلوان :

لقد هرب القائد فيروزان إلى حلوان وانضم إليه المنهزمين واتفقوا مع الملك يزدجرد أن يترك حلوان ويعسكر في مدينة الري (طهران حاليا) وقد بعث هاشم بن عتبة القعقاع بن عمرو إلى حلوان فانتصر على حاميتها واستلم المدينة .

فتح الموصل وتكريت :

توجه عبد الله بن المعتم على رأس جيش إلى تكريت بأمر الخليفة عمر فوجد فيها جماعة من الروم ومن النصارى العرب ومن أهل الموصل وحاصرهم أربعين يوما حتى فتحها بعد أن قتل من ظل فيها محاربا وصار ربعي بن الأفكل إلى الموصل وأجبر أهلها على الصلح .

فتح ماسبذان :

لقد علم سعد بتجمع بعض جنود الفرس في هذه المدينة وهي على يمين حلوان فأخبر الخليفة فأمرهم أن يتوجه إليها جيش بقيادة ضرار بن الخطاب فانتصر عليهم وفر أهلها إلى رءوس الجبال فدعاهم إلى العودة والتصالح والبقاء في المدينة فاستجابوا .

فتح الأهواز :

كان الهرموزان قد استولى على الأهواز بعد أن فر إلى القادسية واتخذ منها مقرا للكر والفر في البلاد التي فتحها المسلمون فأجبره المسلمون على الصلح ثم نقضه

بالاستعانة ببعض الأكراد فهزمه المسلمون فتحصن في تستر (ششتر حاليا) فرفض أهلها لوجود عقد صلح بينهم وبين المسلمين فاضطر الهرموزان للصلح ثم نقض هذا الصلح مرة أخرى بتحريض من يزدجرد فلما علم الخليفة أمر بإرسال جيش من الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن وأن يسير جيش آخر إلى البصرة بقيادة سهيل بن عدي وأن يكون القائد على الجميع أبو صبرة بن أبي .

وقد تبين له أن الهرموزان جمع عددا كبيرا من المحاربين وطلب الخليفة من أبي موسى الأشعري أن يرسل إلى المسلمين مددا فسار نحوهم وحاصروا الفرس حتى فتحت الأهواز وتم القبض على الهرموزان وأرسل إلى الخليفة بالمدينة وعاد أبو موسى إلى البصرة وظل أبو صبرة متجها بالهرموزان إلى المدينة وبحث عن الخليفة فلم يجده في بيته ولا في المسجد ودله بعض الصبيان أنه نائم في زاوية بالمسجد فلما رآه الهرموزان دهش لعدم وجود مظاهر الملك والسلطان والحرس والحجاب .

فتح نهاوند :

تجمع الفرس في مدينة نهاوند فرفض الخليفة أن يرسل إليهم جيشا حتى يستريح المسلمون وحتى لا يتشتتون في بلاد فارس الواسعة فلما وصل إليه الأحنف بن قيس في الوفد الذي أتى بالهرموزان وسأله الخليفة عن أهل الذمة وهل يعدلون بينهم أم لا ؟ وإذا كانوا يعدلون بينهم فلماذا نقضوا العهد ؟ فأجابه بأنك نهيتنا عن التفرق في البلاد بينما ملك فارس يتحرك بينهم وأن ملكهم هو الذي يحرضهم على نقض العهد وسيظل الحال كذلك حتى تأذن لنا في الانبعاث في هذه المدن . فقال عمر : صدقتني وأصر أن يسير بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس فلم يقبل الصحابة ذلك وأقنعه علي بن أبي طالب أن يظل بالمدينة فكتب الخليفة إلى حذيفة بن اليمان أن يتحرك بجنده من الكوفة وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنده إلى البصرة وإلى النعمان ابن مقرن وأن يصلوا جميعا في نهاوند ثم يقودهم النعمان ورشح بعده عدة أمراء يلي كل منهم عند قتل الآخر وكانت جيوش الفرس في نهاوند تزيد على مئة ألف بينما جيوش المسلمين نحو ثلاثين ألفا حاصرت هذه المدينة ولما طال الحصار أشا

القواد بالتراجع والابتعاد عن المدينة حتى يخرجوا من الحصون ففعلوا ذلك وخرجوا من الحصون وفاجأهم القعقاع بالقتال ثم تراجع أمامهم ليستدرجهم متظاهرا بالهزيمة فلحقه الفرس حتى ابتعدوا عن حصونهم فبدأ النعمان بالتوجه للمدينة والقتال حتى قتل من الفرس أكثر من ألف رجل واستشهد النعمان ولم يعلم به إلا أخوه نعيم فأخفى ذلك عن الجنود وسلم الراية لحذيفة بن اليمان حتى انتصر بالمسلمين وأخبرهم بمصرع النعمان وقد فر الفيروزان قائد الفرس وتتبعه القعقاع وقتله وفتح المسلمون أصبهان وقم وكرمان .

وأعطى الخليفة الأوامر لسبعة من القواد للتحرك في أعماق بلاد فارس بغض النظر عن التجهيزات الحربية والمعدات والجنود لأن النصر من عند الله فكان القواد هم :

(1) نعيم بن مقرن ، اتجه إلى همدان وفتحها ثم إلى الري (طهران) وفتحها وبعث بكير بن عبد الله إلى أذربيجان لفتحها يساعده عتبة بن قرقة من الجهة الثانية وأرسل أخاه سويد بن مقرن إلى قوس بأمر من الخليفة فدانت له سلما كما صالحه أهل جرجان وطبرستان .

(2) سراقة بن عمرو : اتجه نحو باب الأبواب بجيش في مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فطلب ملكها الصلح فأرسله عبد الرحمن إلى سراقة فبعث سراقة إلى الجبال بكير بن عبد الله وآخرين لتستسلم وأقر الخليفة الصلح ومات سراقة وتولى مكانه عبد الرحمن بن ربيعة .

(3) الأحنف بن قيس : توجه على رأس جيش إلى خراسان ففتحها واستخلف عليها صحار العبدي واتجهت الجيوش نحو بلخ حيث وصلها يزدجرد واستطاع أهل الكوفة دخول بلخ ففر يزدجرد إلى بلاد ما وراء النهر وأرسل الأحنف مطوف بن عبد الله إلى نيسابور وأرسل الحارث بن حسان إلى سرخس .

واستخلف على تخارستان ربعي بن عامر التميمي وكتب الأحنف إلى الخليفة بفتح خراسان فأمره ألا يتجاوز النهر .

(4) عثمان بن أبي العاص : أرسله على رأس جيش إلى إصطخر فعبر الخليج العربي

من البحرين وفتح جزيرة بركاوان ودخل أرض فارس وفتح إصطخر وشيراز وجور وانضم إليه أبو موسى الأشعري بأمر من الخليفة .

(5) سارية بن زنيم الكناني : قاد جيشا نحو تحشد للفرس فحاصرهم واستغاثوا بالأكراد فكثر عددهم مع قلة المسلمين فلجأ سارية إلى سفح الجبل وواجه الفرس من جهة واحدة فاستطاع الانتصار عليهم وقد صعد سارية إلى الجبل بناء على نداء سمعه من عمر بن الخطاب وكان عمر يخطب يوم الجمعة في المدينة فنادى من على المنبر (يا سارية الجبل الجبل ..... من استرع الذئب فقد ظلم) وقد سمع سارية هذا النداء وهو في بلاد فارس فصعد بالمسلمين إلى الجبل واتخذ هذه الخطة فنصرهم الله .

(6) عاصم بن عمر التيمي : تحرك على رأس قوة من البصرة إلى سج استان ففتحها بعد حصار طويل .

(7) سهيل بن عدي الخزرجي : توجه بجيش إلى كرمان ففتحها .

(8) الحكيم بن عمير التغلبي : قاد جيشا إلى مكران وتبعه مدد من المسلمين وقابل العدو على شاطئ النهر ودخل المسلمون معسكر الفرس وفتحوا المنطقة كلها .

(9) عتبة بن فرقد : توجه إلى شمال غرب بلاد الفرس ففتحها .

خالد والأمراء بين أبي بكر وعمر :

لقد كانت لعمر بن الخطاب سياسة خاصة بالنسبة للقواد والأمراء ، فأبو بكر لم يكن ليعزلهم بدون شكوى منهم ، أما عمر فكان يعَزل هؤلاء ويجعلهم جنودا مجردين من أية رتبة لا لشيء إلا ليظل التجرد والإخلاص لله هو غاية الكبير والصغير من المسلمين .

وأيضا كان يرسل الأوامر إلى القادة في كل أمر وكان يدير المعارك من مكانه بالمدينة فيوزع هو القادة على الميمنة والميسرة والمقدمة والنهاية ، وهذا لم يكن ينتظره خالد بن الوليد حيث كان يجتهد في ميدان المعركة ولا ينتظر ليستشير الخليفة في ذلك ولهذا قد عزله عمر بن الخطاب في بداية خلافته وخصوصا أن شهرته في

الانتصارات قد شاعت في الآفاق فأراد أن يوقن الجميع أن النصر من الله وحده ولكن لم يهمل خبرته واستعان به في فتوحات بلاد الفرس أيضا .

ويضاف إلى ذلك أنه لما عزل عمر خالدا ، قال (لم أعزل خالدا عن سخط ولا عن خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع)[1] .

ويجب أن نقول في عزل خالد ، ما يتفق مع منطق التقدير من عمر ، ومنطق التعليم من خالد بعد أن نغسل من صدورنا وعيوننا ، ما كتبه خصوم الإسلام ، والبلهاء من المسلمين في شأن خالد وعلاقته بعمر ، ونجرد الحقيقة التاريخية مما علق بها ، من حقد الحاقدين على رجلين عظيمين ، ارتفعت بهما قيم المسلمين ، واعتز بوجودهما الإسلام[2] .

فالعزل على مرحلتين :

الأولى : من القيادة العليا للجيوش مع بقائه في الميدان مع أبي عبيدة . وهذه كانت برغبة خالد ورضاه ، وحقيقتها هكذا :

إن السياسة التي كان يتبعها أبو بكر رضي الله عنه ، مع عماله ، هي الاستقلال في الرأي وترك حرية التصرف لهم ، فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها .

فلما تولى عمر ، نهج نهجا آخر مع الولاة والعمال . فكان يرى أن يحدد لأمرائه وولاته ، طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم . ويحتم عليهم أن يرجعوا إليه في كل صغيرة وكبيرة ، ثم يأمر هو بما يراه ، وعليهم ــ جميعا ــ التنفيذ . وكان طبيعيا أن ينزل على هذه السياسة بعض العمال ، ويرفض النزول عندها آخرون . وكان من الذين رفضوا « خالد بن الوليد » .

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج2 ص269 .
(2) خالد بن الوليد صادق عرجون ص275 وأباطيل يجب أن تمحي د . إبراهيم شعوط ص130 .

فيروي ابن حجر ، في كتاب « الإصابة » عن مالك بن أنس : أن عمر : لما ولي الخلافة ، كتب إلى خالد : ألا تعطي شاة ولا بعيرا إلا بأمري . فكتب إليه خالد ـــ بمثل ما كتب لأبي بكر : « إما أن تدعني وعملي ، وألا فشأنك بعملك ، فقال عمر : « ما صدقت الله ، إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله ، ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى ، إلا أن يخليه يفعل ما يشاء » فيأبى عمر[1] .

كان هذا بعد موقعة اليرموك وانتصار المسلمين على الروم .

فولى عمر أبا عبيدة بن الجراح قيادة الجيوش بعد عزل خالد منها وكان أبو عبيدة لا يتصرف إلا بمشورة خالد وأمره .

العزل **الثاني** : كان عندما كثرت الغنائم في حرب الروم فنسي خالد أنه جندي وتصرف كأمير فوزعها بسخاء حتى نال الأشعث الجندي عشرة آلاف دينار ، فوجد عمر أنه مازال يتصرف من نفسه .

وتبين لعمر إصرار خالد على أن يستقل بنفسه في تصرفاته ، كما لفت نظره إسراف خالد في العطايا والهبات .

ولما كان عمر مطمئنا إلى قوة إيمان خالد ، وأن من أسباب انتصاره في كافة المعارك ، إنما هو انتصاره على نفسه أولا ، فأراد أن يضرب به المثل الأعلى في طاعة ولي الأمر . فيتخذ منه ـــ وهو في قمة التقدير من جميع المسلمين ـــ وسيلة إيضاح لدرس يلقيه أمير المؤمنين على كافة القواد والولاة . فبدأ بخالد عندما بلغه أمر خروجه في حرب مع عياض بن غنم ، من غير إذن الخليفة ، ثم إعطائه الأشعث بن قيس عشرة آلاف دينار .

فأرسل إلى أبي عبيدة يأمره « أن يقيم خالدا ، ويعقله بعمامته ، وينزع قلنسوته ، حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ؟ هل من مال الله أم من ماله ؟ أم من إصابة

---

(1)خالد بن الوليد صادق عرجون ص275 وأباطيل يجب أن تمحي د . إبراهيم شعوط ص130 .

أصابها ؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها ، فقد أقر بالخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، ثم أمر أبا عبيدة أن يعزله على أية حال ، وأن يضم إليه عمل خالد . وأن يقاسمه ماله . ففعل أبو عبيدة ما أمره به عمر ، دون أن يراجعه خالد » في شيء مما فعل به ! .

ومن جملة ما سبق ، نستطيع أن نجمل أسباب عزل خالد ، في الأمور الآتية[1] :

أولا : اختلاف منهج عمر عن منهج خالد في السياسة العامة ، فقد كان عمر يصر — بكل عنف — على أن يستأذن في كل صغيرة وكبيرة ، بينما يصر خالد — بالأسلوب العسكري — على أن يعطى الحرية كاملة من غير الرجوع لأحد . وتطلق يده في كل التصرفات ، إيمانا منه بأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب .

ثانيا : كان عمر يرى : أن فترة تأليف القلوب ، وإغراء ضعفاء العقيدة بالمال والعطاء ، قد انتهت ، وصار الإسلام في غير حاجة إلى هؤلاء ، وأنه يجب أن يوكل الناس إلى إيمانهم وضمائرهم ، حتى تؤدي التربية الإسلامية رسالتها ، في تخريج نماذج كاملة ، لمدى تغلغل الإيمان في القلوب ، بينما يرى خالد أن ممن معه — من ذوي البأس والمجاهدين في ميدانه — من لم تخلص نيتهم لمحض ثواب الله وأن أمثال هؤلاء في حاجة إلى من يقوي عزيمتهم ، ويثير حماستهم من هذا المال .

فكان خالد — بناء على هذه النظرية — يعطي ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان ، اعتمادا على أن رسول الله لما رجع من حنين ، أعطى الطلقاء من رءوس قريش ، وأعطى أشراف العرب ، أمثال الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري والعباس بن مرداس ، وكل هؤلاء ليسوا في حاجة إلى العطاء . بينما ترك رسول الله ، سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار[2] !

---

(1) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ . د . إبراهيم شعوط ص133 .

(2) خالد بن الوليد الأستاذ صادق عرجون ص219 .

ثالثا : كان عمر ، يخشى افتتان المسلمين بالشخصيات ، التي انعقد النصر بألويتها في المعارك الكبرى . كما كان يخشى — أيضا — على هذه الصفوة من صحابة رسول الله ﷺ : أن يدخل الغرور إلى نفوسهم — وهم القواد العظام — من نافذة إطراء المسلمين إياهم ، وشدة تعلقهم بهم ، واطمئنانهم إلى وجودهم في الملمات .

وقد كشف عمر عن مكنون سريرته في هذه الناحية ، بالنسبة لكل من خالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة اللذين اقترن اسماهما بفتح الشام والعراق . فقال عمر قبل خلافته : « أما والله ، لئن صير الله هذا الأمر إلي ، لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلما أن الله هو الذي نصر ، ليسا هما »[1] .

رابعا : ولعل من الأسباب أيضا ، إفساح المجال لطلائع جديدة من القيادات ، حتى تتوفر في المسلمين نماذج كثيرة من أمثال خالد والمثنى ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه . ثم ليدرك الناس أن النصر ليس رهنا برجل واحد[2] ، مهما كان هذا الرجل .

وهذه الاجراءات والتصرفات لم تؤثر في نفس خالد .

لقد سما الإيمان بنفس خالد ، فجعلها تحلق في آفاق لا تعرف الغل ولا الضغينة ، شأن النفوس الكبيرة التي جعل الإسلام فيها رحابة لا تضيق ، ورفعها فوق الحوادث ، فأصبحت لا تبالي إلا بشيء واحد ، هو أن الأشخاص زائلة ، والدنيا فانية ، والحوادث منقضية ، والإسلام خالد ... لا يزول .

عمر يريد الله بما فعل :

إن موقف عمر يكشف عنه ما ختم به خالد حياته في موقفه مع عمر .

---

(1) صادق عرجون ص330 .

(2) عبقرية خالد للعقاد ص 216 .

روى ابن عساكر قال : « دخل أبو الدرداء على خالد في مرض موته ، فقال له خالد : يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر ، لترين أمورا تنكرها » فقال أبو الدرداء : وأنا ــ والله ــ أرى ذلك . فقال خالد : قد وجدت عليه في نفسي في أمور ، لما تدبرتها في مرضي هذا ــ وحضرني من الله حاضر ــ عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل .

كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إلي من يقاسمني مالي ، حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل . ولكنه فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ، وممن شهد بدرا .

وكان يغلظ علي . وكانت غلظته على غيري نحوا من غلظته علي .

وكنت أدل عليه بقرابته ، فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله .

فذلك الذي ذهب عني ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر علي عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر : فقد كنت في حرب ومكابدة . وكنت شاهدا وكان غائبا ، فكنت أعطي على ذلك ، فخالفه ذلك من أمري »[1] .

مؤامرة قتل عمر بن الخطاب :

كان للمغيرة بن شعبة عبد مجوسي أسمه فيروز ويكنى (أبا لؤلؤة) فاستأذن الخليفة أن يعمل في المدينة لمساعدته في الوفاء بالخراج الذي عليه للمغيرة حتى يصبح حرا ، وقال العبد يا أمير المؤمنين أعني على المغيرة فإني نجار ونقاش وحداد .

وكان عمر لا يسمح للعجم بالإقامة في المدينة ولكن المغيرة قال إن فيه منافع لأهل المدينة فأذن له[2] .

وجاء كعب الأحبار وقال يا خليفة المسلمين اعهد إلى غيرك فإنك ميت في ثلاثة أيام قال عُمر وما يدريك قال أجد ذلك في التوراة قال عمر ، وهل تجد عمر بن الخطاب في التوراة قال لا ولكن فيها صفتك وأجلك .

---

(1) الأستاذ صادق عرجون ص334 وأباطيل يجب أن تمحى ص136 .

(2) مروج الذهب للمسعودي جـ 2 ص 329 .

وفي صباح اليوم الثالث كبر عمر لصلاة الفجر كعادته في إمامته المسلمين فطعنه أبو لؤلؤة ست طعنات ، وهرب بين الصفوف ، وبيده سكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم ما يزيد على النصف ، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ذلك ألقى عليه برنسا له ، وأحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ لا محالة ، لذا فقد أقدم على الانتحار بالسكين ونظر عبد الرحمن ليرى ما حل بالخليفة فوجده صريعا ، وعليه ملحفة صفراء قد وضعها على جرحه الذي في خاصرته ، ويقول : (وكان أمر الله قدرا مقدورا) . وأخذ عمر بيد عبد الرحمن فقدمه للصلاة ، وفقد عمر بعد ذلك وعيه ، أما عبد الرحمن فقد صلى بالناس صلاة خفيفة .

ويذكر المسعودي أن المجوسي في محاولة الهرب طعن اثني عشر من المصلين مات منهم ستة ثم قتل نفسه بالخنجر ليخفي السر[1] .

فلما أفاق عمر قال : أصلى الناس ؟

قال عبد الله بن عباس : نعم .

قال عمر : لا إسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى ، وإن جرحه لينزف .

ثم احتمل إلى بيته ، فقال لابن عباس — وكان معه — : اخرج ، فسل من قتلني ، فخرج فقيل له طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طعن رهطا معه ، ثم قتل نفسه . فرجع وأخبر عمر بذلك ، فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط[2] .

ويروي الطبري أن عمر سأل ابنه عبد الله نفس السؤال فأجابه أنه أبو لؤلؤة فقال الجواب السابق[3] .

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص329 .
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 ص 345و 346 .
(3) تاريخ الطبري ج3 ص265 .

وأحضروا طبيبا من الأنصار فسقاه لبنا فخرج اللبن من جرحه ، فأيقن الطبيب أنه سيموت وقال له اعهد إلى غيرك يا أمير المؤمنين .

فقال الخليفة ما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه[1] .

فقال عبد الله بن عباس : لقد كان إسلامك عزا وإمارتك فتحا ولقد ملأت الأرض عدلا .

فقال عمر أتشهد بذلك يا ابن عباس ؟

فقال علي بن أبي طالب لابن عباس : قل نعم وأنا معك .

فقال ابن عباس نعم[2] .

وطلب عمر من ابنه عبد الله أن يوفي ديونه وأن يقرئ أم المؤمنين عائشة السلام ويستأذن منها أن يدفن مع النبي ﷺ وأبي بكر وقال لا تقل لها أمير المؤمنين فإني لست اليوم أميرا للمؤمنين ، وطلب من صهيب الرومي أن يصلي بالمسلمين الصلوات الخمس ، وضغط عليه الصحابة أن يستخلف أميرا للمؤمنين لمنع الفتنة فوضع نظاما نذكره في خلافة عثمان ولقد توفاه الله يوم الأحد صبيحة هلال المحرم أي بعد عشر سنوات وستة أشهر وثلاثة أيام من ولايته .

خيوط المؤامرة :

كان أبو لؤلؤة يمشي في شوارع المدينة و ينظر إلى الأطفال الأسرى من الفرس من أبناء بلدة نهاوند فيمسح على رءوسهم ويقول : عمر أكل كبدي ومرة يقول : العرب أكلت كبدي[3] ولقد كان هذا كافيا لتقييد حريته وبني جنسه ولكن نظام الإسلام سمح لهم بالأمن والحرية فخانوا .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص190 - 194 .

(2) الطبقات الكبري لابن سعد ج3 ص354 .

(3) المرجع السابق ص347 .

ويروي الطبري أن هذا المجوسي قد قال لعمر ، لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت فقال عمر فاعمل لي رحا .

قال أبو لؤلؤة : لئن سلمت لأعملن لك رحا يتحدث به من في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه .

فقال عمر لمن حوله (لقد توعدني العبد آنفا)[1] .

فقول المجوسي لو سلمت ، يعني أنه يعلم أن الخليفة لن يسلم وسيقتل ومع هذا التهديد فقد تركه الخليفة حرا ولم يقيد حريته .

أما جفينة فكان نصرانيا أقدمه سعد بن أبي وقاص المدينة ليعلم الناس القراءة والكتابة لقاء أجر معلوم[2] .

وأما الهرمزان فهو المجوسي الموتور الذي كان حاقدا على العرب والمسلمين بسبب هزيمة الفرس وأسر أطفالهم . وفي تحديد هذه المؤامرة يقول الدكتور محمد حسين هيكل (والذي نستطيع نحن أن نستخلصه من حديث أبي لؤلؤة مع عمر ، ومن قصة كعب أن الفارسي توعد أمير المؤمنين وأن اليهودي عين المؤعد ، الذي تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام)[3] .

ولكن كعب الأحبار هو كعب بن ماتع الحميري أدرك النبي ﷺ بعد أن قدم من اليمن ولم يسلم إلا في خلافة عمر وقد سأله ابن عباس ما منعك أن تسلم في عهد النبي ﷺ أو أبي بكر قال : إن أبي كان قد كتب لي كتابا من التوراة وقال اعمل بهذا وختم على سائر كتبه وأخذ علي العهد ألا أفض الختم عنها فلما رأيت ظهور الإسلام فتحتها فإذا بها صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلما أي سنة اثنتي عشرة من الهجرة[4] .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص190 ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص329 .
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص356 .
(3) الفاروق عمر . محمد حسين هيكل ج2 ص280 .
(4) الطبقات لابن سعد ج3 ص361 .

وابن سعد يعده من التابعين من أهل الشام وأبو الدرداء يشيد بعلمه الكثير .

ويروي ابن سعد أن كعب الأحبار كان واقفا أمام باب عمر يبكي وفاته ويقول لو أن أمير المؤمنين قد أقسم على الله أن يؤخر وفاته لأخرها[1] .

كما يروي ابن سعد في الطبقات أن الخليفة عندما أدرك تهديد العبد ، أراد أن يتأكد من ذلك فقال لعلي بن أبي طالب ما تراه أراد بذلك ؟

قال علي : يتوعدك يا أمير المؤمنين . قال عمر يكفيناه الله .

كما يروي ابن سعد عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما رأى الخنجر الذي قتل به عمر قال : رأيت هذا أمس من الهرمزان ، وجفينة . فقلت ما تصنعان بهذه السكين فقالا : نقطع بها اللحم فإنا لا نمس اللحم[2] .

كما يروي عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه مر على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم يتناجون فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه ، فنظر هؤلاء إلى الخنجر الذي قتل به عمر فوجدوا أنه نفس الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن عوف .

فهذه الروايات تكشف أن قتل الخليفة كان مؤامرة نفذها الهرمزان وجفينة وأبو لؤلؤة .

أما الهرمزان فكان له مكانة في قومه ويلبس الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللؤلؤ وقد عاهده المسلمون عدة مرات وكل مرة ينكث عهده ولما قبض عليه ورأى السيف فوق رأسه أعلن إسلامه وفي هذا قال الطبري أيقن الهرمزان أنه القتل أو الإسلام فأسلم[3] .

ولكن يروي الطبري[4] أيضا عن ولاية عثمان أن الخليفة الجديد ـــ وقد شهد أمامه الثقات أن الهرمزان هو الذي سلم هذا الخنجر إلى أبي لؤلؤة ـــ أمر بتسليم الهرمزان إلى عبيد الله بن عمر وقال له من حقك قتله .

---

(1) المرجع السابق .

(2) الطبقات الكبرى ج3 ص350 - 355 .

(3) تاريخ الطبري ج4 ص88 .

(4) تاريخ الطبري ج3 ص305 .

موقف الخليفة والصحابة من المؤامرة :

يروي الطبري أن عبيد الله بن عمر لما سمع من الشهود أن جفينة والهرمزان وأبا لؤلؤة كان معهم نفس الخنجر الذي قتل به أبو لؤلؤة الخليفة وكان من الشهود عبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن أبي بكر ـــ لما سمع عبيد الله ذلك انتظر حتى يتبين نتيجة هذه المؤامرة بعد أن أحضروا الطبيب لعلاج والده ، ولما مات أبوه في اليوم الخامس من طعنه ، حمل سيفه وتوجه إلى الهرمزان فقتله ولما طعنه بالسيف قال لا إله إلا الله فلم يطعنه غيرها ومات بهذه الطعنة .

ثم توجه إلى جفينة وطعنه بالسيف بين عينيه .

وأخيرا ذهب إلى بيت أبي لؤلؤة ليبحث عن باقي الشركاء في القتل فيقتلهم فوجد ابنة أبي لؤلؤة وكانت تخفي لأبيها السلاح فضربها بالسيف فأصابها في مقتل وماتت .

وخرج ليقول للناس (والله لأقتلن رجالا ممن شرك في دم أبي)[1] .

ولعل هذه العبارة يعني بها كعب الأحبار وبعض المنافقين بالمدينة ، وكان صهيب الرومي واليا على المدينة فأمر بالقبض على عبيد الله وحبس في دار سعد بن أبي وقاص حيث تولى حراسته حتى يختار المسلمون الخليفة الجديد وينظر في أمره[2] .

ولما بويع عثمان بن عفان خليفة قال لأهل الشورى ، أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق .

صحيح أن القاتل يقتل وأن الشركاء للقاتل والمعاونين له يقتلون لما استقر عليه عند فقهاء المسلمين أنه لو اجتمع جماعة على قتل واحد فإنهم يقتلون به جميعا ، ولو لم يباشر القتل كل واحد منهم ، فقد قتلت امرأة ابن زوجها وعاونها خليلها وذلك في خلافة عمر بن الخطاب فاستشار فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص302 , 303 سنة 23 .

(2) العبر ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج2 ص998 .

لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور أكنت قاطعهم ؟ قال نعم : قال وذلك . فقال عمر : لو اشترك في قتله أهل صنعاء كلهم لقتلتهم[1] .

وصحيح أن الإسلام يجعل لأهل المقتول الحق في القود أو العفو ، والقود أن يقاد الجاني إلى أولياء المقتول ليقتلوه إن شاءوا وذلك لما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال (من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يَفْتدي وإما أن يقتل) أي لولي المقتول أن يختار بين قبول الفداء أي الدية الشرعية أو قتل القاتل .

ولكن الفتق الذي فتقه عبيد الله بن عمر ، هو أنه تولى القصاص بنفسه وكان عليه أن ينتظر قرار الحاكم إذ قد يجد أن لدى أحد الجناة أي الشركاء في المؤامرة شبهة تمنع القصاص ، وأيضا لأن القود في الإسلام هو أن يتولى الحاكم اقتياد القاتل إلى ولي المقتول ليختاروا بين قتله أو قبول الدية ، بينما تتبع عبيد الله بن عمر الجناة بنفسه ولم يترك ذلك لسلطة الحاكم .

لهذا كان رأي علي بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن عمر لأنه قد فوت على الخليفة أمر التحقق من توفر شروط القصاص في حق الجناة وإن كانوا من أعداء الإسلام والمسلمين .

واعترض بعض المهاجرين وقالوا قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم .

فتقدم عمرو بن العاص برأي وهو أن عبيد الله بن عمر لم يعتد على سلطان الخليفة فلم يكن قد تم اختياره ، قال (يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك) .

فكان قرار عثمان هو (أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي)[2] .

---

(1) فقه السنة للشيخ سيد سابق ج3 (القصاص) ص 531 .

(2) تاريخ الطبري ج3 ص302 سنة 23 .

بل يروي الطبري أيضا أن الخليفة قد مكن ابن الهرمزان من عبيد الله بن عمر ليقتص منه وأنه تأثر من ذلك واختار العفو عنه[1] .

ومع هذا دفع الخليفة الدية الشرعية من ماله الخاص .

إنه لا يوجد في القديم أو الحديث أي نظام قد كفل لخصومه وأعدائه هذه الحقوق ، فالخليفة سمع تهديده بنفسه من عبد مملوك ولكن هذا التهديد ليس صريحا فتركه حرا ولم يقيد حريته أو حرية المشتبه فيهم .

كما أنه لم يطالب أحدا من ورثة الجناة بحق أو دية لأنهم موقنون أن الخطيئة تطوق أعناق الجناة بل وأعناقهم لأنهم كانوا على علم بهذه المؤامرة وبالتخطيط المسبق لها ومنهم من ساهم فيها . ومع هذا كفل لهم نظام الإسلام ما لم يكن يدور بخاطرهم ، فتم القبض على عبيد الله بن عمر ، وتركوا هم وباقي المشتبه فيهم بكامل حريتهم فلم يوضع أحد منهم تحت التحفظ أو المراقبة ، بل ظل بعض المسلمين يوجه اللوم لعبيد الله بن عمر بعد قرار الخليفة عثمان بأكثر من عام بل كان زياد بن لبيد البياضي يقول أشعارا في مواجهة عبيد الله كلما رآه وفيها :

أصبت دما والله في غير حله   حراما وقتل الهرمزان له خطر[2]

ولما شكا عبيد الله بن عمر إلى عثمان بن عفان من أشعار زياد طلب الخليفة هذا الشاعر ونهاه عن ذلك ، فأنشد في حق الخليفة :

أبا عمرو عبيد الله رهن   فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه   وأسباب الخطا فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق   فمالك بالذي تحكي يدان[3]

---

(1) تاريخ الطبري ج 4 ص240 - 243 والغزو الفكري للتاريخ والسيرة ص346 والحكم وقضية تكفير المسلم ص128 .

(2) تاريخ الطبري ج3 ص 302 , 303 .

(3) المرجع السابق .

ولقد كان قرار عثمان بالعفو عن عبيد الله بن عمر ضمن التهم التي وجهت إليه ، وقد رد على ذلك القاضي أبو بكر بن العربي ، فقال هذا كله باطل سندا ومتنا وذكر أن هؤلاء تعلقوا برواية الكذابين[1] .

موقف كعب الأحبار :

إنه من المحققين في العصر الحديث من يحكم باشتراك كعب الأحبار في المؤامرة بما ذكره من إخبار بموت الخليفة بعد ثلاثة أيام وحدد اليوم ، ثم قتل في نفس الموعد زاعما أن ذلك في التوراة وهي بين أيدينا تكشف كذبه[2] .

ولكن قدامى المؤرخين المسلمين كابن سعد في الطبقات وابن كثير في البداية والنهاية يبرئون كعب الأحبار لأن الاتهام في الإسلام لا يثبت بالشبهات ولا بالقرائن .

بل يشكك ابن كثير في الأقوال المنسوبة إلى كعب لأن وعيد أبي لؤلؤة للخليفة كان عشية يوم الثلاثاء وقد طعنه فجر يوم الأربعاء فقصة ثلاثة الأيام لا وجود لها[3] .

* * *

(1) العواصم من القواصم لابن العربي ص 28 والغزو الفكري ص 340 .

(2) عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ص 249 دار الكتب العلمية بيروت ، ومحمد حسين هيكل : الفاروق عمر ج2 ص 280 .

(3) البداية والنهاية . إسماعيل بن عمر بن كثير ج7 ص137 .

الفصل الخامس

الخليفة الثالث عثمان بن عفان

- نشأته وإسلامه
- نظام الشورى ومبايعته واختياره
- سياسة عثمان الداخلية والخارجية
- الأعمال العسكرية ومواجهة المتمردين
- المعارك البحرية والأسطول البحري
- المفتريات ضد عثمان بن عفان
- فقه أبي ذر والخلفاء
- أسباب الثورة على الخليفة
- خيوط المؤامرة وقتل الخليفة

الخليفة الثالث : عثمان بن عفان

نشأته وإسلامه :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمه هي أروى ابنة كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمها هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ . فيلتقي نسبه من ناحية أبيه بالرسول ﷺ وكذلك من ناحية جدته لأمه[1] .

ولد في الطائف سنة 47 قبل الهجرة أي أنه أصغر من الرسول ﷺ بست سنوات تقريبا .

كان أبوه من أثرياء مكة ومن كبار التجار فيها ونشأ ابنه عثمان تاجرا فكثر ربحه وكان سخيا يجود على قومه بما لديه فكان محبوبا بينهم وكان وجيها وسيدا في بني أمية .

وعندما نزل الوحي على النبي ﷺ كان عثمان في الرابعة والثلاثين من عمره فدعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام فكان سباقا لهذه الدعوة وفي هذا قال ابن إسحاق : كان أول الناس إسلاما بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة[2] .

وعندما أسلم حاول عمه الحكم بن أبي العاص أن يرده عن الإسلام وقال له : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، فلم يستجب له فربطه بالحبال وحبسه وقال : لا أحل الرباط أبدا حتى تترك هذا الدين فقال عثمان : والله لا أدع هذا الدين أبدا

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص444 .

(2) تاريخ الخلفاء الراشدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي ص 150 ، الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ج3 ص55 .

ولا أفارقه ، وظل مستمسكا بدينه حتى يئس عمه[1] .

وكان شديد الحياء ولهذا كان يميل إلى الصمت ، قال عبد الرحمن بن حاطب : ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ إذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان إلا أنه كان رجلا يهاب الحديث[2] .

وهذا الحياء اقترن بعزيمة صادقة وثبات نادر ، فلم يستجب للثوار عندما طالبوه أن يتنازل عن الخلافة لا حبا في الدنيا بل لأنهم رفعوا السلاح عليه وخيروه بين القتل أو أن يعزل نفسه فرفض حتى لا تصبح سنة وقال : لا أنزع سربالا سربلنيه الله[3] .

وقد روي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) .

وفي رواية أخرى قال : أصدق أمتي حياء عثمان[4] .

وقد تزوج رقية ابنة النبي ﷺ وهي التي هاجرت معه إلى الحبشة ثم هاجرت معه إلى المدينة المنورة ولهذا قال النبي ﷺ : (إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط)[5] .

وعندما استعد للخروج يوم بدر مرضت زوجته السيدة رقية فأبقاه الرسول ﷺ بمرضها حتى ماتت ، وقد ضرب له الرسول ﷺ بسهم مع المجاهدين في غزوة بدر كمن شهدها[6] .

وبعد وفاة رقية زوجه الرسول ﷺ ابنته الثانية أم كلثوم وظلت معه حتى ماتت ولهذا سمي ذا النورين ، فلم يتزوج أحد قبله أو بعده ابنتي نبي من الأنبياء . وقد قال النبي ﷺ بعد وفاتها : لو كان عندي ثالثة زوجتها عثمان[7] .

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص555 .

(5,4,3,2) المرجع السابقة ص66 .

(7,6) الطبقات الكبري لابن سعد ج3 ص56 .

وبعد إسلامه كان يعتق كل جمعة أحد الرقيق وذلك ابتغاء مرضاة الله إلا أن يكون ليس بيده ما يعتق به الرقبة خلال الأسبوع فيعتقها بعد ذلك[1] .

وقد قام بتجهيز جيش العسرة واشترى بئر رومة من يهودي كان يبيع المياه للناس بثمن لا يقدر عليه الجميع وأوقفها في سبيل الله وعندما ندب النبي ﷺ المسلمين لشراء الأرض المجاورة لمسجد النبي ﷺ لتوسعته اشترى عثمان هذه الأرض[2] .

* * *

(1 ، 2) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص161 وص 152 .

نظام الشورى ومبايعته بالخلافة

عندما طعن المجوسي الحاقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأدرك بعض الصحابة أن هذه فتنة يراد بها الإسلام حيث كانت مؤامرة بقيادة الهرمزان أحد قادة جيوش الفرس والذي أسر وتم ترحيله إلى المدينة ودخل على عمر بن الخطاب وهو يلبس الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلئ فسأله الخليفة عن أسباب خيانته وغدره في عهده مع المسلمين مرارا فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . فلما أعطاه الخليفة الأمان لم يقل شيئا فاعتبر الخليفة هذه خدعة وقال : خدعتني والله لا أنخدع إلا أن تسلم فأسلم الهرمزان وكان إسلامه بهذه الصورة حيلة حتى لا يقتل بسبب الخيانات المتكررة له وفي هذا قال الطبري : أيقن أنه القتل فأسلم[1] .

لقد رأى عبد الرحمن بن عوف ومحمد بن أبي بكر الهرمزان ومعه الخنجر قبل أن يرتكب صنيعته أبو لؤلؤة المجوسي جريمة القتل وادعى الهرمزان وشريكه جفينة أن الخنجر معهما لقطع اللحم .

فلما طعن عمر أدرك كبار الصحابة هذه المؤامرة التي اشترك فيها هؤلاء الذين ينتمون إلى الفرس والروم فقد كان جفينة نصرانيا ، أما الهرمزان فهو من قواد الفرس أما أبو لؤلؤة فكان من نهاوند التي فتحها العرب المسلمون لهذا كان يمسح على رءوس السبايا من هذه البلدة ويقول : العرب أكلت كبدي كما كان يقول عمر أكل كبدي[2] .

---

(1) تاريخ الطبري ج 4 ص 88 والبداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير ج7 ص87 .
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص347 .

هذه المؤامرة جعلت الصحابة الذين أدركوا ذلك يلحون على عمر بن الخطاب أن يستخلف أميرا للمؤمنين من بعده حتى لا تكون فتنة وقد كانت جيوش المسلمين في بلاد الفرس والروم .

فوضع عمر وهو يستقبل الموت نظاما للشورى في اختيار الخليفة من بعده تحدد في قوله :

(إن مت فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقهم الرسول ﷺ وهو عنهم راض علي بن أبي طالب ، ونظيره الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ونظيره عثمان ابن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، ونظيره سعد بن مالك ، ألا إني أوصيكم بتقوى الله في الحكم والعدل في القسم[1] .

ثم كلف عمر بن الخطاب أبا طلحة الأنصاري أن يجهز خمسين رجلا من الأنصار لحراسة أهل الشورى الذين حددهم لاختيار أحدهم أميرا للمؤمنين وقال عمر للمقداد ابن الأسود إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط (أي الخمسين بقيادة أبي طلحة) في بيت حتى يختاروا رجلا منهم .

ولكن لاحتمال أن يكون ثلاثة من أهل الشورى على رأي والثلاثة على رأي مخالف فيظل الأمر معلقا أمر عمر أن يكون ابنه عبد الله معهم كمرجح بالرأي وليس له في الإمارة شيء[2] .

وحتى لا يطول الزمن دون أن يحسم أهل الشورى الأمر أو أن يستجد جديد يحول دون اختيار الخليفة لم يكتف عمر بالحراسة سالفة الذكر وبالمكان الأمين الذي يجتمع فيه أهل الشورى بل حدد لهم ثلاثة أيام ينتهون خلالها من هذه المهمة وقال لصهيب الرومي أنت أمير الصلاة في هذه الأيام الثلاثة حتى لا يولي إمامة الصلاة أحدا من الستة فيصبح هذا ترشيحا من عمر له بالخلافة .

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص61 والكامل لابن الأثير 3 ص50 .

(2) تاريخ الطبري ج4 ص229 والكامل لابن الأثير ج3 ص67 .

ولقد أدرك عمر أبعاد المؤامرة في اغتياله وخشي من اختلاف الستة فجمعهم والتفت إلى علي وقال له : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وما أتاك الله من الفقه والعلم فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحملن بني هاشم على رقاب الناس .

ثم قال لعثمان بن عفان : يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنك وشرفك ، فإن وليت هذا الأمر ، فاتق الله ولا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس .

وأمر عبد الله بن عمر أن يقف على رءوسهم فإن اتفق خمسة وأبى واحد يشدخ رأسه ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان يضرب رأسهما بالسيف وإن رضي ثلاثة برجل منهم وثلاثة برجل آخر فالحكم لعبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له ، يختار رجلا منهم فإن رفضوا ما يحكم به عبد الله بن عمر فالحكم للفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

وهذا التهديد من عمر وهذه الأوامر والاجراءات كفيلة لتجنب الفتنة وفي الوقت نفسه تحقق نظام الشورى بأن يتم اختيار الخليفة عن طريق الرعية فهؤلاء السبعة يمثلون كبار مجلس الشورى وكبار أهل الحل والعقد الذين اختارهم المسلمون ورضوا بهم ، فالمؤامرة وكذا انشغال الصحابة في حروب مع الروم والفرس ، لم تكن سببا في أن يغفل الخليفة الذي ينزف دمه ، أمر الشورى في اختيار الحاكم .

* * *

طريقة انتخاب عثمان بن عفان

عندما دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وكان طلحة غائبا وأمر المقداد أبا طلحة أن يحجبهم عن الناس وقال لهم أبو طلحة والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم عن الأيام الثلاثة .

ولقد أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه وقال : أيكم يخرج نفسه من الإمارة لينوب عنا ويوليها أفضلكم . فقال عثمان أنا أول من رضي وقال علي لعبد الرحمن ابن عوف لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم فقال عبد الرحمن أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي ضد من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين ، فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله[1] .

والتقى عبد الرحمن بن عوف بالصحابة رضي الله تعالى عنهم من أمراء الجنود وأشراف الناس وكان يذهب إلى من حضر إلى المدينة من البلاد المختلفة والذين علموا باغتيال عمر بن الخطاب وحضروا لهذا الغرض وأخذ يشاور الجميع خلال المهلة حيث كان الأمر قد انحصر في علي بن أبي طالب بعد أن تنازل له الزبير بن العوام ، وفي عثمان بن عفان لأن سعد بن أبي وقاص ترك حقه فيها إلى عبد الرحمن بن عوف الذي أخرج نفسه منها ، ولهذا كان يسأل الناس المفاضلة بين علي أو عثمان .

ولقد وجد من هذه المشاورات أن الغالبية تفضل عثمان بن عفان فقد كانوا يخشون من شدة علي بن أبي طالب بعد أن أخذهم عمر بالشدة وخشونة العيش وقد كان

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص231 .

عثمان مشهورا بالسخاء والعطف[1] .

لهذا سأل عبد الرحمن عليا لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أنه أحق به وأهل له ، فقال : عثمان .

ثم سأل عثمان نفس السؤال . فقال : علي .

وسأل سعد بن أبي وقاص . فقال : عثمان .

ولما صلى الناس الصبح في اليوم الثالث وهو آخر أيام المهلة المحددة لهم جمع عبد الرحمن أهل الشورى وأرسل إلى المهاجرين والأنصار وأمراء الجند ومن حضر إلى المدينة بعد موسم الحج لترقب اختيار الخليفة الجديد .

فشدد الجميع عليه أن يعلن اختيار من انتهت إليه المشاورات بموجب ما لديه من تفويض فنظر إلى عثمان وعلي وقال إني سألت عنكما وعن غيركما فلم أجد الناس يعدلون بكما وقال ذلك لأهل الشورى ثم سأل عليا لو آل إليك الخلافة ، عليك عهد الله وميثاقه أن تعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أعمل بكتاب الله وسنة رسوله ثم أعمل بمبلغ علمي وطاقتي أي أنه لا يلتزم بسيرة الخليفتين .

ثم دعا عثمان وأخذ عليه نفس الميثاق لو آل إليه الأمر قال عثمان نعم أعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين ثم تقدم ثلاثتهم نحو أهل الرأي والشورى وأمراء الجنود المجتمعين في المسجد وتأخر عثمان حياء من جهة ولاحتمال أن يكون الأمر إلى علي من جهة أخرى وظل يتأخر حتى أصبح في آخر المسجد .

وصعد عبد الرحمن بن عوف المنبر متلقدا سيفه ودعا الله بدعاء لم يسمعه الحاضرون ثم طلب عثمان وأخذ بيده وقال اللهم اسمع واشهد أني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك إلى عثمان فجلس عبد الرحمن بمقعد النبي ﷺ من المنبر وأقعد عثمان

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص231 والطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص60 والكامل لابن الأثير ج3 ص68 ، ص6 .

على الدرجة الثانية فتوافد الجميع يبايعونه فكان أول من بايع عبد الرحمن بن عوف باعتباره المفوض من أهل الشورى ومن الناس ثم تلاه علي بن أبي طالب[1] . ولهذا يروي بن سعد في الطبقات عن عمر بن عميرة بن هني عن أبيه عن جده قال رأيت عليا بايع عثمان أول الناس ثم تتابع الناس فبايعوه .

وفي نفس اليوم الذي بويع فيه عثمان حضر طلحة بن عبيد الله أحد رجال الشورى والذي كان غائبا وعلم بانعقاد الخلافة لعثمان فسأل الناس أكل قريش راض ؟ قالوا نعم قال أكل الناس بايعوه ؟ قالوا نعم . قال لا أرغب عما قد أجمع عليه الناس وبايعه على ذلك .

خطبة عثمان بعد المبايعة :

تروي المصار التاريخية أنه لما بويع عثمان بن عفان خرج وهو أشد الناس كآبة .

ومن فوق منبر الرسول ﷺ خطب في الجموع فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال : (إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ...)[1] .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص233 والكامل لابن الأثير ج3 ص71 والطبقات الكبرى لابن سعد ج2 ص62 وص 63 .

(2) الطبري ج3 ص305 والطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص62 ، ص 63 .

وانعقدت خلافته في الثالث من المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة وكانت أول صلاة له بالمسلمين هي صلاة العصر .

محاكمة عبيد الله بن عمر :

كان أول عمل للخليفة عثمان هو أن شرع في محاكمة عبيد الله بن عمر حيث كان، سعد بن أبي وقاص قد قبض عليه وحبسه في داره بعد قتل الهرمزان .

وتشير أكثر المصادر إلى أن الخليفة قد عفا عنه وألزم نفسه بالدية الشرعية من ماله الخاص ولكن الطبري[1] يذكر رواية عن شعيب عن سيف عن أبي منصور قال سمعت القماذ يحدث عن قتل أبيه فقال كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض فمر فيروز (أبو لؤلؤة) بأبي ومعه خنجر له رأسان فتناوله منه وقال ما تصنع بهذا في هذه البلاد ؟ قال أبس به فرآه رجل فلما أصيب عمر قال رأيت هذا مع الهرمزان ودفعه إلى فيروز فأقبل عبيد الله بن عمر فقتله ، فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه ثم قال يا بني هذا قاتل أبيك أنت أولى به منا فاذهب فاقتله ، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي إلا أنهم يطلبون إلي فيه أي يرجونه في العفو عنه . فقلت لهم ألي قتله ؟ قالوا نعم وسبوا عبيد الله . فقلت : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا لا وسبوه فتركته لله ولهم ، فاحتملوني فوالله فما بلغت المنزلة إلا على رءوس الرجال وأكفهم[2]. أي أنه لما عفى عن عبيد الله حملوا ابن الهرمزان على أكتافهم إلى منزلة .

ونرى أنه لا يوجد تعارض بين هذه الرواية والرواية الأخرى التي تذكر أن الخليفة عثمان عفى عن عبيد الله بن عمر وتحمل هو الدية الشرعية لورثة الهرمزان .

لأنه يوجد في فهم جمع من الصحابة حق لابن الهرمزان في القصاص وقد استجاب لرجائهم له في العفو على النحو السالف ذكره .

---

(1) الطبري ج3 ص305 والطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص62 ، ص63 .
(2) تاريخ الأمم والملوك الطبري ج3 ص 305 .

كما أن عفو الخليفة يرجع إلى أن سلطة التحقيق في الجريمة والحكم فيها هو للخليفة وليس لابن المقتول فيكون عبيد الله قد اعتدى على حق الخليفة ومن ثم فرواية العفو منه تنصرف إلى العفو بسبب هذا الحق وهذه المخالفة من عبيد الله حيث أضاع على الدولة أمرا هاما هو معرفة الخلايا التي تتصل بالجريمة من الجناة والأشخاص والجهات التي كانت خلف هذه المؤامرة . كما ينصرف العفو من الخليفة إلى من ليس لهم ولي وهم جفينة وابنة المجوسي القاتل .

ولا يوجد خلاف في الروايات والمصادر التاريخية على أن الخنجر الذي قتل به عمر بن الخطاب كان بيد الهرمزان وجفينة قبل الحادث وقد شاهد ذلك اثنان من الصحابة وهما عبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ورواية عبد الرحمن ابن أبي بكر تفيد أن القاتل أبا لؤلؤة كان مع هذين الشريكين يتناجون ثلاثتهم فلما باغتهم سقط الخنجر من بينهم وبعد قتل عمر وجدوا أنه نفس الخنجر الذي وصفه الشاهدان[1] وبالتالي فالهرمزان وجفينة يستحقان القتل ، أما ابنة أبي لؤلؤة الذي قتل نفسه ليخفي المشتركين معه ، فهذه قتلت خطأ ولا يقتل فيها أحد . وقد رأى عبيد الله أنها من المشاركين في القتل حيث كانت تخفي السلاح لأبيها .

سياسة عثمان الداخلية :

كتب عثمان ثلاثة كتب أحدها إلى الولاة (الأمراء بالأقاليم) يبين لهم واجبهم نحو الرعية وأن مهمتهم هي رعاية الناس والقيام على مصالحهم وأنه لم يعينهم جباة لجمع الأموال فإذا كانوا كذلك (أي هداة لرعاية الناس) صلحت الأمة ، وإذا انقلبوا جباة انقطع الحياء والأمانة كما أمرهم أن يعطوا الناس حقهم ويأخذوا منهم ما عليهم .

والكتاب الثاني أرسله إلى عمال الخراج يحذرهم فيه من الظلم ويأمرهم فيه بأخذ الحق وأن يعطوا الحق وأن يلتزموا بالأمانة والوفاء ، والكتاب الثالث موجه إلى الرعية يحثهم على تقوى الله وعدم الركون إلى الدنيا ويبين أن الله أعطاهم الدنيا ليصلوا

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص350 إلى ص355 .

بها إلى الآخرة وأمرهم بلزوم جماعة المسلمين ونهاهم أن يكونوا أحزابا[1] .

فهذه الكتب الثلاثة تحدد السياسة الداخلية للخليفة على النحو سالف الذكر .

وعندما ظهرت الفتنة وبوادر الثورة ضد عثمان بكثرة الإشاعات والرسائل المزورة والتي كانت ترسل من المدينة إلى مصر والكوفة والبصرة وغيرها وكانت منسوبة إلى علي والزبير وطلحة وعائشة وتحض الناس بالثورة على عثمان لاتهامات كاذبة ـ قام عثمان بجمع مجلس الشورى وانتهى رأيهم بإرسال أشخاص من الموثوق فيهم ليقفوا على حقيقة الفتنة ومن الذين وراءها وجاء الرسل وأكدوا أن هذه البلاد ليس فيها فتنة ولا ثورة وإنما تصلهم إشاعات كاذبة ، فاستدعى عثمان ولاة الأقاليم وهم عبد الله بن عامر ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن سعد ليقف منهم على الحقيقة واستعان في المشورة بكل من سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فاتفق الجميع على أن التسامح الزائد واللين المفرط من الخليفة شجع الذين تآمروا على قتل عمر فكثرت اتصالاتهم واتباعهم وأحدثوا هذه الإشاعات وأنه لابد من أخذهم بالشدة كما كان يفعل عمر ابن الخطاب . وقال عمرو بن العاص (أرى أن تلزم طريقة صاحبيك ـــ أبي بكر وعمر ـ فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين وقد فرشتهما جميعا اللين)[2] .

ولقد انتهى قرار عثمان أنه لا شدة إلا في حدود الله ولا قتل إلا في الكفر الصريح فطوبى لعثمان أن مات ولم يحرك الفتنة « كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيتم حقوق الله فلا تدهنوا فيها »[3] .

وهكذا كانت سياسته الداخلية ، التسامح والعفو والصفح إلا عند الكفر البواح أو ارتكاب الجرائم الكبيرة وهي الحدود .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص245 وابن كثير ج7 ص216 وابن الأثير ج3 ص79 .
(3,2) تاريخ الطبري ج4 ص342 ، ص343 .

سياسة عثمان الخارجية :

لقد أغرى اغتيال عمر بن الخطاب أعداء الإسلام وخصوصا في بلاد الفرس والروم إلى الطمع في استرداد ملكهم فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط في العاصمة التي يقيم فيها وهي مدينة (فرغانة) عاصمة سمرقند . ذلك لأن الجيوش الإسلامية عندما انتصرت عليه لم تقتله ولم تأسره وتركته يقيم في هذا الإقليم .

أما زعماء الروم فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية وبدءوا في عهد عثمان في البحث عن الوسائل التي تمكنهم من استرداد ملكهم وكان بقايا جيوش الروم في مصر قد تحصنوا بالإسكندرية في عهد عمر بن الخطاب فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن له بفتحها وكانت معززة بتحصينات كثيرة وكانت المجانيق فوق أسوارها وكان هرقل قد أعلن أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلف أحد من الروم لأن الإسكندرية هي معقلهم الأخير[1] .

وانتهى حصار المسلمين للإسكندرية إلى أن طلب المقوقس الصلح فأجابه عمرو ابن العاص إن ملككم هرقل عقد الصلح ثم نكثه وكان من أمره ما كان . فقال المقوقس لقومه لقد صدق هؤلاء القوم وأشار عليهم بفتح الإسكندرية للمسلمين فأبوا إلا المحاربة ودار قتال عنيف انتهى بفتح الإسكندرية[2] .

وفي عصر عثمان تجمع الروم في الإسكندرية بدءوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فيها حتى وصل بهم الأمر إلى نقض الصلح واستعانوا بقوة الروم البحرية[3] فأمدوهم بثلاثمائة سفينة بحرية تحمل الرجال والسلاح ولقد واجه عثمان ذلك كله بسياسة تتسم بالحسم والعزم وتمثلت في الخطة الآتية :

---

(1) فتوح مصر والمغرب عبد الرحمن بن عبد الحكم ج1 ص112 .

(2) فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن بن عبد الحكم ج1 ص118 وفتوح البلدان للبلاذري ج1 ص222 والمواعظ والاعتبار (الخطط) تقي الدين أبو العباس المقريزي ج1 ص165 .

(3) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين محمد السيد الوكيل ص324 .

(1) إخضاع المتمردين من الفرس والروم وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد .

(2) استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم .

(3) إقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية .

(4) إنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك .

* * *

الأعمال العسكرية ومواجهة المتمردين

كانت أذربيجان والري من أواخر البلاد التي فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ وكان فتحها بعد فتح نهاوند في سنة اثنتين وعشرين بقيادة حذيفة ابن اليمان الذي تولى قيادة الجيش وبعد نفاذ المؤامرة باغتيال عمر نقضوا الصلح الذي صالحهم عليه حذيفة وعلم الخليفة بتمردهم فأمر الوليد بن عقبة بالتوجه إلى أذربيجان ، وأمر أبا موسى الأشعري بالتوجه إلى الري فقام الوليد بالتوجه إلى أذربيجان وجعل مقدمة له عبد الله بن شبيل بن الأحمس في أربعة آلاف مقاتل فأغار على موقان ، والبير والطيلسان ، فأصاب من أموالهم وهزمهم وانضم إلى الوليد بن عقبة[1] .

وقد أدرك أهل أذربيجان خطأهم فطلبوا الصلح فصالحهم الوليد على مثل ما صالحهم حذيفة ، ثمانمائة ألف درهم كل سنة بعد أن ولى عليهم الأشعث بن قيس[2] .

ولكن أهل أذربيجان تمردوا أكثر من مرة فكتب الأشعث إلى الوليد فأمده بجيش من أهل الكوفة وتتبع الأشعث الثائرين وهزمهم هزيمة منكرة فطلبوا الصلح فصالحهم على صلحهم الأول .

وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرة فوضع حامية من العرب وجعل لهم عطايا وسجلهم في الديوان وأمرهم بدعوة الناس إلى الإسلام . ولما تولى أمرها سعيد بن

(1) ابن كثير ج7 ص150 .

(2) معجم البلدان للبلاذري ج1 ص324 .

العاص عاد أهل أذربيجان وتمردوا على الوالي الجديد فبعث إليهم جرير بن عبد الله البجلي فهزمهم وقتل رئيسهم ثم استقرت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها وتعلموا القرآن الكريم .

أما الري فقد صدر أمر الخليفة عثمان إلى أبي موسى الأشعري والي الكوفة بتوجيه جيش إليها لتمردها فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصاري فأعاد فتحها[1] .

* * *

(1) معجم البلدان للبلاذري ج1 ص 325 .

إحباط تحركات الروم

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمته في أذربيجان وعاد إلى الموصل جاءه أمر من الخليفة عثمان نصه (إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلا أمينا كريما شجاعا في ثمانية آلاف إلى إخوانكم بالشام)[1] .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن ملك الروم جعل من اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سببا في إرسال جيش إلى الشام أزعج أهلها من كثرة عدده وعتاده فاستغاثوا بالخليفة عثمان بن عفان وقد خطب الوليد بن عقبة في أهل الموصل يستحثهم على الجهاد في سبيل الله لنصرة أهل الشام بعد أن بغت عليهم جيوش الروم وقال لهم إن أمير المؤمنين عثمان أمرني أن أندب منكم ما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف فتطوعوا للجهاد مع سلمان بن ربيعة الباهلي رحمكم الله[2] .

وفي خلال ثلاثة أيام تجمع ثمانية آلاف مجاهد وتحرك بهم سلمان الباهلي حتى وصل إلى الشام .

وتوجه مع الجيوش الأخرى إلى أرض الروم حيث كان جيش الشام بقيادة حبيب ابن مسلمة الفهري واشتبك هذان الجيشان أي الأصلي والمدد بجيوش الروم وأوقعوا بهم الخسائر وترك جيش الروم خلفه السبايا والغنائم[3] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص149 .

(2) تاريخ الطبري ج4 ص248 .

(3) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص150 .

فتح أرمينية :

تقع أرمينية على مفترق طرق ثلاثة للبلاد التي فتحها المسلمون وهي بلاد الشام وأرض الجزيرة بالعراق وجنوب آسيا الصغرى . وبلاد أرمينية تمتد بين الروم وبلاد الفرس لهذا طمعت فيها الدولتان فاستولى الفرس على القسم الشرقي واستولى الروم على القسم الغربي .

وقد كان الأرمن وهم أهل أرمينية في صراع مستمر مع الفرس لأنهم يدينون بالمجوسية والأرمن يدينون بالنصرانية ويعتقدون أن المجوسية كفر بالله الذي يؤمنون به مع أنهم يشركون معه غيره .

كما كان الأرمن في صراع مع الروم على الرغم من أنهم نصارى مثلهم لأن البيزنطيين عقدوا مجمعا كنسيا سنة 451 ميلادية اعترف بمذهب واحد من المذاهب النصرانية الكثيرة وهو يخالف مذهب الأرمن فنشأ صراع بين الطرفين . لهذه الأسباب وجد الخليفة عثمان أن فتح أرمينية لن يواجه بصعوبات من أهلها .

بل قد يجدونه سبيلا للتخلص من ظلم الفرس والروم كما أن تبعية هذه البلاد للمسلمين يؤمن حدود الدولة الإسلامية .

وقد أصدر الخليفة أمره إلى الوليد بن عقبة المنوط به أمر أذربيجان لفتح أرمينية حيث تقع على حدود أذربيجان فأرسل إليها جيشا من اثني عشر ألفا بقيادة سلمان الباهلي ففتحها من جهة أذربيجان[1] .

أما أرمينية من جهة الشام فقد أمر الخليفة عثمان والي الشام معاوية بن أبي سفيان لإرسال جيش إليها بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري فتوجه إلى العاصمة البيزنطية لأرمينيا وانتهت المعركة على إبرام صلح بينهم والتزموا بالجزية بعد أن فر الكثير منهم إلى بلاد الروم .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص248 .

وقد جمع الروم جيوشهم لإعادة هذه العاصمة إليهم فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان الذي أمر والي الكوفة سعيد بن العاص بإرسال جيش بقيادة سلمان الباهلي لمساندة حبيب بن مسلمة فوصل الجيش من ستة آلاف مجاهد فوضع حبيب خطة تقضي ببقاء ألفي جندي في العاصمة كقوة مرابطة بها وأما باقي الجيش فخرج لملاقاة جيش الروم الذي بلغ ثمانين ألفا فأنزل بهم هزيمة ساحقة حتى دخلت الجنود سرادق الموديان قائد جيش الروم وكانت زوجة حبيب بن مسلمة قد سبقته في اقتحام السرادق[1] .

وبعد أن أعاد حبيب العاصمة البيزنطية زحف إلى أرمينية الفارسية وحاصر عاصمتها دبيل (دوين) فاضطر أهلها إلى الصلح فكان نصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم ، إني قد أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم ، فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج ، شهد الله ، وكفى بالله شهيدا)[2] .

ونظرا لأهمية أرمينية وموقعها سالف الذكر فقد ظلت الجيوش الإسلامية بها حتى كتب المؤرخون أن حملة حبيب بن مسلمة إليها بدأت سنة 25 هجرية (645 ميلادية) في السنة الثانية لخلافة عثمان وانتهت سنة 35 هجرية (655 ميلادية) في نهاية خلافته حيث انتهت الحملات البيزنطية على أرمينية بهزيمة ماوريانوس قائد الجيوش البيزنطية .

* * *

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ج 1 ص 201 والكامل لابن الأثير ج3 ص84 .

(2) فتوح البلدان للبلاذري ج1 ص 203 .

فتح أفريقية

عندما انتهى تمرد الروم في الإسكندرية أصبحت حدودها آمنة فكان الحد الشرقي والجنوبي في أيدي المسلمين . أما الحد الغربي فهو مدينة برقة التي فتحت في عهد عمر بن الخطاب في عام 21 هجرية وكذا طرابلس التي فتحت في سنة 22 هجرية وكان ذلك بقيادة عمرو بن العاص الذي طلب من عمر بن الخطاب أن يأذن له بفتح أفريقية بعد طرابلس لأن بينهما مسافة تسعة أيام فكان رد عمر عليه ما هي بأفريقيا ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها[1] .

وفي خلافة عثمان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولي عليها عبد الله بن أبي السرح فطلب ذلك من الخليفة فاستشار الصحابة فأشاروا عليه بالموافقة فأرسل جيشا إلى ابن أبي السرح فيه قيادات خيار الصحابة[2] وتجمع مع المصريين نحو عشرين ألف .

وكانت طرابلس هي بداية مملكة جريجوريوس وشهرته جرجير وتمتد إلى طنجة وكان واليا عليها لحساب هرقل الروم يجمع له الخراج سنويا فأعد جيشا من مائة وعشرين ألف فارس وتلاقى مع جيش المسلمين في العاصمة ورفض جرجير الإسلام أو الجزية وأصر على الحرب وأرسل جنديا ينادي من قتل عبد الله بن أبي السرح فأزوجه ابنتي وله مائة ألف دينار وكان عبد الله بن الزبير قائد المعركة فأخذ الإذن من أبي السرح أن يرسل من ينادي أن من قتل جرجير له مئة ألف دينار ويتزوج ابنة جرجير ويصبح واليا على مملكته بعد فتحها فوقع الرعب في نفس جرجير[3] .

---

(1) فتوح البلدان ج1 ص 227 .

(3، 2) الكامل لابن الأثير ج3 ص 89 ، ص 90 .

وكان القتال طبقا لخطة جرجير يبدأ صباحا وينتهي ظهرا فأشار عبد الله بن الزبير أن يقسم جيش المسلمين إلى نصفين ، فيقاتل أحدهما حتى الظهر ، ويقاتل الآخر باقي اليوم فلا يجد الروم وقتا للراحة والاستعداد بينما جيش المسلمين يتمتع بهذه الراحة وتمكنت هذه الخطة من هزيمة الروم وقتل قائدهم جرجير ، حيث قتله ابن الزبير فخضعت باقي مدن أفريقيا وطلبوا الصلح على الجزية[1] .

وعاد عبد الله بن أبي السرح إلى مصر بعد أن استسلم البربر وأصبح الباب مفتوحا أمام المسلمين إلى الأندلس .

فتح بلاد النوبة :

شرع عمرو بن العاص في فتح بلاد النوبة بإذن من الخليفة عمر فوجد حربا لم يتدرب عليها العرب وهي الرمي بالنبال في أعين المحاربين حتى فقدوا مائة وخمسين عينا في أول المعركة ولهذا قبل الجيش الصلح ولكن عمرو بن العاص رفض للوصول إلى شروط أفضل[2] .

واستكمل عبد الله بن أبي السرح فتح بلاد النوبة عندما أصبح واليا على مصر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ودارت معارك بين الفريقين عام 31 ميلادية فعرض أهل النوبة الصلح وأبرموا اتفاقية مع والي مصر سميت باتفاقية البقط تنص على وقف الحروب وأن تتبادل مصر وبلاد النوبة المحصولات واستمرت هذه الاتفاقية ستة قرون[3] .

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ج1 ص267 وابن خلدون ج2 ص1004 وابن الأثير ج3 ص191 .
(2) فتوح البلدان ج1 ص280 .
(3) فتوح البلدان للبلاذري ج1 ص281 .

المعارك البحرية والأسطول البحري :

طلب والي الشام معاوية بن أبي سفيان من الخليفة عمر بن الخطاب فتح قبرص عن طريق البحر لأنها قريبة من حمص وقال له إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها صياح دجاج أهل قبرص ونباح كلابهم[1] ، ولكن عمر رفض أن يركب المسلمون البحر وهم لا عهد لهم به وكتب إلى عمرو بن العاص يسأله عن البحر والركوب فيه فكتب إليه :

(رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد طرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق)[2] .

فكتب عمر إلى معاوية بالرفض التام لأن المسلم عنده أحب إليه من حوت الروم ، وحذره أن يعرض ذلك عليه .

وكان من أثر توقف عمر في التوغل في بلاد الروم أن هادنه مليكهم وكاتبه بالبريد ، وأرسلت السيدة أم كلثوم ابنة علي ابن أبي طالب ، زوج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هدية إلى ملكة الروم وهي طيب ومشارب وبعض أحفاش النساء وهي كالحقائب أو الأدراج التي تضع فيها المرأة حاجتها .

فأعجبت ملكة الروم بهذه الهدية وأرسلت إلى أم كلثوم عقدا فاخرا[3] فرأي زوجها عمر بن الخطاب أن يكون هذا لبيت مال المسلمين لأن البريد هو بريد المسلمين وحامل الرسالة هو رسول المسلمين[4] فقبلت أم كلثوم ذلك راضية .

---

(1) تاريخ الطبري ج. 4 ص254 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص95 .
(4,3) تاريخ الطبري ج 4 ص260 .

موافقة عثمان على الغزو بالبحر :

بعد تولي عثمان الخلافة طلب منه معاوية بن أبي سفيان الإذن في غزو البحر فكتب إليه أنه قد شهد رد عمر عليه فألح معاوية في الطلب فكتب إليه عثمان ، إن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونا لك وإلا فلا ، ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه[1] .

وهكذا اشترط عثمان في الموافقة على غزو قبرص عن طريق البحر أن يصحب معاوية زوجه معه حتى يتريث في أية مخاطرة تؤدي إلى أسرها لدى الكفار أو هلاكها في البحر .

كما اشترط عليه ألا يختار أشخاصا بذواتهم فيحرجهم وألا يكره أحدا على الخروج في هذا الغزو .

ولقد اتخذ معاوية ميناء عكة مكانا للإقلاع وأعد الأسطول البحري وخرج معه جيش كبير من المسلمين مختارين راغبين الموت في سبيل الله وقد حمل معه زوجه وأخته كما كان مع عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان والتي صدق فيها حديث الرسول ﷺ حيث دخل عليها فقدمت له طعاما فقال : (ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون شبح هذا البحر ، ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة . قالت يا رسول الله ادعو الله أن يجعلني منهم فدعا لها) رواه مسلم في صحيحه .

ولما وصلت السفن جزيرة قبرص تتقدمهم سفينة معاوية ونزلوا إلى الساحل شرعت أم حرام في ركوب الدابة فنفرت وألقتها على الأرض فماتت[2] .

وتشاور معاوية مع الصحابة الذين معه أن يرسلوا إلى أهل قبرص لإخبارهم أنهم

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص96 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص97 .

إنما وفدوا إليهم لتأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام لأن البيزنطيين يتخذون من قبرص قاعدة لهم ويمولون جيوشهم منها فرفض سكان الجزيرة وتحصنوا في العاصمة (قسطنطينية) منتظرين وصول جيوش الروم للدفاع عن الجزيرة ، فحاصر المسلمون العاصمة ولم يصل جيش الروم وطلب أهلها الصلح على أساس ألا يكون للمسلمين شروط تورطهم مع الروم فلا قدرة لهم على قتالهم فقبل المسلمون الصلح بالشروط الآتية :

(1) ألا يساعدوا الروم إذا جاءوا لغزو بلاد المسلمين .
(2) أن يرشدوا المسلمين على تحركات جيش الروم .
(3) ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا اتخذت موقفا هجوميا حربيا .
(4) عليهم تأمين طريق المسلمين إلى عدوهم المحاربين .
(5) أن يدفعوا الجزية سبعة آلاف ومئتي دينار سنويا .

وقد قبل أهل جزيرة قبرص الصلح على ذلك[1] .

والتزم القبارصة بذلك من سنة ثمان وعشرين من الهجرة (649 ميلادية) حتى سنة اثنتين وثلاثين هجرية (653 ميلادية) ثم خضعوا لضغط الروم فأمدوا جيشهم بالسفن لغزو بلاد المسلمين وعلم معاوية بذلك واعتبرهم قد خانوا الصلح حيث كان في قدرتهم أن يمتنعوا عن مساندة الروم فجهز معاوية جيشا سنة ثلاث وثلاثين نحو خمسمائة مركب ثم توجه عبد الله بن أبي السرح من مصر بجيش بحري التقى بجيش معاوية في الجزيرة وبدأ هجوم جيوش المسلمين فانهزم أهل قبرص واضطر ملكها أن يرفع يديه مستسلما فأقرهم معاوية على الصلح الأول[2] .

ولاحظ معاوية أن أهل قبرص ليس لديهم جيش من المسلمين ولا قدرات عسكرية فلم يتركهم هذه المرة إلا ولديهم جيش من المسلمين يبلغ اثني عشر ألفا وجعل لهم رواتب وأقام فيها مسجدا .

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري ج 1 ص59 .
(2) فتوح البلدان للبلاذري ج1 ص 158 .

معركة ذات الصواري :

عندما غزا الأسطول الإسلامي جزيرة قبرص مرتين لم يتعرض له الأسطول الرومي إما ليحتفظوا بقوتهم البحرية لضربة يوجهونها للمسلمين أو لما شاهدوه من انتصار المسلمين مع قلتهم .

وقد وضع الروم خطة لتجنب المواجهة مع الصمود في وجه الأسطول الإسلامي وخرج عبد الله بن قيس الذي نبغ في حروب البحر خرج وتنكر في زي التجار ليستجلي الأمر ، فجاء مساكين يسألونه فتصدق عليهم صدقة سخية فذهبت امرأة وأخبرت قومها عن وجود عبد الله بن قيس في المرفأ فتربصوا له وقتلوه فتولى سفيان بن عوف الأزدي قيادة المسلمين حتى هزموا القبارصة وتم القبض على المرأة التي أوشت بالقائد عبد الله بن قيس وقيل لها كيف عرفت أنه القائد قالت كان كالتجار فلما سألته أعطاني كالملك فعرفت أنه القائد[1] .

* * *

(1) تاريخ الطبري ج4 ص261 .

المؤامرة ضد الأسطول البحري الإسلامي

فكر الروم في أمر الأسطول البحري الإسلامي الذي يخشى منه غزو عاصمتهم ، وبعد ثلاث سنوات انتهوا إلى فكرة تخريبه وتدميره وقام بالتنفيذ بعض عملاء الروم في مدينة طرابلس حيث توجد القوات الحربية والمعدات البحرية للمسلمين فهاجم الرجلان السجن الذي به أسرى الروم وفتحاه وخرج الأسرى إلى حاكم المدينة وقتلوه هو ومن معه وأحرقوا المعدات وفروا إلى القسطنطينية فحشد معاوية قواته البحرية ليتجه إلى آسيا الصغرى وخرج عبد الله بن أبي السرح في نحو مئتي سفينة ونيفا[1] .

وخرج قسطنطين بن هرقل على رأس القوات البيزنطية البحرية في سفن نحو ستمائة مركب كان ذلك في سنة 31 هجرية والتقى الفريقان فعرض المسلمون على الروم الأمان وقالوا ذلك لكم ولنا منكم[2] . وفضل الروم المعركة البحرية مهما كانت النتائج .

فبدأ المسلمون يرمون عدوهم بالنبل والنشاب والسهام ولكنها كادت تنفد واستعمل المسلمون الحجارة فنفدت والروم لا يردون بشيء فأدخل المسلمون المراكب في المعركة وضموا السفن بعضها إلى بعض وقذفوا مراكب الروم وجذبوها إليهم وشدوها إلى مراكبهم شدا محكما حتى أصبحت المعركة البحرية وكأنها معركة برية وفزع الروم عندما وجدوا أنفسهم بين أيدي المسلمين ، ولكن وجود الملك

---

(1) فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن بن عبد الحكم ج1 ص256 .
(2) الطبري ج4 ص290 .

قسطنطين بينهم دفعهم إلى الشجاعة وأمر عبد الله بن أبي السرح المسلمين بقراءة القرآن وحثهم على الصبر وأيقن البيزنطيون أن الهزيمة واقعة بهم فأمر ملكهم جنودهم بخطف مركب أمير البحر عبد الله بن أبي السرح ونجح الجنود في وضع الخطاطيف في مركب القيادة الإسلامية وأخذوا يجرونها إليهم وهم ينادون أن بشائر النصر قد لاحت فجاد أحد جنود المسلمين بنفسه وألقى بها على السلسلة الضخمة التي تجر مركب أبي السرح وأخذ يضرب السلسلة بسيفه ليقطعها فضربه الروم بالنشاب فتحمل ذلك حتى ما استطاع الروم جر مركب أمير المسلمين إلى أسطول العدو وقطع علقمة السلسلة فقام الملاح بتوجيه هذا المركب إلى جهة المسلمين حتى ابتعد المركب عن مراكب الروم وانضم إلى الأسطول الإسلامي فتشجع المسلمون وهاجموا مركب ملك الروم فاختفى في زي ابن أحد الطبالين فلم يعرفه المسلمون وهرب على ظهر أحد المراكب إلى جزيرة صقلية ثم تنزل نصر الله على المسلمين وانهزم قسطنطين وفر الروم هاربين ومكث ابن أبي السرح بذات الصواري أياما ليستعد الجيش للعودة إلى الإسكندرية حتى وصلها مكللا بالنصر والتأييد[1] .



(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص157 .

مفتريات ضد عثمان

لقد أسدل الستار على المؤامرة التي أدت إلى اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وذلك بقتل الهرمزان وجفينة بمعرفة عبيد الله بن عمر بعد أن قتل أبو لؤلؤة المجوسي نفسه حتى لا يفشي شيئا من الأسرار التي تؤدي إلى معرفة أبعاد هذه المؤامرة وأطرافها .

ومن فضائل المسلمين أن حاكموا عبيد الله بن عمر لقتله باقي الجناة على الرغم من ثبوت اشتراكهم في القتل بشهادة العدول من الصحابة ، ثم دفع الخليفة الدية الشرعية لورثة الجناة وهذا لا مثيل له في التاريخ .

وها هي ذي الفتنة تخرج أضغانها وتطل برأسها معلنة عن بعض زعمائها في ثورة عارمة ضد الخليفة الثالث بعد عشر سنوات من خلافته التي عم خيرها المسلم والكافر من رعايا دولة الخلافة .

لقد طالبوا بعزل هذا الخليفة العابد الصابر المتسامح الرحيم بعدوه .

يقول ابن العربي : (قالوا متعدّين ، متعلقين برواية كذابين : جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير منها :

(1) ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه .
(2) ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه .
(3) وابتدع في جمع القرآن وتأليفه ، وفي حرق المصاحف .
(4) وحمى الحمى .
(5) وأجلى أبا ذر إلى الربذة .

(6) وأخرج من الشام أبا الدرداء .

(7) ورد الحَكَم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ .

(8) وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر .

(9 - 12) وولى معاوية وعبد الله بن عامر بن كريز ومروان ، وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية .

(13) وأعطى مروان خمس أفريقية .

(14) وكان عمر يضرب بالدرة وضرب هو بالعصا .

(15) وعلا على درجة رسول الله ﷺ وقد انحط عنها أبو بكر وعمر .

(16) ولم يحضر بدرا ، وانهزم يوم أحد ، وغاب عن بيعة الرضوان .

(17) ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان .

(18) وكتب مع عبده على جمله كتابا إلى ابن أبي سرح في قتل من ذكر فيه)[1] .

شهادة التاريخ ودحض المفتريات

إن هذه الاتهامات قد تسربت إلى كتب التاريخ المقررة ، وغيرها حتى تأثرت القرون المتتالية بهذه الافتراءات ، وذلك على الرغم من أن المصادر التاريخية الأولى قد روت الأسباب الحقيقية للثورة وكشفت عن الأكاذيب في هذه الاتهامات .

وفيما يلي بيان موجز بحقيقة هذه التهم .

(1) ليس صحيحا أن الخليفة قد فتق أمعاء عمار بن ياسر ولو فعل ذلك لأدى هذا إلى وفاته وإنما عزره بضرب خفيف لأنه شتم عباس بن عتبة بن أبي لهب والتعزير حق من حقوق الخليفة وهو نوع من العقوبات البسيطة في الجرائم التي لا تصل

---

(1) العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي ص 28 .

من الجسامة لتكون من جرائم الحدود أو القصاص فضلا عن ذلك فإنه ضرب أيضا عباسا لأنه تبادل القذف مع عمار[1] .

(2) وليس صحيحا أنه كسر أضلاع عبد الله بن مسعود ، إنما ضربه تعزيرا له لأمرين الأول أنه عنف سعد بن أبي وقاص لتأخره في سداد مال قد اقترضه من بيت المال وكان سعد واليا على الكوفة وابن مسعود واليا على بيت المال ولكنه خالف قول الله تعالى ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ (البقرة / 280) .

والأمر الثاني أنه كان يرفض حرق مصحفه ، وقد كتب فيه تفسيرات بجانب الآيات فأضاف كلمة (متتاليات) بجانب قول الله عن كفارة اليمين ﴿ **فصيام ثلاثة أيام** ﴾ (المائدة / 89) .

فضلا عن أن مصحف ابن مسعود لم يكن فيه سورة الفاتحة وسئل عن ذلك فأجاب (لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة واكتفيت بحفظ المسلمين لها)[2] .

إن كل ذي حس وبصيرة يدرك أن هذه فضائل لعثمان وليست محل شبهة فضلا عن أن تصبح تهمة لهذا قال ابن العربي هذا كله باطل سندا ومتنا . وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن نشتغل بها لأنها مبنية على باطل ولا يبنى حق على باطل[3] .

---

(1) الخلفاء الراشدون . عبد الوهاب النجار ص 313 دار الكتب العلمية بيروت .
(2) تفسير ابن كثير ج1 ص9 والحقائق الغائبة بين الشيعة وأهل السنة / سالم البهنساوي ص26 ، 27ط ، الزهراء للإعلام العربي ، بمصر .
(3) العواصم من القواصم لابن العربي ص130 .

(3) وأما جمع القرآن فتلك حسنته العظمى وخصلته الكبرى ، وإن كان وجدها كاملة لكنه أظهرها ورد الناس إليها وحسم مادة الخلاف فيها . وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه[1] .

روي الأئمة بأجمعهم أن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن عمر أتانا فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر (ثم يستعرض ابن العربي تفاصيل جمع القرآن وحرق النسخ غير المعتمدة .... مما هو معروف) .

(4) أما أنه حمى الحمى فتلك من الحسنات فنظام الحمى في الإسلام هو أن يخصص الحاكم بعض الأراضي فيمنع القادرين والأغنياء من وضع اليد عليها ليوزعها الخليفة على الفقراء وبذلك نسخ الإسلام النظام الجاهلي الذي يخول الأغنياء حق وضع اليد على الأراضي الفضاء . وقال النبي ﷺ (لا حمى إلا لله ورسوله) رواه البخاري .

فزيادة عثمان في أرض الحمى هو مزيد من الحماية للفقراء وبزيادة الرعية يزيد الحاكم من أراضي الحمى بلا جدال ولا خلاف ، وقد حمى النبي ﷺ أرض البقيع وحمى الخليفة الثاني الربذة وسرف[2] .

وكانت هذه للفقراء وللجهاد في سبيل الله وكان الحمى يزيد كلما زادت الخيل والإبل المرصودة للجهاد .

---

(1) العواصم من القواصم لابن العربي ص130 .

(2) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية . سالم البهنساوي ص134 - 137 . دار القلم بالكويت وآفاق الغد بمصر .

(5) وعن الاتهام الخامس يقول ابن العربي :

(وأما نفيه أبا ذر فلم يفعل ، كان أبو ذر زاهدا ، وكان يقرِّع عمال عثمان ويتلو عليهم ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم . قال ابن عمر وغيره من الصحابة : (إن ما أديت زكاته فليس بكنز) فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام ، فخرج إلى المدينة فاجتمع إليه الناس فجعل يسلك تلك الطرق ، فقال له عثمان : لو اعتزلت . معناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطا وللعزلة مثلها . ومن كان على طريقة أبي ذر فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس حراما في الشريعة . فخرج إلى الربذة زاهدا فاضلا ، وترك جلَّة فضلاء وكلٌّ على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر أفضل ، ولا تمكن لجميع الخلق . فلو كانوا عليها ، لهلكوا فسبحان مرتب المنازل)[1] .

وقد وافق علي بن أبي طالب الخليفة في خروج أبي ذر إلى الربذة[2] .

وستجد تفصيلا لهذه المسألة تحت بند (أبو ذر واليسار الإسلامي) .

(6) وأما إخراج أبي الدرداء من الشام ، فقد كان عالما فاضلا وقاضيا زاهدا ولكنه في قضائه اشتد وأخذ طريقة عمر بن الخطاب في قوم لا يحتملون ذلك وهم

---

(1) العواصم من القواصم ص61 .
(2) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص351 .

حديثو عهد بالإسلام فشكوا منه فعزله الخليفة عثمان فعاد إلى المدينة ، وهذه كلها من المصالح التي لا تتصل بالحلال والحرام وهي من صلاحيات الخليفة .

(7) أما أنه رد الحكم ، فهو مكي قد سيره النبي ﷺ إلى الطائف ، وقد أذن في رده وقال ذلك عثمان لأبي بكر وعمر فقالا له إن كان معك شاهد رددناه ، فلما لم يكن معه شاهد صبر حتى أصبح خليفة فنفذ ما يعتقد أن النبي ﷺ أذن به ولهذا قال لزعماء الفتنة سيره الرسول من مكة إلى الطائف وهو الذي رده فهو الذي سيره وهو الذي رده . أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم[1] .

(8) وأما اتهامه أنه أبطل سنة القصر في السفر فقد أجاب ابن العربي أنه اجتهاد إذ سمع الناس قد افتتنوا بالقصر فرأى أن السنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة والمسافر مخير بين القصر والإتمام في رأي جماعة من العلماء .

ولكن الخليفة قد رد على زعماء الفتنة بقوله (ألا وإني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت أو كذلك هو ؟ قالوا : نعم)[2] أي أنه اعتبر نفسه مقيما في بلد زوجه .

(9) أما أنه ولى معاوية بن أبي سفيان على الشام فغير صحيح . فقد أوضح ابن العربي أن عمر ولّى معاوية ، وجمع له الشامات كلها ، وأقره عثمان ، بل إنما ولاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنه ولى أخاه يزيد واستخلفه يزيد فأقره عمر لتعلقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له ، فتعلق عثمان بعمر وأقره .

(10) وأما عبد الله بن عامر بن كريز فولاه ــ كما قال ــ لأنه كريم العمات والخالات .

---

(1) الفتنة ووقعة الجمل . سيف بن عمر الضبي ص56 .

(2) الخلفاء الراشدون . عبد الوهاب النجار ص325 .

(11) وأما تولية الوليد بن عقبة فإن الناس ـــ على فساد النيات ـــ أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات ، فذكر الافترائيون أنه إنما ولاه للمعنى الذي تُكلم به ، قال عثمان : ما وليت الوليد لأنه أخي ، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه . والولاية اجتهاد ، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص وقدم أقل منه درجة[1] .

والجدير بالذكر أن الخليفة قد فوض عليّ بن أبي طالب في إقامة الحد على الوليد[2] .

والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، أخو عثمان بن عفان لأمه ، فأمهما أروى بنت كريز ، أسلم مع أخيه عمارة في فتح مكة .

وقد ولاه عثمان الكوفة بعد الشكوى من سعد بن أبي وقاص فعزله استجابة للمتمردين وقد نسب إلى الوليد أنه صلى بالناس وهو سكران فعزله عثمان وكان ذلك سنة 29 هجرية ولكن في خلال ولايته فتح أذربيجان[3] .

(12) أما تولية مروان بن الحكم فقد ولاه أربع سنين وعزله وولى بعده سعيد ابن العاص ولما شكى القوم من سعيد عزله وأعاد مروان بن الحكم[4] .

أما سيرة مروان فهي كما ذكرها البخاري قال : حدثنا أبو اليمان ، قال : أخبرنا شعيب بن الزهري . قال : حدثني علي بن الحسين وكان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة وأحبهم إلى مروان وعبد الملك . وقال : حدثنا أبو نعيم ، ثنا عبد الرحيم بن عبد ربه ، حدثني شرحبيل أبو سعد قال : رأيت الحسن والحسين يصليان خلف مروان[5] .

---

(1) العواصم من القواصم لابن العربي ص 62 .

(2) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص345 .

(3) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج9 ص311 ومروج الذهب للمسعودي ج1 ص343 والتاريخ الصغير لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ص74 .

(4) مروج الذهب للمسعودي ج1 ص344 .

(5) التاريخ الصغير للبخاري ص 109 , 110 .

(13) أما إعطاء خمس إفريقيا لمروان أو غيره (وهي تونس حاليا)[1] . فقد قال القاضي أبو بكر بن العربي إعطاء خمس إفريقيا لواحد لم يصح ، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس ، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده ، وأن إعطاءه لواحد جائز ، وقد بينا ذلك في مواضعه (أي في مؤلفاته الأخرى) .

(14) قال ابن العربي وأما قولهم : إنه ضرب بالعصا ، فما سمعته ممن أطاع أو عصى ، وإنما هو باطل يحكى .

(15) وقال وأما عُلوّه على درجة رسول الله ﷺ ، فما سمعته ممن فيه تقية . وإنما هي إشاعة منكر . قال علماؤنا : ولو صح ذلك فما في هذا ما يُحلّ دمه . ولا يخلو أن يكون ذلك حقا فلم تنكره الصحابة عليه إذ رأت جوازه ابتداء أو لسبب اقتضى ذلك . وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام .

(16) وأما تخلفه في بيعة الرضوان وانهزامه يوم حنين وأُحد وعدم حضوره غزوة بدر ، فالتاريخ يكشف عن بيعة الرضوان أنه قد أرسله النبي ﷺ إلى أهل مكة للمفاوضة لدخولها للعمرة بغير حرب ولو كان لدى قريش من هو أعز من عثمان لبعثه .

ولما طال لبثه وتأخر على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وترامى إليهم أن قريشا غدرت به ، فقال رسول الله ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . وأخذ رسول الله ﷺ في مبايعة أصحابه ، فتمت بيعة الرضوان من أجل عثمان بن عفان رضي الله عنه . وبايع رسول الله ﷺ عن عثمان بإحدى يديه وقال هذه لعثمان[2] .

ولقد روى البخاري في صحيحه قال : جاء رجل من أهل مصر ، يحج البيت فرأى قوما جلوسا فقال : من هؤلاء القوم ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، قال : يا ابن عمر ، إني سائلك عن شيء فحدثني

---

(1) قادة فتح الشام ومصر . محمود شيث خطاب ص142 . دار الفكر بيروت .

(2) العواصم من القواصم لابن العربي ص104 .

عنه ، قال : هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ، قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : الله أكبر . قال ابن عمر : تعال أبين لك ذلك :

أما فراره يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ « إن لك لأجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه » ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى ، هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده ، فقال : هذه لعثمان . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك .

والجدير بالذكر أن الهزيمة والفرار في أُحد وقع فيه أكثر الصحابة لمخالفة الرماة أوامر النبي ﷺ الذي عفا عنهم لأنه خطأ غير مقصود .

هذا ولما أراد رسول الله ﷺ السير إلى تبوك ، كان الناس في ضيق ، وكان الجيش مؤلفا من ثلاثين ألف جندي ، فطلب رسول الله التبرع من المسلمين وأعاد الطلب ، فجهز عثمان الجيش حتى لم يفقد عقالا ولا خطاما . ويقال : إنه قد جهزه بتسعمائة وخمسين بعيرا ، وخمسين فرسا ، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ ، فقال رسول الله : « ما على عثمان ما فعل بعد اليوم »[1] .

(17) وأما تهمة امتناعه عن قتل عبيد الله بن عمر عندما قتل الهرمزان الذي كان قائدا وملكا على الأهواز وأسر . فقد فصلنا ذلك في مواضعه عند الحديث عن مقتل الخليفة عمر .

كان أول عمل لعثمان هو محاكمة عبيد الله بن عمر ، بسبب قتله لمن كانوا شركاء في القتل بعد أن قتل أبو لؤلؤة نفسه ، فحصرهم عبيد الله في الهرمزان وجفينة وابنة

---

(1) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور ناصف ج4 ص435 . الهامش . دار الفكر بيروت .

أبي لؤلؤة وقتلهم قصاصا لاشتراكهم في قتل أبيه .

والثابت في تاريخ الطبري أن الخليفة عثمان سلم عبيد الله بن عمر إلى ابن الهرمزان ليقتله قصاصا في قتل أبيه ، وذلك على الرغم من ثبوت التهمة في حق الهرمزان ، وقد عفا المذكور عن عبيد الله وعفو الخليفة كان عن حق الحاكم ، وأما عن جفينة وابنة أبي لؤلؤة فلا ولي لهما والخليفة هو ولي من لا ولي له ومن ثم عفا عن عبيد الله ثم تحمل الدية الشرعية[1] .

كما أنه لم يطالب عثمان أحد من ورثة المقتولين ، والذي طلب ذلك هم بعض الصحابة خضوعا لحكم الله وعدله مع غير المسلمين ، فكيف يقال بعد هذا كله إن الخليفة عطل حدا من حدود الله .

(18) وأما تعلقهم بأن كتابا وجد مع راكب إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح يأمره بقتل حامليه فقد قال له عثمان : إما أن تقيموا شاهدين على ذلك ، وإلا فيميني أني ما كتبت ولا أمرت . وقد يكتب على لسان الرجل ، ويضرب على خطه ، وينقش على خاتمه[2] .

* * *

(1) تاريخ الطبري ج4 ص240 .

(2) العواصم من القواصم والغزو الفكري للتاريخ والسيرة ص340 - 364 .

أبو ذر واليسار الإسلامي

يخلط بعض الكتاب بين معارضة بعض الصحابة وبين اليسار والمعارضة في عصرنا حتى صنفوا الصحابة إلى يمين ويسار وقيل إن أبا ذر زعيم المعارضة وعدو الثروات .

قال أحدهم عن هذا الصحابي الجليل إنه : (خرج إلى الأغنياء الذين أصبحوا يشكلون بركونهم إلى الدنيا خطرا على الدين ، خرج إلى معاقل السلطة والثروة يغزوها بمعارضته ، معقلا معقلا ، وأصبح في أيام معدودات الراية التي التفت حولها الجماهير والكادحون حتى في الأقطار النائية التي لم يره أهلها) . وجاء به : (تجنب إخوانه ، إن لم تكن مقاطعتهم لأنهم ولّوا الإمارات وصار لهم ثروة وثراء) كما جاء به : (شايعت الجماهير آراء أبي ذر فأدرك عثمان خطر دعوته وقوتها وقرر إبقاءه في المدينة فقال : لا حاجة لي في دنياكم وطلب الإذن له بالخروج إلى الربذة فأذن له)[1] .

هذه الوقائع والأحداث التي ذكرها الأستاذ خالد محمد خالد تضمنت[2] :

(1) أن الأغنياء في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ركنوا إلى الدنيا وأصبحوا خطرا على الدين .

(2) أن أبا ذر خرج إلى معاقل السلطة والثروة يغزوها والتف حوله الجماهير والكادحون .

(3) أن إخوانه الصحابة الذين تولوا الإمارة على بعض الأقطار صار لهم ثروة وثراء فتجنبهم بل قاطعهم .

---

(1) رجال حول الرسول خالد محمد خالد ص90 .

(2) الغزو الفكري للتاريخ والسيرة بين اليمين واليسار ، سالم البهنساوي ص 336 - 339 .

(4) أن الجماهير شايعت آراء أبي ذر فأدرك أمير المؤمنين خطر هذه الدعوة وقرر تحديد إقامة أبي ذر في المدينة مقر السلطة ، فرفض واختار الذهاب إلى الربذة) .

فماذا تقول المصادر التاريخية عن هذه الوقائع ؟

أولا : روايات كتب السنة المحققة :

تروي كتب السنة المصححة المحققة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنفق أكثر أمواله في سبيل الله . فمما أثبتته هذه المصادر ما يأتي :

1 — روى البخاري أن النبي ﷺ قال : « من يحفر بئر رومة فله الجنة فحفرها عثمان » ، وقال النبي ﷺ : « ومن جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزه عثمان » . وكانت بئر رومة مملوكة لرجل يبيع ماءها بثمن مرتفع فاستجاب عثمان لنداء النبي ﷺ واشتراها وحفرها ووسعها وجعلها للناس كافة لا يباع ماؤها .

2 — كما اشترى من ماله أرضا لتوسعة مسجد النبي ﷺ ، فجعل طوله 160 ذراعا وعرضها 140 ذراعا وأعاد بناءه بالحجارة وجعل عموده حجارة منقوشة وجعل سقفه من الخشب وطلى جدرانه[1] .

3 — روي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال عن عثمان بشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فعثمان رضي الله عنه من المبشرين بالجنة .

ويسمى ذا النورين لأنه تزوج من السيدة رقية بنت النبي ﷺ وبعد وفاتها تزوج أختها السيدة أم كلثوم .

4 — روي مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال عن عثمان « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » .

---

(1) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور ناصف ج3 ص329 ، وحوليات الإسلام للأستاذ أحمد عطية الله المجلد الأول ص36 سنة 29 هجرية .

تحقيق موقفه من أبي ذر :

إن حقيقة موقف أبي ذر الغفاري كما رواها القاضي أبو بكر بن العربي (468 هـ) في كتابه العواصم من القواصم أن أبا ذر كان زاهدا وكان يقرع العاملين في دولة الخلافة ويتلو عليهم : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ .

وكان ينكر عليهم التوسع في الملبس وفيما يركبونه من دواب ويريد تفريق كل ذلك على الناس وهو غير لازم في الإسلام ، فقد قال ابن عمر وغيره من الصحابة في هذا : (ما أديت زكاته فليس بكنز)[1] . فلا يوجد صراع بين جماهير كادحة وثروة فادحة .

لقد أرسل معاوية إلى عثمان وخشي من الفتنة لأن أبا ذر كان يحمل الناس على أمور لا يطيقها أكثرهم إنما هي مخصوصة لبعضهم فكتب إليه عثمان أن يحضر إلى المدينة فلما حضر ونوقش مع الناس والخليفة ، قال أبو ذر أريد الربذة أي أريد الإقامة فيها ، فقال له عثمان : افعل ذلك فاعتزل الناس .

قال أبو بكر بن العربي : لم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته ، ونقل عن القاضي ولي الدين بن خلدون في العبر (2 -139) أن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة وقال : إن الرسول ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعا ، فأذن له عثمان ونزل بالربذة وبنى بها مسجدا وأعطاه عثمان مجموعة من الإبل وخادمين وأجرى عليه رزقا وعطاء وكان يزور المدينة في فترات وبينها وبين الربذة ثلاثة أميال[2] .

---

(1) العواصم من القواصم ص74 ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ج3 ص198 .
(2) العواصم من القواصم ص 76 .

عثمان والفتنة :

لقد كتب عبد الرحمن الشرقاوي عن أحداث الفتنة في مقالات باسم : علي إمام المتقين ، فذكر عثمان بن عفان ، فكان مما كتبه : (وروى أهل مصر ما كان من أمرهم وأمر عثمان ، لأهل المدينة ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وطالب بتسليمه مروان فانضم أهل المدينة إلى وفود الأمصار وشددوا النكير على عثمان)[1] .

ولا يخفى على أحد أن الثوار لم يكونوا من المدينة وأنه لم ينضم إليهم أحد من المدينة .

ثم يقول الشرقاوي : (وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة النصوح ويحتجون ويقسمون عليه بالله أن يعطيهم حق الله فإذا لم يفعل قتلوه)[2] . فهل كان هذا هو موقف جميع أهل المدينة أو أكثرهم ؟

ولقد تضمنت الصفحات السابقة ما ورد في أمهات كتب التاريخ عن ذلك مما يبين أن هذه مؤامرة من قلة ضللت آخرين . وفيما يلي المزيد من التفاصيل :

مع رجال حول الرسول :

والجدير بالذكر أن الأستاذ خالد محمد خالد قد خطأ نفسه فيما قال به من قبل في كتابه من هنا نبدأ حيث كان يشبه حكم الإسلام بالحكم البابوي في أوروبا خلال القرون الوسطى والمسمى بالحكومة الدينية ولقد كان عدوله في كتاب له صدر سنة 1982 باسم الدولة في الإسلام[3] ثم في كتابه خلفاء الرسول أنصف الخلفاء ولم ينقل ما كتبه من قبل عن عثمان وأبي ذر فيكون كتابه الجديد قد صحح ما كتبه من قبل وإن كان لم يذكر شيئا عن خلاف الخليفة مع أبي ذر إلا أنه في ثنايا الكتاب

(1, 2) مقال بالأهرام المصرية نشرته الوطن الكويتية في 1983/9/21 .

(3) أضواء على معالم في الطريق ، سالم البهنساوي ص207 - 210 دار البحوث العلمية . الكويت .

فيما يتعلق بعثمان رضي الله عنه قد أفرد له الفصل الخامس بعنوان ضيف الجنة الشهيد ، تستشف منه عدول الكاتب عما كتبه عنه فيصف الخارجين عليه بأن لهم سابقة في التزوير ، فزوروا كتبا على لسان أم المؤمنين عائشة وعلى لسان طلحة والزبير يدعون الناس للزحف على المدينة . ثم يذكر أن الخليفة أراد أن يستوثق من سلامة موقفه وسداده فاستشار عبد الله بن عمر وقال له : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي فإن أجبتهم تركوني وإن أبيت قتلوني فماذا ترى ؟

قال ابن عمر : أرأيت إن خلعت نفسك ، تبقى في الدنيا مخلدا .

قال الخليفة : لا .

قال ابن عمر : أرأيت إن لم تخلع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئا ؟ هل يملكون الجنة والنار ؟

قال الخليفة : لا .

قال ابن عمر : إذن فلا تسن هذه السنة في الإسلام ولا تخلع قميصا ألبسكه الله[1] .

فقه أبي ذر والخلفاء :

إن موقف عثمان من أبي ذر هو موقف عمر من قبل وموقف باقي الصحابة .

قال القاضي أبو بكر بن العربي (ومن العجب أن يؤخذ عليه في أمر فعله عمر)[2] . ولم يذكر ما فعله الخليفة الثاني ولعله يريد بذلك ما رواه ابن حزم في الأحكام أن عمر قال لابن مسعود ولأبي الدرداء ولأبي ذر ، ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال وأحسبه لم يدعهم أن يخرجوا من المدينة حتى مات ، وقد نبه ابن حزم أن الخبر مرسل)[3] .

---

(1) خالد محمد خالد . خلفاء الرسول ص425 - 427 . دار الكتاب العربي . بيروت .
(2) العواصم من القواصم ص26 .
(3) الأحكام في الأصول الأحكام ج2 ص139 .

ونقل موقف عثمان من أبي ذر فقال : (وكان أبو ذر يطلق الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان أن يقدم المدينة وكان في الشام ، فلما قدم اجتمع إليه الناس فقال لعثمان (أريد الربذة فقال له : افعل . فاعتزل . ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته)[1] .

ونقل القاضي ولي الدين بن خلدون في العبر أن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة وقال (إن رسول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا) فأذن له ، ونزل الربذة وبنى بها مسجدا وأقطعه عثمان بعضا من الإبل وأعطاه مملوكين ــ لخدمته ــ وأجرى عليه رزقا وكان يتعاهد المدينة ، أي يزورها في فترات حيث إنها على مسافة ثلاثة أميال[2] .

* * *

(1) العواصم من القواصم ص76 .
(2) الأحكام لابن حزم ج2 ص139 .

حول أسباب الثورة

لقد كان الشعار الذي رفعه المتمردون والثوار على الخليفة الورع (عثمان بن عفان) هو نصرة الإسلام بعزل الخليفة لمخالفاته التي أشاعوها .

والواقع يكشف أن هذا الشعار كان حيلة ورداء كاذبا ارتداه زعماء المؤامرة ليخفوا أطماعهم وأهدافهم الحقيقية ، وقد ضللوا بهذا الشعار كثيرا من المسلمين .

إنه في أول مواجهة علنية مع الخليفة تراجعوا . وكان التظاهر بالاقتناع الكامل بسلامة موقف الخليفة وكذب اتهاماتهم وبالتالي عودة الوفود إلى بلادها أي إلى مصر والبصرة والكوفة في جهات مختلفة . ثم فجأة عادت الوفود في وقت واحد إلى المدينة وتعللوا بأنهم وجدوا خطابا مع رسول من قبل الخليفة أدركوه في الطريق إلى مصر يأمر واليها ابن أبي السرح بقتل محمد ابن أبي بكر .

وهنا قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إن هذه الرواية إن صحت (مع كذبها) تخص المصريين وهؤلاء كانوا في طريق يبعد كثيرا عن طريق البصرة والكوفة ، فمن الذي أخبر أهل البصرة والكوفة بما يزعمه الثوار المصريون ، ولم يجد منهم جوابا صحيحا . فقال إنه أمر دبر بليل أي أبرم في المدينة[1] من زعماء المؤامرة .

إن هذه المواجهة تكفي وحدها للكشف عن حقيقة الاتهامات التي وجهها هؤلاء

(1) تاريخ الطبري ج4 ص351 والكامل لابن الأثير ج3 ص80 .

للخليفة ، وأنها ليست إلا ستارا لتنفيذ المخطط الذي بدأ باغتيال الخليفة الزاهد عمر ابن الخطاب .

ومع هذا فمازالت كتب التاريخ في المعاهد العلمية وغيرها تلقي ظلالا من الشك حول تصرفات الخليفة المفترى عليه .

لهذا نسطر من كتب التاريخ التي يحتجون بها أهم الأسباب التي من أجلها قام هؤلاء بالثورة ضد الخليفة وذلك في البنود التالية :

(1) يذكر الطبري أن الأشتر النخعي كان ضمن المحرضين على القتل وعندما أسند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولاية البصرة إلى عبد الله بن عباس ، قال الأشتر : علام قتلنا الشيخ ؟ اليمن لعبيد الله والبصرة لعبد الله[1] .

(2) كما يروي الطبري أن عمرو بن الحمق وثب على عثمان بعد طعنه وكان به رمق ثم طعنه تسع طعنات وقال ثلاث منهن طعنتهن إياه لله ، وست طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه[2] أي أنه طعنه لحقد في نفسه حيث لم يستجب له الخليفة فيما أراد من مناصب وهو ليس كفئا لها .

(3) يقول ابن جرير الطبري : وأما محمد بن أبي بكر فإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه[3] .

لقد كان يطمع أن يتركه الخليفة ولا يطالبه بحق من الحقوق لأنه ابن الخليفة الأول ولكن عثمان رفض ذلك فانضم إلى الثوار ضد الخليفة .

(4) كما يروي ابن كثير عن الدوافع لدى عمير بن ضابي وهو أحد المحرضين على الفتنة .

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص194 .
(2) المرجع السابق ج4 ص394 والكامل لابن الأثير ج3 ص179 وابن كثير جـ 7 ص 185 .
(3) تاريخ الطبري ج4 ص346 .

فقد حبس الخليفة أباه ضابي الحنظلي التميمي ، حتى مات في الحبس حيث كان قد خان الأمانة فلم يرد الكلب الذي استعاره من قوم فشكوا إلى الخليفة فحبسه ثم طلبه لمناقشته تمهيدا للإفراج عنه من الحبس فوجد معه خنجرا يريد أن يقتل الخليفة به ، فرده إلى الحبس ثم مات به[1] .

(5) أما محمد بن حذيفة وهو أحد المحرضين على الفتنة فقد كان ربيبا لعثمان ، مات أبوه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة يوم اليمامة وترك ابنه بغير كفيل فكفله عثمان ورباه ، ولكنه لم يحفظ هذه التربية فشرب الخمر فأقام عليه الخليفة الحد ولم يعفه .

وبعد أن تظاهر بالتوبة طلب من الخليفة بلدا يكون واليا عليها فقال له : لو كنت أهلا لذلك لوليتك ، فتظاهر أنه يريد الجهاد في سبيل الله ، وطلب من الخليفة الإذن للجهاد مع عبد الله بن أبي السرح فأذن له ، وما إن استقر بمصر حتى انضم إلى المتمردين وطعن في الخليفة وفي والي مصر فشكاه إلى الخليفة فرغب في علاج نفسيته وأرسل إليه ثلاثين ألف درهم وجملا عليه كسوة فذهب بها إلى المسجد وشنع على الخليفة وزعم أنه أرسلها رشوة إليه ليحابيه فبايعوه[2] .

وبهذه الخدعة أقنع المصريين المتمردين بتقواه وبنزاهته فبايعوه أميرا للصلاة وهو الذي زور كتبا باسم أمهات المؤمنين بدعوة المسلمين للثورة على عثمان لمخالفاته المزعومة[3] .

عثمان والإقطاع :

إن من يقرأ كتابات الشرقاوي وطه حسين وكتابات الشيوعيين العرب يجدهم يذكرون الناس بنظام الإقطاع في أوروبا في القرون الوسطى أي المظلمة عندهم ، وقد قرأ بعضهم عن إقطاع الأرض من الخلفاء إلى غير القادرين فربط بين ذلك ونظام الإقطاع .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص191 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص265 .
(3) خطط المقريزي ج3 ص 264 .

والجدير بالذكر أن إقطاع الأراضي يختلف عن نظام الإقطاع الذي نشأ في أوروبا في القرون الوسطى ، فإقطاع الأراضي بالمفهوم الإسلامي هو تمليك الدولة بعض الأراضي لغير القادرين وذلك لحفظ التوازن العام في المجتمع ، ذلك التوازن الذي أمر الله به في قوله تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ . أما الإقطاع في أوروبا فهو تملك فئة من الناس للأرض الشاسعة بما عليها من الحيوانات والأشياء وبمن فيها من الفلاحين ، وهذه الملكية يتكون منها إقطاعيات كبيرة تبيح لأصحابها بيع الأرض بما فيها ومن فيها من البشر والإسلام ينكر ذلك ويعلن عليه الحرب . قال تعالى : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾ .

وفي ظل الإسلام ينبغي ألا تتحول الفئة التي خصها بهذا المال أو هذه الأرض إلى طبقة لها من المزايا ما ليس لباقي الشعب كما هو الحال في بعض النظم العالمية التي تجعل من بعض الطبقات سيفا تبتر به الآخرين .

لقد وجد عمر بن الخطاب أن بلال بن الحارث المازني الذي أقطعه الرسول ﷺ أرض العقيق ، وجده لم يستغلها ولا يعمل فيها أنذره أن يعمر ما كان في حدود طاقته واستطاعته ويسلم ما زاد إلى بيت المال ليرده إلى غيره وفي هذا قال عمر : « إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، وإنما أقطعك لتعمل فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي » وذلك ليحول بينه وبين اتخاذ هذه الأرض وسيلة لاستغلال الكادحين وأن يعطلها لمصلحته الذاتية .

وعلاجا لهذه الحالة التي لم تكن قد أصبحت مشكلة أو ظاهرة عامة ، أصدر عمر قانونا نصه : « من عطل أرضا ثلاث سنوات ولم يعمرها وجاء غيره فعمرها فهي له »[1] .

---

(1) نيل الأوطار للشوكاني ج5 ص52 .

الصحابة وحقيقة أسباب الفتنة

يزعم طه حسين أن سبب الفتنة والثورة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أنه قد بلغ نظام الطبقات غايته ، فوجدت طبقة الأرستقراطية العليا ذات الثراء الضخم والسلطان الواسع ، وطبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، وطبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب الذين يغيرون على العدو ويحمون الثغور ويدافعون عما وراءهم من الناس وعن ثراء غيرهم[1] ، وهذه هي التي استغلها الأغنياء فحرفوها شيعًا وأحزابًا ، ويقول : ظهر هذا في مجلس سعيد ابن العاص وهو والي عثمان على الكوفة عندما قال في مجلسه : إنما السواد سواد الكوفة ، بستان لقريش فغضب القوم وقالوا : إنه فيء من الله وما نصيب قريش فيه إلا كغيرها ، فزجرهم رئيس الشرطة ، فضربوه حتى أغمى عليه ، ولم يقدر عليهم الوالي ، فاعتزل المجلس ، واحتجب عنهم ، وبعدها ضربوا غلاما من بني أسد قال : وددت للأمير أرض كذا بالفرات ، فضربوه وضربوا أباه ، حتى أغمي عليهما فنفاهم الوالي إلى الشام بأمر من الخليفة فعاشوا بها حيث أحسن معاوية استقبالهم وأجرى لهم العطاء ثم أذن له الخليفة في إعادتهم إلى موطنهم الكوفة فأطلقوا ألسنتهم في سعيد ، ومعاوية وعثمان ، فانتشرت دعوتهم فأرسلهم سعيد إلى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأذلهم حتى أعلن الأشتر توبته وذهب إلى عثمان فأذن له أن يذهب إلى حيث يشاء من البلاد .

---

(1) الفتنة الكبرى طه حسين ص109 ، ص124 ط دار المعارف بمصر وهذه أكاذيب كما سترى في الصفحات التالية .

والوقائع لمن جمع خيوط الفتنة من المصادر التاريخية تكشف عن أن الأشتر النخعي كان على رأس المحرضين لهذه الفتنة وتنقل بين البلدان كما كان من زعماء الفتنة حكيم بن جبلة .

فهؤلاء كانوا يختلقون الأخبار ويروجونها مستغلين أن عبد الله بن أبي السرح عندما ولاه عثمان على مصر وعزل عمرو بن العاص زاد قيمة الخراج على المصريين واستغلوا أيضا ، أن هذا الوالي كان قد ارتد عن الإسلام في زمن النبي ﷺ وأباح دمه ولكنه تاب بعد فتح مكة وطلب عثمان من النبي العفو عنه[1] ، وقد مر بنا جانب من جهاده في فتح إفريقيا .

كما استغلوا أمورا في الشام منها أنهم شكوا من سعد بن أبي وقاص وكان واليا من زمن عمر بن الخطاب وذلك لشدته فعزله عثمان وعين الوليد بن عقبة حيث كان أحب إلى الناس وأرفقهم ثم طعنوا عليه لكونه أخا لعثمان من الأم واتهموه بشرب الخمر[2] . فأقام عليه الخليفة الحد وعزله وولى سعيد بن العاص ، فاستغلوا أن أباه كان كافرا ، وقتل يوم بدر ، قتله علي بن أبي طالب وشنعوا عليه بعد أن تمكنوا من إيفاد أتباعهم إلى مجلسه وأحدثوا الفتنة التي أدت لإيفادهم إلى الشام بعد أن عجز عن التصدي لهم ، وطلبوا عزله وتعيين أبي موسى الأشعري فأجابهم عثمان آملا في أن تهدأ الفتنة وحتى لا يظلم الناس[3] .

والأشتر هو الذي كان على رأس قتلة عثمان ودخل عليه وقال : (إن القوم يريدون منك إما أن تخلع نفسك أو يقتصوا منك أو يقتلوك)[4] . ولقد رفض عثمان أن يدافع عنه الصحابة لسبب أظهره حديث ابن ماجة للنعمان بن بشير عن أم المؤمنين عائشة أن رسول الله ﷺ قال لعثمان « يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » قال ذلك ثلاث مرات[5] . وقد أفتاه عبدالله بن عمر بعدم الاستجابة إلى طلبهم حتى لا تكون سنة

(2،1) عثمان بن عفان للأستاذ محمد رضا ص 142 ، ص 145 ط ، عيسى الحلبي بمصر .
(3) الغزو والفكر للتاريخ والسيرة سالم البهنساوي ، ص349 - 352 . دار القلم بالكويت .
(4) تاريخ الطبري ج5 ص117 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص184 وأنساب الأشراف للبلاذري ج5 ص92 .
(5) مقدمة سننه ص41 الحديث 112 ومسند أحمد ج1 ص59 والنسائي ج2 ص124 .

كلما أرادت فئة عزل خليفة عزلوه أو قتلوه[1] .

وهذا الأشتر سخط على أمير المؤمنين علي بعد موقعة الجمل لأنه ولى عبدالله بن عباس على البصرة ، وكان الأشتر يعمل لهذه الولاية ، كما أن قتلة عثمان كانوا على رأس من خرج عن الإمام علي حتى اغتالوه بنفس الوسيلة وكان عبدالله بن الزبير قد طلب قتل الأشتر في موقعة الجمل ، ولكن لم يعرف رجاله ذلك حيث قال : (اقتلوني ومالكا) وهم لا يعرفون إلا اسم الأشتر لهذا فلت من يد ابن الزبير ، ومما قاله الأشتر بعد تولية ابن عباس على البصرة : (علام قتلنا الشيخ ؟ اليمن لعبيد الله والحجاز لِقُثِم والبصرة لعبد الله والكوفة لعلي)ثم تظاهر بالتوبة حتى ولاه الإمام علي مصر بعد قيس بن سعد بن عبادة فمات بعد شربة عسل ، وقيل إنها كانت سما[2] ، وهكذا كانت الفتنة من هؤلاء ، وهم الذين حركوا الفتنة في خلافة علي رضي الله عنه .

موقف الخليفة من الفتنة :

أما موقف أمير المؤمنين من دعاة الفتنة فقد بعث بوفود إلى الأمصار للوقوف على حقيقة الأمر وأغراض الوافدين إلى المدينة من مصر والشام فقال الرسل لعثمان بعد عودتهم : اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فاقتلوه فعليه لعنة الله » ، فقال عثمان : نعفو ونقبل ونبصرهم بجهادنا ولا نحد أحدا حتى يرتكب حدا أو يبدي كفرا[3] .

ولما حاصروه وطلب الصحابة قتالهم ، قال : من كان في عنقه بيعة فليغمد سيفه وليلزم داره .

إن دعاة الفتنة سبق أن طلبوا عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفة فعزله وولى

---

(1) العواصم من القواصم ص130 .
(2) عثمان بن عفان للدكتور محمد حسين هيكل ص140 ط ، النهضة بمصر .
(3) تاريخ الطبري ج5 ص194 والإصابة في تمييز الصحابة ج3 ص482 والعواصم من القواصم ص119 .

عليها الوليد بن عقبة فشكوا منه فعزله وشكوا من عمرو بن العاص عندما اختلف مع عبدالله بن سعد بن أبي السرح فعزله وولى ابن أبي السرح على مصر ، فلم تقف شكواهم فطمع هؤلاء في لينه ورغبته في إرضاء الرعية حيث كان يظن أن الشكوى من الأغلبية وليست من عصابة لها مآرب خاصة ، واستغل هؤلاء أيضا كرمه وسخاءه مع أقاربه فطعنوا في ذلك مع أنه كان يغدق عليهم من أمواله وليس من بيت المال .

أما ما زعمه طه حسين عن ظهور الطبقات في عصر الخلفاء حتى بلغ ذروته في عصر عثمان ، فأمر لم يقل به إلا جهلة الشيوعيين وليس أدل على كذبه في زعمه عن طبقة البؤساء الذين كانوا يعملون في الأرض ، أن كل باحث يعلم أن الزراعة في مكة والمدينة كانت قليلة جدا ولم يكن هناك نظام العمالة بل المزارعة . ومن المزاعم ما كتبه من أن الطبقة المتوسطة كانت تتولى الجهاد والدفاع عن مال الأغنياء ، فهو لا يجهل أن المجاهدين كانوا من الأغنياء والفقراء ولم يعرفوا نظام الفوارق والطبقات .

* * *

خيوط المؤامرة

كانت الفتنة في الكوفة على ألسنة العوام والذين دخلوا في دين الله حديثا فشكوا من الوالي سعيد بن العاص ولكن الذين كانوا وراء الفتنة مجموعة مكونة من مالك ابن الحارث الأشتر النخعي ، وثابت بن قيس النخعي ، وكميل بن زياد النخعي ، وزياد بن صوحان العبدي ، وجندب بن زهير الغامري ، وجندب بن كعب الأزدي ، وعروة بن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعي . وكان ذلك في أواخر عهد عثمان ، وبعد مرور عشر سنوات على تسلمه الخلافة ، وفي عام 34 هجرية تحرك هؤلاء المنحرفون من الكوفة إلى الشام ، إلا أنهم ردوا مرة ثانية إلى الكوفة ، فقالوا : إن الكوفة والشام ليستا لنا بدار ، فاتجهوا إلى الجزيرة ، فشدد عليهم واليها عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد ، وأرسل الأشتر إلى المدينة ، فخيره الخليفة في المكان الذي يرغب سكناه ، فاختار منطقة عبد الرحمن بن خالد .

أما زعماء الفتنة في مصر وكانوا قد تحولوا من الشكوى للخليفة إلى المراسلات في كل الأمصار ، ليزيدوا في إضرام نار الفتنة .

لذلك جمع الخليفة عثمان بن عفان أمراء الأمصار في موسم الحج عام 34 هجرية وهم : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وسعيد بن العاص ، وعبدالله بن عامر ، واستشارهم في أمر هؤلاء وما يتكلمون به ، فأشير عليه بأن ينقل هؤلاء المنحرفين إلى الثغور فينشغلوا بأنفسهم كما اقترحوا عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويطيعوا . ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذاك . ورأى أنه يلزم إزالة أسباب الشكوى من سعيد بن العاص أمير الكوفة ، فاستجاب الخليفة للطلب فعزل سعيدا وولى أبا موسى مكانه ، وكتب لأهل الكوفة

« أما بعد ، فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيكم من سعيد ، والله لأفرشنكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ، ولأستصلحنكم بجهدي ، فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتهم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم علي حجة »[1] .

ولم يرض المتمردون بأعمال الخليفة ولينه لهم بل استمروا في تصرفاتهم وكلامهم ، فأرسل بعض الصحابة إلى الأمصار يستطلعونه آراء الناس ، ويعرفون أخبار المسلمين وموقفهم ، فقد بعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبدالله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، ورجالا آخرين سواهم ، فرجع الجميع ولم ينكروا شيئا ، إلا عمار بن ياسر فقد تأخر واستمع إلى ما كان يشاع في مصر محاولا تهدئة الفتنة .

وجاء وفد من مصر في رجب عام 35 هجرية إلى الحجاز يظهرون أنهم يريدون العمرة ، وتحولوا إلى مناظرة الخليفة ومناقشته في المدينة وإشعال نار الفتنة ، وتمت المواجهة ، وأبدى رأيه ، وأقنع الوفد بنفسه وبمعرفة بعض الصحابة منهم ؛ علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة ، ودخل بعضهم المدينة ، وحضر خطبة للخليفة أثنى فيها على الوفد ، واستغفر الله ، وبكى وأبكى الناس ، وانصرف المصريون راجعين إلى بلادهم .

ولكن زعماء الفتنة رجعوا إلى مصر وبدءوا يحرضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى من الولاة والأوضاع العامة لأن المدينة أحرى بالفوضى أن تؤثر فيها ، إذ إنها مقر الدولة ومركز الخليفة ومدينة رسول الله ﷺ ، ثم اتفقوا على أن يسيروا إلى المدينة في شهر شوال في ذلك العام ، وأن يكون مسيرهم مع الحجاج حتى لا يلحظ الصحابة أن التجمع على نطاق أوسع ، وانطلق أهل مصر في نحو ألف رجل .

---

(1) التاريخ الإسلامي جـ 3 ، الخلفاء الراشدون محمود شاكر ص 244 , 245 .

وفي الوقت نفسه انطلق أهل الكوفة وأهل البصرة ، وقد خرجت كل جماعة على شكل فرق أربع ، وعلى كل فرقة أمير ، وعلى الجميع أمير عام .

بهذا التخطيط والتنظيم كان على أهل مصر الغافقي بن حرب ، ومعهم عبد الله ابن سبأ ، وعلى أهل الكوفة عمرو بن الأصم ، ومعهم زيد بن صوحان العبدي ، وعلى أهل البصرة حرقوص بن زهير السعدي ، ومعهم حكيم بن جبلة العبدي . وبمسيرهم مع الحجاج لم يعلم الولاة حقيقة الأمر ، ولم يكونوا ليتصوروا أن هذه الشرذمة قادرة أو تسعى لقتل الخليفة أو تجرؤ على القيام بهذا العمل في دار الهجرة ، لذا لم يبذلوا جهدا يذكر ، ولم يرسلوا جيشا للتصدي لهم ، كما لم يفعل أهل المدينة ذلك حيث طلب الخليفة أن يلزم الصحابة بيوتهم ويتركوه مع الشاكين ليحقق في شكواهم .

ولما واجههم الخليفة وأوضح كذب الاتهامات المنسوبة إليه ، لم يجدوا بدا من التظاهر بالطاعة ، خصوصا أنهم قد شاهدوا تحركات كبار الصحابة الذين تحدثوا في التجمع خارج المدينة للدفاع عنها ومنع هذه الفتنة إذا لم يعد هؤلاء إلى ديارهم بعد أن أدوا مناسكهم .

وقد استعد كبار الصحابة وحملوا سيوفهم وخرجوا بقيادة علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة ، عندئذ ، خاف المحرضون وأبدوا الرغبة في العودة إلى أمصارهم والهدوء فيها ، وبالفعل فقد رجعوا أدراجهم ، وظن علي والمسلمون أن الخطر قد زال عن دار الهجرة فعادوا إليها ، ولم يستقروا فيها حتى أروعهم التكبير داخل أزقتها ، ومحاصرة دار الخليفة عثمان ، وعندما سألهم علي رضي الله عنه عن سبب رجوعهم قالوا : إن الخليفة قد أرسل كتابا لقتلنا ، وأظهر أهل مصر كتابا فيه قتل محمد بن أبي بكر ، قال علي : إذا كان ذلك في مصر ، فما بال أهل الكوفة قد عادوا ؟ وكذا أهل البصرة ، قالوا نمنع إخواننا وننصرهم . قال : من الذي أخبر كل فريق بما حدث مع الآخر ؟ وقد سرتم مراحل .

هذا أمر دبر وأبرم بالمدينة . قالوا ضعوه ما شئتم ، ليعتزلنا هذا الرجل[1] .

وهكذا كان التخطيط لدخول المدينة على حين غفلة من أهلها ، وهنا يظهر تلفيق الكتاب الذي أظهره المصريون ، فقد ثبت تخلف الأشتر والحكيم بالمدينة فكان لهما ضلع في هذا الكتاب كما كان لهما ضلع في الفتنة من قبل ومن بعد[2] .

كان حصار دار عثمان يسيرا حيث كان يخرج الخليفة ويصلي بالناس ، ويأتي الصحابة إليه ، ويأتي إليهم . ثم بعث إلى العمال في الأمصار يأمرهم أن يرسلوا إليه الجند لينصروه ، ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين ، وعندما عرف المنحرفون هذا الخبر ، وأن حبيب بن مسلمة قد سار من الشام ، ومعاوية بن حديج من مصر ، والقعقاع بن عمرو من الكوفة ، ومجاشع السلمي من البصرة ، وكل على رأس قوة لنصرة الخليفة تغير حصار الدار واشتد عمل المنحرفين . ولكن الخليفة طلب من الصحابة أن يلزموا بيوتهم وقال من كان له طاعة وبيعة فليغمد سيفه ويلزم داره[3] .

مقتل عثمان رضي الله عنه :

حاصر المتمردون بيت الخليفة ومنعوا وصول الماء إليه ولما قرب موسم الحج خشي الخليفة من عدم وجود أمير للحج يتولى أمور المسلمين في موسم الحج فنظر من سطح داره ووجد عبدالله بن عباس يقف بالباب ليدافع عن الخليفة فندبه ليكون أميرا للحج فقال : جهاد هؤلاء أحب إليَّ من الحج فأقسم عليه الخليفة وأمره أن يطيع فانصرف إلى مهمته[4] .

---

(1) تاريخ الطبري جـ 4 ص 351 .
(2) العواصم من القواصم ص 89 .
(3) المرجع السابق والكامل لابن الأثير جـ 3 ص 174 .
(4) الكامل لابن الأثير جـ 3 ص 174 .

وحدث قتال شديد بين المتمردين مع أميرهم الغافقي بن حرب وبين الصحابة الذين يقفون بباب الخليفة فاقتحم الثوار الدار وانتدبوا رجلا آخر ليقتله فلما ناقش الخليفة خرج ورفض أن يطيعهم ، فانتدبوا آخر وخرج مثل صاحبه ، فانتدبوا الثالث وعاد كذلك ، مقتنعا ببراءة الخليفة من التهم فخافوا أن يدخلوا هم عليه وانتظروا .

وفي صباح ذات يوم قال الخليفة لزوجه نائلة إن القوم يقتلونني اليوم فإني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر فقالوا : أفطر عندنا الليلة ، أو قالوا : إنك تفطر عندنا الليلة وكان صائما[1] .

ودارت معركة بين المتمردين وحراس البيت من الصحابة فقال عثمان للحراس أنتم في حل من نصْرتي ، ولما علم الثوار أن جنودا قد تحركت من مصر والشام والعراق لحصارهم وطردهم اتفقوا على قتله قبل أن تصل الجنود .

وفي رواية ابن كثير[2] أن الغافقي بن حرب تقدم إليه فضربه بحديدة ورفس المصحف الذي يقرأ فيه وسالت عليه الدماء وتقدم سودان بن حمران بسيفه فتعرضت له نائلة زوجة الخليفة فضربها بالسيف فقطع أصابعها وبعد قتل عثمان أراد الجناة قطع رأسه فتعرضت بناته وامرأتاه نائلة وأم البنين فنادى أحدهم يحل لنا ماله كما حل دمه فنهبوا بيته وتوجهوا إلى بيت المال واشتبكوا مع حراسه ونهبوه وكان ذلك يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية .

* * *

(1) الطبقات لابن سعد جـ 3 ص 75 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ 7 ص 188 , 189 .

الفصل السادس

الخليفة الرابع

علي بن أبي طالب

- نسبه وإسلامه وخصاله
- بيعته بالخلافة
- السياسة الداخلية للخليفة الرابع
- عودة الفتنة وعزل الولاة
- الخليفة وفتنة الشام
- المطالبة بدم عثمان والمعارك الحائرة
- تجمهر البصرة وبشائر الصلح
- المؤامرة واشتعال الحرب
- تمرد معاوية بن أبي سفيان
- التحكيم المفترى عليه
- ظهور الخوارج ومشكلتهم
- قتل الخليفة والاستخلاف

الخليفة الرابع
علي بن أبي طالب

نسبه وإسلامه :

هو علي بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ويكنى أبا الحسن ، وهو ابن عم الرسول ﷺ .

أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

ولد سنة 23 قبل الهجرة النبوية أي أنه أصغر من النبي ﷺ بثلاثين عاما[1] .

والده أبو طالب أحد شيوخ قريش وقد دافع عن النبي ﷺ وحماه من قريش وعدوانها وأذاها كما دافع عن المسلمين حمية للنبي ﷺ .

وقد أسلمت أمه وهاجرت إلى المدينة مع صحابة الرسول ﷺ .

ولقد كان أبوه فقيرا وله من الأولاد ؛ طالب وعقيل وجعفر وعلي وفاختة وجمانة جميعهم أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم . فطلب الرسول ﷺ من أعمامه مساعدة أخيهم أبي طالب فتشاوروا معه لتربية بعض أولاده فوافق أن يأخذوا من يشاءون منهم لتربيتهم وإعالتهم وأن يتركوا له عقيلا ، فأخذ الرسول ﷺ عليا وأخذ العباس جعفرا .

ويرجع السبب في ذلك أن مكة أصابها قحط شديد في هذه الفترة فأراد النبي ﷺ أن يخفف عن أبي طالب حتى تنتهي هذه الغمة وينتهي هذا القحط . وظل علي مع الرسول ﷺ حتى نزل الوحي عليه وبعثه الله رسولا ونبيا فآمن به علي وهو ابن عشر سنين فهو أول من آمن من الأشبال[2] .

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص359 .

(2) السيرة النبوية لابن هشام مجلد 2 ص246 .

ولهذا كرم الله وجهه فلم يسجد لصنم قط[1] .

بعض خصاله وأعماله :

قد كان له كثير من الأعمال والخصال الظاهرة قبل توليته الخلافة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(1) اختاره النبي ﷺ لينام على فراشه ويتغطى ببرده الأخضر ليلة هجرته من مكة إلى المدينة حتى تظن قريش أن النبي ﷺ ما زال في بيته ولم يخرج ، وبهذا كان له شرف فداء النبي في هذه الليلة .

ولقد واجه الراصدين للنبي ﷺ بشجاعة عندما اقتحموا البيت ودخلوا عليه ولم يدلهم على خط سيره ونفذ وصية النبي ﷺ بأن أدى ودائعه إلى أصحابها ثم هاجر إلى المدينة[2] .

(2) كان له شرف مصاهرة النبي ﷺ بالزواج من ابنته السيدة فاطمة الزهراء وقد كان جهازها خميلة وقربة ووسادة حشوها ليف . فقال له النبي ﷺ : (جمع الله شملكما وأعز جدكما وبارك عليكما وأخرج منكما)[3] .

وقد شكيا معا إلى النبي ﷺ من كثرة عمله وعملها في البيت وطلبا منه خادما يخدمها في البيت وقال الرسول ﷺ ألا أخبركما بخير مما سألتماني قالا نعم . قال كلمات علمني جبريل عليه السلام (تسبحان في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين) قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ . رواه أحمد في المناقب .

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج3 ص2 — ص22 .
(2) تاريخ الطبري ج2 ص373 — ص382 .
(3) رواه الإمام أحمد في المناقب .

وقد أنجب رضي الله عنه منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى .

(3) شهد الغزوات كلها مع الرسول ﷺ سوى غزوة تبوك حيث خلفه في أهله في المدينة فأشاع المنافقون أنه خلفه زهدا فيه فذهب إلى رسول الله ﷺ باكيا وقال يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ؟ فقال ﷺ (أما ترى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي) . رواه مسلم في صحيحه .

(4) سارع وبايع أبا بكر الصديق عندما اختاره المهاجرون والأنصار لخلافة المسلمين من بعد وفاة النبي ﷺ كما رغب عن الخلافة وكان ممن أشار على أبي بكر باستخلاف عمر بن الخطاب كما رغب عنها بعد مقتل عمر عندما سأله عبد الرحمن بن عوف المفوض عن أهل الشورى في اختيار الخليفة أن يعمل بالكتاب والسنة النبوية وأن يلتزم بسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر فأجاب أن يعمل بالقرآن والسنة النبوية وأن يجتهد فيما عدا ذلك . وهو يعلم أن هذه الإجابة تعني الاعتذار عن الخلافة وقد فهم عبد الرحمن بن عوف ذلك وأسند الأمانة التي في عنقه إلى عثمان بن عفان .

(5) وقف بجانب الخلفاء الثلاثة في جميع المعضلات والمهمات وكان مستشارا أمينا لكل منهم[1] كما كان يتولى القضاء في خلافة عمر وله موقف مشهود في مواجهة الثوار حيث وقف بجانب الخليفة عثمان وشرع في القتال لحمايته ولكن الخليفة رفض ذلك على النحو السالف ذكره وكان يقول (أنا لكم وزير خيرٌ لكم مني أمير)[2] .

(6) كان يحمل راية النبي ﷺ في الغزوات وجهاده وبطولاته في ذلك مشهورة

---

(1) يروي ابن الأثير وغيره أنه لما خرج أبو بكر بعد توليه الخلافة وشهر سيفه لقتال المرتدين أوقفه علي بن أبي طالب وأخذ بزمام راحلته وقال له أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : (شم سيفك (أي أغمده) لا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة . والله لئن أصبنا بك لا يكون بعدك نظام أبدا) الكامل لابن الأثير ج2 ص130 والرياض النضرة . للمحب الطبري ج1 ص130 .

(2) نهج البلاغة ج1 ص182 و ج3 ص 7 .

في كتب المغازي والسيرة وفي غزوة خيبر قال النبي ﷺ (لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، قال فبات الناس ليلتهم يدركون أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها) .

فقال النبي ﷺ (أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا يشتكي عينه يا رسول الله . قال : فأرسلوا إليه فأتوني به .

فلما جاء تفل في عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه الراية ، فقال علي يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك أن يكون لك حمر نعم) رواه البخاري ومسلم .

(7) عند عودة النبي ﷺ من حجة الوداع وهو في طريقه إلى المدينة المنورة وصل إلى منطقة تسمى غدير تتشعب منها الطرق إلى المدينة والعراق ومصر واليمن وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة فوقف خطيبا وأوصى بأهل بيته وبعلي رضي الله عنه وقال : (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) . مسند أحمد ج 1 ص118 وج4 ص281 والمستدرك للحاكم ج3 ص109 .

وقد عرف هذا في كتب السنة بحديث الغدير وقد فهم علي وباقي الصحابة أن هذه الولاية ليست ولاية السلطة والخلافة إنما هي ولاية النصرة والمودة لأن القرآن الكريم استخدم الولاية بالمعنى الأخير .

قال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ .

وسياق الحديث وظروف الحال تدل على أن الولاية هي النصرة والمودة والأخوة وليس الرئاسة والخلافة لأن هذه الولاية طلبها النبي ﷺ في حياته لعلي ولا يجوز لمسلم أن يفهم غير ذلك إذ لا يمكن أن يكون علي إماما وخليفة في حياة النبي ﷺ ومع وجوده .

(وها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يبين هذا عندما طعنه الخائن ابن ملجم فيروي أحد علماء الشيعة وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي أنه بعد أن طعن دخل عليه الناس يسألونه أن يبايعوا ابنه الحسن إذا توفاه الله فقال لا أنهاكم ولا آمركم فقال رجل ألا تعهد يا أمير المؤمنين قال لا ، ولكنني أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ)[1] .

ولهذا لم يحتج أحد من الصحابة بهذا الحديث بعد وفاة النبي ﷺ مع أنه قد سمع هذا الحديث مائة وعشرون ألف مسلم على الأقل حسبما يروي القزويني[2] .

(وقد احتجوا بحديث النبي ﷺ الأئمة من قريش) وذلك لتعزيز ترشيح أبي بكر للخلافة ، ذكر ذلك اليعقوبي وهو من علماء الشيعة . تاريخ اليعقوبي ج2 ص187 .

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

تحت هذا العنوان روى الإمام محمد بن جرير الطبري عن محمد بن الحنفية قال كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا إن هذا الرجل قتل ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ﷺ . فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا . فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : ففي المسجد ، فإن بيعتي لا تكون خفيا ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

فلما دخل المسجد دخل المهاجرون فبايعوه ثم بايعه الناس .

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص425 .

(2) عيد الغدير للشيخ محمد القزويني ص16 ، وقد ذكر أن حديث الغدير تضمن أيضا الأمر بخلافة اثني عشر إماما بعد النبي ﷺ أولهم علي بن أبي طالب ، وهذه كلها إضافات ليست في الحديث النبوي ولم يقل بها أحد في حياة النبي ولا عند وفاته ولا عند وفاة أبي بكر وعمر وعثمان ولا عند الخلاف بين الإمام علي ومعاوية أو الخلاف بين بني أمية والحسن بن علي ، وتفصيل ذلك في كتاب الحقائق الغائبة بين الشيعة وأهل السنة للمؤلف وكتاب الشيعة والتصحيح للإمام موسى الموسوي . دار الزهراء للإعلام العربي . مصر .

كما يروي أيضا أنه اجتمع المهاجرون والأنصار بما فيهم طلحة والزبير فأتوا عليا فقالوا يا أبا الحسن هلم نبايعك ، فقال : لا حاجة لي في أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به ، فاختاروا ، فقالوا : والله ما نختار غيرك ، فاختلفوا إليه مرارا ثم أتوه في آخر ذلك ، فقالوا له : إنه لا يصلح الناس إلا بأمرة ، وقد طال الأمر . فقال لهم : إنكم قد اختلفتم إليّ فلا حاجة لي فيه . قالوا : ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله ، فصعد المنبر فاجتمع الناس إليه فقال : إني قد كنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، إلا وإنه ليس لي أمر دونكم ألا أن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهما دونكم . رضيتم ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك[1] .

وتذكر الروايات أن الناس ظلوا بغير أمير ما بين ثلاثة أيام وخمسة أيام وذلك لرفض علي أن يتولى الخلافة .

وتردد علي في قبول الخلافة يرجع إلى أن أغلب الذين يسيطرون على المدينة من الشراذم الذين كانوا في الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان . ولكن خشية استمرار الفتنة وسيطرة الثوار على المدينة قيل له ألا ترى الفتنة ؟ ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى الإسلام ؟ فقال : اعلموا أني إن أجبتم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم وأنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم .

ولقد هدد بعضهم بقتل علي وطلحة والزبير وهم المرشحون للخلافة إذا ظل المسلمون بغير أمير أو خليفة[2] .

لهذه الأسباب والظروف قرر علي أن يقبل الخلافة خشية أن يحدث ما لا يحمد عقباه وقال لهم (والله ما عهد رسول الله ﷺ عهدا إلا شيئا عهده إلى الناس ،

---

(1) تاريخ الطبري ج3 ص450 إلى ص 451 .

(2) تاريخ الطبري ج4 ص434 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص227 ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص358 .

ولكن الناس وقعوا على عثمان وقتلوه فكان غيري فيه أسوأ حالا وفعلا مني ثم إني رأيت أني أحقهم بهذا الأمر ، فالله أعلم أصبنا أم أخطأنا) رواه أحمد في مسنده باب خلافة علي[1] .

ولقد استجاب علي رضي الله عنه لإلحاح المسلمين وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية فصعد المنبر في مسجد الرسول ﷺ وخطب الناس فقال (إن هذا أمركم وليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح مالكم معي ، وليس لي أن آخذ درهما دونكم ، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد) .

فصاح الناس من جوانب المسجد قائلين نحن على ما فارقناك عليه بالأمس ، وقال : علي اللهم فأشهد .

وجيء بطلحة ليبايع ، وصعد المنبر وبايع ثم جيء بالزبير بن العوام فبايع ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ، ثم قام العامة فبايعوه)[2] ، كما قال أيضا (بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا ....) نهج البلاغة ج1 ص182 و ج3 ص7 .

السياسة الداخلية للخليفة الرابع :

لقد أعلن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سياسته الداخلية في أول خطبة خطبها بعد مبايعته فقال (إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا ، بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر . إن الله حرم حرما مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه

(2,1) الكامل لابن الأثير ج3 ص193 , 194 وجولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين للدكتور محمد الوكيل ص437 ـــ ص442 .

ويده إلا بالحق ، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحدوا بكم فتخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بالناس أخراهم . اتقوا الله عباده في عباده وبلاده ، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، اطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ...)[1] .

* * *

(1) تاريخ الطبري ج4 ص436 .

عودة الفتنة وعزل الولاة

شرع الخليفة الرابع في أخذ رأي بعض المخلصين له في عزل بعض الولاة وهم معاوية بن أبي سفيان والي الشام وعبد الله بن عامر والي البصرة وسعيد بن العاص والي الكوفة ، ويعلي بن منبه والي اليمن .

ولقد أشار عليه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس أن يبقي من ولاهم عثمان حتى يأخذوا له البيعة من هذه الأقاليم وتستقر الأمور ثم بعد ذلك يعزل من يشاء منهم ويقر من يشاء ، ولكن أمير المؤمنين اعتبر هذه خديعة ومداهنة فقال له المغيرة ابن شعبة إني والله لا أداهن في ديني ولا أعطى الدنية في أمري فإن أبيت إلا ما تريد فاترك معاوية فقد ولاه عمر بن الخطاب على الشام كلها وهو مسموع الكلمة في أهل الشام وله جرأة . فقال أمير المؤمنين ، والله لا استعمل معاوية يومين أبدا[1] ، ورفض أن يظهر خلاف ما يسر في نفسه لأن هذه خديعة ومداهنة في دين الله .

كما ألح عبدالله بن عباس على الخليفة أن يبقي هؤلاء الولاة وخصوصا معاوية وقال له إن عزلتهم قالوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ويؤلبوا عليك فتنقض عليك الشام وأهل العراق وقد يكر عليك طلحة والزبير أيضا وقال له ابن عباس يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب . فقال الخليفة : والله لا أعطيه إلا السيف[2] .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص441 والكامل لابن الأثير ج3 ص189 ، ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص363 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص197 .

وبعد خمسة أيام من مبايعة الخليفة الرابع بدأ ينفذ خطته في عزل هؤلاء الولاة وذلك على النحو التالي :

(1) أرسل عبد الله بن عباس إلى الشام ليحل محل معاوية ولكن ابن عباس اعتذر وقال للخليفة لا تنس أن الخليفة المقتول قد يطالبك معاوية بدمه فهو ابن عمه فإذا لم يفعل ذلك فلا أقل من أن يحبس الوالي الجديد عنده ، ولكن الخليفة لم يأخذ بهذا الرأي وولى سهل بن حنيف على الشام بدلا من معاوية فتوجه إلى الشام وعند تبوك تصدت له مجموعة من الفرسان فأجابهم أنه أمير فقالوا له إن كان عثمان قد بعثك فمرحبا بك وإن كان غيره فارجع ، فرجع إلى المدينة و لم يدخل الشام بعد أن أخبرهم بما كان في هذا الشأن .

(2) ولى عثمان بن حنيف على البصرة فدخلها دون أن يتعرض له أحد ووجدهم فرقا ومذاهب شتى فرقة دخلت في طاعة الخليفة والتزمت الجماعة وفرقة انضمت إلى المنشقين على الخليفة ، والفرقة الثالثة أصبحوا في موقف وسط وقالوا نتوقف حتى نتبين ماذا سيصنع أهل المدينة[1] .

(3) وولى قيس بن سعد بن عبادة على مصر فدخلها فوجد الناس قد تفرقوا فرقا ، فرقة بايعت الخليفة والتزمت بالجماعة وفرقة قالوا لا نبايع حتى يقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قتلة عثمان والفرقة الثالثة قالوا نحن مع أمير المؤمنين علي ما لم يقتص من إخواننا أي أنهم معه طالما ترك قتلة عثمان و لم يحاكمهم فكتب الوالي الجديد كل ذالك لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

(4) وولى عمارة بن شهاب على الكوفة فلقيه هناك طليحة بن خويلد و كان من المطالبين بثأر عثمان وقد تحمس لذلك ليكفر عن خطئه في عدم نصرته فلما عرف بالأمر من عمارة قال له ارجع إلى المدينة فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا فإن أبيت ضربت عنقك فعاد عمارة إلى المدينة وأخبر الخليفة بذلك .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص442 .

(5) وولى عبيد الله بن عباس على اليمن فدخلها بغير معارضة أو مقاومة .

مشكلة معاوية بن أبي سفيان :

لقد كان أمير المؤمنين مهموما من رجوع أمرائه على النحو سالف الذكر حتى جاءته رسالة من أبي موسى الأشعري تخبره أنه قد أخذ له البيعة من أهل الكوفة إلا القليل النادر والتي لم يستطع أميره عمارة بن شهاب أن يدخلها لأن الأشعري كان أميرا للصلاة بالكوفة منذ عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ويثقون فيه فأقنعهم بمبايعة الخليفة الجديد[1] .

عندئذ أرسل الخليفة رسالة إلى معاوية بن أبي سفيان حملها إليه سبرة الجهني فاستلمها معاوية ولم يرد عليها طيلة ثلاثة أشهر ثم بعدها أرسل معاوية رجلا من بني عبس اسمه قبيصة وأعطاه صحيفة مختومة بخاتمه وكتب عليها من معاوية إلى علي .

وقد كانت رسالة أمير المؤمنين إلى معاوية أن يدخل في السلم أو يأذن بالحرب لأن الناس قد اجتمعت عليه كخليفة وبايعته .

أما رسالة معاوية إلى أمير المؤمنين فلم يكتب فيها شيئا إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، ففض الخليفة الرسالة فلم يجد فيها إلا ذلك فسأل العبسي ما وراءك ؟ فقال العبسي أيها الناس هل فيكم أحد من عبس ؟ قالوا نعم . قال : فاسمعوا مني وافهموا عني أني قد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ خضبوا لحاهم بدموعهم تحت قميص عثمان ، رافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته أو تلحق أرواحهم بالله .

فقام رجل من عبس هو خالد بن زفر وقال لبئس وافد الشام أنت ، أتخوف المهاجرين والأنصار بجنود أهل الشام ببكائهم على قميص عثمان فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب ، ولئن بكوا عليه بالشام فقد خذلوه بالعراق[2] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص230 .

(2) الأخبار الطوال للدينوري ص141 ، 142 .

فلما سمع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ذلك قال أمني يطلبون دم عثمان اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله فإنه إذا أراد شيئا أصابه . ثم أمر العبسي (رسول معاوية) أن يخرج . فقال وأنا آمن ، قال : وأنت آمن فلما تحرك بالخروج صاح أعداء عثمان وقالوا هذا الكلب رسول الكلاب اقتلوه فاستغاث بآل مضر وآل قيس فحمته مضر[1] .

والجدير بالذكر أن النعمان بن بشير كان قد حمل قميص عثمان ملطخا بدمه ومعه أصابع زوجته نائلة فأخذ معاوية القميص وعلقه مع الأصابع على المنبر ليراه الناس وتوافد الناس يبكون ويحرضون بعضهم بعضا على الثأر من قتلة عثمان .

الخليفة وفتنة الشام :

أرسل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى ولاة الأقاليم يستنفرهم لحرب معاوية بالشام فكتب إلى قيس بن سعد في مصر وإلى أبي موسى الأشعري في الكوفة ، وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة ليستنفروا الناس لحرب أهل الشام وأن يخرجوا لنصرة الخليفة وخطب في أهل المدينة وطلب منهم ذلك فكان مما قال : (انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يفرقوا جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم[2] .

ونظم الخليفة الذين اجتمعوا واختار الأمراء فسلم اللواء لولده محمد بن الحنفية[3] وجعل عبد الله بن عباس قائد الميمنة وعمرو بن أبي سلمة قائد الميسرة ولم يستعن بأحد من الخارجين على عثمان .

ولقد رأى ابنه الحسن رضي الله عنه هذا الاستعداد لقتال أهل الشام فأيقن أنه ستكون فتنة فقال لأبيه : (يا أبت دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ووقوع الاختلاف بينهم) .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص444 والكامل لابن الأثير ج3 ص203 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص230 .

(3) أمه خولة بنت جعفر الحنفية من سبايا حروب الردة ، فكانت من الإماء وتزوجها فأنجبت له محمدا الأكبر المعروف باسم ابن الحنفية .

نظر الخليفة إلى هذا الأمر على أنه أكبر من تخلف أي جماعة عن البيعة حيث تحول إلى اتهام الخليفة بحماية قتلة عثمان بل وصل التطرف إلى درجة اتهام الخليفة بالمشاركة في قتل عثمان وأن أهل الشام استعدوا للحرب بقيادة معاوية فلابد أن يباغتهم وكان رأي ابنه الحسن رضي الله عنه مع آخرين أن يعاملوهم بالرفق واللين حتى يبدأوا هم بالقتال .

وهكذا لم تكن خيوط المؤامرة التي يدبرها خصوم الإسلام قد ظهرت أمام الفريقين .

المطالبة بدم عثمان ومعسكر البصرة :

لقد كانت المدينة المنورة وهي عاصمة الخلافة تحت سيطرة الثوار والذين تظاهروا بالطاعة والبيعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ولكنهم مازالوا على ولائهم السابق لزعمائهم ، وكانت هذه مشكلة لها ما بعدها ولكنها أرجئت .

ولقد تهيأ أمير المؤمنين لإخضاع معاوية ومن معه من أهل الشام لسلطته الشرعية ولكنه فوجئ بمشكلة أخرى شغلته عن مشكلة معاوية بن أبي سفيان .

إن الثورة التي كانت موجهة ضد عثمان قد تحولت فجأة للمطالبة بدم عثمان فأصبح أهل المدينة في غضب وغم بعد مقتل عثمان مما يسر انفعالهم واندفاعهم مع المطالبين بدم عثمان ولم يتنبهوا إلى أن وراء الفعل الأول وهو قتل عثمان فئة حاقدة وهي التي وراء رد الفعل الممثل بالمطالبة بدم عثمان ، والهدف هو استمرار الفتنة فلا يستقر للمسلمين قيادة ولا دولة مما ييسر هزيمة المسلمين في بلاد الفرس وبلاد الروم وعودة أكاسرة الفرس وقياصرة الروم إلى ملكهم .

لقد حمل طلحة والزبير هموم أهل المدينة ومطالبهم ولم يفطنا إلى أن وراء هذه المطالب فتنة أخرى فتوجها إلى بيت الخليفة علي بن أبي طالب في جمع من الصحابة وقالوا جميعا له إن بيعتنا لك كانت مشروطة بإقامة الحدود فيلزم القصاص ممن اشتركوا في دم عثمان رضي الله عنه .

فقال لهم أمير المؤمنين (إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما يشاءون ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ فقالوا لا[1] .

وطلب أمير المؤمنين أن يعود الأعراب إلى البادية التي جاءوا منها ولكن زعماء الفتنة رفضوا ذلك وحرضوهم على البقاء في المدينة .

لهذا قال لهم أمير المؤمنين (دونكم ثأركم فاقتلوه)[2] .

وهكذا رد الخليفة عليهم كيدهم وتركهم يأخذون الثأر من قتلة عثمان فأعلنوا عجزهم عن ذلك .

ومن جانب آخر فكر طلحة والزبير في الأمر بعد ما سمعوا هذا الجواب من أمير المؤمنين فظن طلحة أنه لو يلي أمر البصرة يستطيع تجنيد الجنود لمساعدة الخليفة في إخراج الثوار من المدينة والقبض على قتلة عثمان ، وظن الزبير أنه إذا تولى أمر الكوفة يستطيع ذلك ، لهذا صارح الخليفة بذلك فقال لهما :

مهلا علي حتى أنظر في هذا الأمر[3] وسكت عن هذه المسألة .

وبعد فترة استأذن طلحة والزبير أمير المؤمنين في الخروج إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما فذهبا إلى مكة وكان أهلها قد رفضوا استقبال خالد بن العاص بن المغيرة المخزومي المعين أميرا عليهم من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وظلت بدون أمير حتى اختار لها الخليفة ، أميرا آخر هو (قثم بن العباس) فقبلوه واستتب الأمر بها ، ولكن هجرة كل من اعتزل الفتنة إليها أصابت مكة بالكساد فوجد بعض الصحابة أن البصرة أحسن حالا للإقامة فيها فأقنعوا بعضهم بعضا بالرحيل إليها واقنعوا بعض أمهات المؤمنين بذلك كعائشة وحفصة رضي الله عنهما ، غير أن حفصة قد منعها

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص437 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص196 .
(3) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص228 .

من ذلك أخوها عبد الله بن عمر ، وهكذا تحرك المئات من أهل مكة والمدينة متجهين إلى البصرة وفيهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، وعندما اقتربوا من ماء الحوأب نبحتهم كلابهم فسألت أم المؤمنين عائشة فقيل إن هذا هو ماء الحوأب ، فتذكرت أن النبي ﷺ قد قال لنسائه (ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب)[1] ، فضربت بعيرها وأناخته وقالت ردوني إلى مكة فأنا والله صاحبة ماء الحوأب الذي أخبر عنه النبي ﷺ فأناخوا حولها البعير يوما وليلة وهي تصر على الرجوع وهم يرفضون حتى قال لها عبدالله بن الزبير ليس هذا بماء الحوأب ، ولم يزل يقنعها حتى توجهوا جميعا نحو البصرة وكانوا نحو ألف رجل ولحق بهم في الطريق عدد كبير حتى بلغوا ثلاثة آلاف رجل .

معركة الجمل :

علم عثمان بن حنيف والي البصرة بقدوم أم المؤمنين مع هذا الجمع الغفير فأوفد إليهم عمران بن الحصين وأبا الأسود الدؤلي ليعرفا سبب قدومهم فوصل الرجلان وأذنت لهما بسؤالها وأجابت أنها جاءت للسعي في المطالبة بدم عثمان لأنه قتل مظلوما في شهر حرام ، وبلد حرام فتركاها وتوجها إلى طلحة وسألاه ما أقدمك فقال الطلب بدم عثمان ثم توجها إلى الزبير بنفس السؤال ، فقال : الطلب بدم عثمان فعاد الرجلان إلى الوالي عثمان بن حنيف ، فطلب المشورة من عمران بن الحصين ، فقال له اعتزل الفتنة فإني قاعد ، قال الوالي بل أمنعهم من دخول البصرة حتى يأتي أمير المؤمنين أو يأمرني بشيء[2] .

وجمع الوالي الجنود ليمنعوا القادمين إلى البصرة فقال له هاشم بن عامر ، إن هذا الذي تفعله سيؤدي إلى شر أكثر مما تكره ، وهذا فتق لا يرتق ، وصداع لا يكبر ، فارفق بهم وسامحهم حتى يأتي أمر أمير المؤمنين .

ولكن الوالي رفض ذلك .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص210 .

(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص 212 .

وتقدمت أم المؤمنين عائشة هي ومن معها وقصدت سوق الإبل بالبصرة وأقامت حوله وانضم إليها من أهل البصرة آخرون فتوجه الوالي عثمان بن حنيف إلى هذا السوق وعسكر بجيشه في مقابلة جموعها وتراشق الجيشان بالحجارة ولم يحدث قتال بالسلاح ، فتقدم جاريه بن قدامة وقال يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح .

وتقدم شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير وقال أنت يا زبير حواري رسول الله ﷺ وأنت يا طلحة وقيت رسول الله ﷺ بيدك[1] وأرى أمكما يعني السيدة عائشة فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا لا فقال لهما ، فما أنا منكما في شيء .

هنا تحرك أصحاب عائشة وطالبوا بالكف عن القتال ولكن حكيم بن جبلة وهو من المشتركين في قتل عثمان كان قائد الخيل في جيش الوالي عثمان بن حنيف فحرك الجيش واقتحم على معسكر أم المؤمنين عائشة فرفعوا رماحهم دون قتال لكي يكف عنهم ويرجع ، ولكنه استمر في الهجوم والقتال وهكذا نشبت معركة بين الفريقين على فم السكة وأمرت عائشة من معها أن يتجهوا نحو مقبرة هناك لتوقف القتال وجاء الليل فحجز بين الفريقين حتى أصبح الصبح فباشر حكيم بن جبلة مرة أخرى القتال وأكثر فيهم القتل فأيقن العقلاء أن الغوغاء هم الذين يباشرون القتال وتوصلوا إلى اتفاق مع الوالي عثمان بن حنيف أن يبعث الطرفان رسولا إلى المدينة ليتقصى الحقائق عن قتلة عثمان وهل بايع طلحة والزبير مكرهين أم لا ، فإذا ثبت أنهما بايعا كرها أخلى الوالي البصرة لهما وإن كانا قد بايعا أمير المؤمنين عليا عن طواعية واختيار لزمتهما الطاعة ، ويخرجان من البصرة .

فذهب إلى المدينة كعب بن سور رسولا من الطرفين ، فلم يجد جوابا من أهلها ولكن أسامة بن زيد قال له إنهما بايعا مكرهين فرجع كعب إلى أهل البصرة بهذا الخبر فاختلفوا وتحول قوم من معسكر عثمان بن حنيف إلى معسكر أم المؤمنين عائشة ، وغضب أمير المؤمنين من تصرف عثمان بن حنيف ، وقال له إن طلحة

---

(1) أراد بعض المشركين ضرب النبي ﷺ في غزوة أحد بالسيف فأسرع طلحة بتلقي الضربة بيده حتى شلت يده وأصبحت من مناقبه رضي الله عنه .

والزبير لم يجبرا على البيعة ، ولكنهما خافا من الفرقة وهجم الغوغائيون على عثمان ابن حنيف فسجنوه ونتفوا لحيته وحاجبيه وأرسلوه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو بذي قار[1] .

موقف الخليفة من تجمهر البصرة :

بخروج الوالي عثمان بن حنيف أصبحت البصرة تحت سيطرة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة الذين أسندوا ولاية بيت المال إلى عبدالرحمن بن أبي بكر وقسموا هذا المال بين الناس واستقر لهم الأمر بالبصرة ولكن حكيم بن جبلة العبدي أحد زعماء الفتنة تحرك الحقد في نفسه وجمع ثلاثمائة من الجنود وتحرك بهم وقاتل أهل البصرة حتى قتل وقتل معه سبعون مما اشتركوا في قتل عثمان .

أما موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فهو قوله لمن معه (سأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف إن كفوا واقتصر على ما بلغني)[2] .

ولما بلغ أمير المؤمنين أن هؤلاء يقصدون البصرة حمد الله أن صرفهم عن الكوفة واستخلف أمير المؤمنين على المدينة تمام بن عباس وشرع في التوجه إلى العراق فعلم كبار الأنصار بذلك فدخل عليه عقبة بن عامر وهو من أهل بدر وقال له يا أمير المؤمنين إن الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والسعي بين قبره ومنبره أعظم مما ترجو من العراق ، ولكن الخليفة آثر أن يواجه هذه الفتنة بنفسه قبل أن تستفحل في مناطق أخرى .

وتحرك بجنوده حتى وصل إلى الربذة وتشاور مع أصحابه وانتهوا إلى المسير نحو البصرة ، وما أن صلوا صلاة الصبح في الطريق حتى أقبل الحسن بن علي رضي الله عنهما وعاتب أباه إذ لم يأخذ بنصحه ورأيه حيث قال له طلبت منك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها فلم تأخذ برأيي فقال والده لو خرجت

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص215 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص221 .

من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به .

قال الحسن طلبت ألا تبايع حتى يأتيك وفود العرب ويأتيك أهل كل مصر فلن يقطعوا أمرا دونك . قال والده يا بني إن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع أمر هذا الأمر ولقد بايع الناس أبا بكر فبايعته ثم بايع الناس عمر فبايعته وبعد مقتل عمر كنت سهما من ستة فبايع الناس عثمان فبايعته ولما قتل عثمان بايعني الناس طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين[1] .

قال الحسن رأيت أن تجلس في بيتك حين خرج طلحة والزبير وعائشة حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك قال : كيف لي بما قد لزمني أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها[2] .

ولقد دعى أمير المؤمنين ربه فقال (اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين) وخرج بجيشه نحو البصرة ، فقال له رفاعة بن رافع الأنصاري يا أمير المؤمنين إلى أين تذهب بنا وإلى أي شيء تريد ؟

قال علي : أما الذي نريد وننوي فالإصلاح .

قال رفاعة : فإن لم يجيبوا إليه ؟

قال علي : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر .

قال رفاعة : فإن لم يرضوا ؟

قال علي : ندعهم ما تركونا .

قال رفاعة : فإن لم يتركونا ؟

قال علي : امتنعنا منهم أي لا نقاتلهم .

(1, 2) الكامل لابن الأثير ج3 ص223 .

قال رفاعة : نعم إذا[1] أي إذا نخرج معك .

وتحرك أمير المؤمنين بجيشه حتى قدم عليه عامر بن مطر الشيباني فسأله عما وراءه وسأله عن أبي موسى الأشعري ، وقال عامر إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك .

قال أمير المؤمنين : والله ما أريد إلا الإصلاح حتى يرد علينا . وتحرك بجيشه حتى وصل إلى ذي قار فدخل عليه والي البصرة عثمان بن حنيف بعد أن نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه .

وأرسل أمير المؤمنين محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر برسالة إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة ، واستنهضا الناس للدخول في طاعة أمير المؤمنين ، فلم يجابا ، فأرسل رسولين آخرين هما عبدالله بن عباس والأشتر النخعي فعادا بغير جواب كمن قبلهما فأرسل ابنه الحسن ومعه عمار بن ياسر فدخلا مسجد الكوفة والتقيا بأبي موسى الأشعري ، فضم الحسن إليه فقال لأبي موسى لما تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح .

فقال أبو موسى صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن . سمعت رسول الله ﷺ يقول[2] إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب . قد جعلنا الله إخوانا وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا .

ويروي ابن جرير الطبري أن الأشتر طلب من أمير المؤمنين أن يذهب إليهما بالكوفة فإن أهلها أحسن له طاعة فوافق فدخل المسجد ودعا القبائل ثم اقتحم القصر فضرب من فيه وأخرجهم ونزل أبو موسى فصاح به الأشتر : اخرج من قصرنا إنك لمن المنافقين . ثم تكلم الأشتر في حق عثمان بسوء فقام إليه المقطع بن الهيثم وقال له اسكت قبحك الله إن هذا لا يرضي عليا رضي الله عنه[3] .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص 479-481 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص227 .
(3) تاريخ الطبري ج3 ص500 .

وكان أبو موسى يأمر الناس بالعزلة والابتعاد عن الفتنة ، فقام القعقاع بن عمرو وقال إن ما قاله الأمير أبو موسى فهو الحق لو أن إليه سبيلا ، إنه لابد للناس من إمارة تنظمهم وتعز المظلوم وتمنع الظالم وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولى بما ولى وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح فانفروا وكونوا لهذا الأمر بمرأى ومسمع[1] .

ووجد الحسن بن علي أن الناس قد استعدوا للخروج فخرج معهم إلى ذي قار حيث معسكر أمير المؤمنين فكان جنود البصرة نحو تسعة آلاف وخمسمائة رجل فدخلوا على أمير المؤمنين فقال لهم يا أهل الكوفة لقد دعوتكم لكي تشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذلك الذي نريد وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بظلمنا ، ولم ندع أمرا فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله[2] .

بشائر الصلح :

أرسل أمير المؤمنين القعقاع بن عمرو ليكون رسولا له إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، ليطلب منهم الألفة والجماعة فقدم البصرة فبدأ بأم المؤمنين وقال ما أقدمك هذه البلاد ؟

قالت : أي بني ، إصلاح بين الناس .

قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فلما حضرا قال لهما : ما تقولان أنتما فيما أجابت به أم المؤمنين ، أي من الإصلاح . أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا متابعان .

قال القعقاع : فما وجه هذا الإصلاح .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص379 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص237 .

قالا : قتلة عثمان فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن وإن عمل به كان إحياء للقرآن .

قال : قد قتلتما قتلته من أهل البصرة قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب ستة آلاف واعتزلوكم ، واجتمعوا على حربكم وخذلانكم .

فقالت أم المؤمنين عائشة فما تقول أنت ؟

قال : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك لثأر هذا الرجل .

قالوا : قد أصبت وأحسنت فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الأمر[1] .

المؤامرة واشتعال الحرب :

وما إن عاد القعقاع إلى معسكر أمير المؤمنين وأخبره بذلك حتى استبشروا جميعا ودخل القادمون من أهل البصرة على أمير المؤمنين وأكدوا أنهم لا يريدون القتال فاستبشر بذلك وانتقل بجيشه قريبا من البصرة حيث يعسكر طلحة والزبير ومن معهما وذلك ليسهل التفاهم والإصلاح وخطب أمير المؤمنين في الناس فذكرهم بنعمة الإسلام ونعمة الجماعة وأعلن أنه سيرحل غدا ولا يرحلن معه أحد أعان على عثمان بشيء من أمور الناس .

عندئذ تشاور الأشتر وعبدالله بن سبأ وخالد بن ملجم وآخرون فيما قرره أمير المؤمنين من الصلح والعودة إلى المدينة واقترح الأشتر أن يقتلوا أمير المؤمنين ليلحق بعثمان وقال عبد الله بن سبأ أنتم قلة والقوم يتربصون بكم ويشتاقون إلى قتالكم ، وقال علباء بن الهيثم نصرف اتباعنا عنهم أي عن معسكر الإمام علي فيصبحون بذلك قلة أمام عدوهم .

وأخيرا اختار لهم عبد الله بن سبأ الحل بأن يختلطوا بالناس في المعسكرين وأن

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص488 وابن الأثير ج3 ص232 وابن كثير ج7 ص238 .

ينشبوا القتال قبل أن يصطلحوا على شيء ، وارتحل أمير المؤمنين بجيشه إلى البصرة وتحرك طلحة والزبير ومن معهما واجتمعوا عند قصر عبيدالله بن زياد وذلك للقاء أمير المؤمنين والتصالح وأخذت الرسل تروح وتغدوا بين الفريقين وأشار بعضهم على طلحة والزبير بالانقضاض على قتلة عثمان ليتخلصوا منهم . فقالا إن أمير المؤمنين قد أشار بتسكين هذا الأمر وقد جئنا بالصلح على ذلك .

وخطب أمير المؤمنين في معسكره وأمرهم أن يمسكوا أيديهم وألسنتهم .

ولكن قتلة عثمان اتفقوا على إثارة الحرب في الظلام حتى لا يتم الصلح ، فتحركوا من المعسكرين وهجموا بالسيوف والناس نائمون فقاموا مذعورين وحملوا سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم وظن أهل البصرة أن معسكر أمير المؤمنين علي قد خدعهم بالصلح وظن أمير المؤمنين علي ومن معه أن أهل البصرة خدعوه ومع هذا طلب من الناس الكف عن الحرب حتى ينظر في الأمر ولكن قتلة عثمان لم يستجيبوا وقاتلوا أهل البصرة الذين بادلوهم أيضا بالقتال وأراد كعب بن سور قاضي البصرة أن يحقن دماء المسلمين فطلب من أم المؤمنين عائشة أن تخرج إلى ميدان المعركة لتهدأ الناس وكان هذا التصرف هو الوقود الذي أشعل الحرب فظن الناس أنها إنما جاءت للحرب وإلا لماذا دخلت المعركة فرأت أم المؤمنين اشتعال الحرب بين الفريقين فأعطت كعبا المصحف وقالت ادعهم إليه ولكن قتلة عثمان لا يهمهم المصحف واستمروا في الحرب وقد وزعوا أنفسهم بين الفريقين .

ونادى أمير المؤمنين في جيشه أن القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني علي الصدر والنحر ، وذكر الزبير بقول الرسول ﷺ (لتقاتلنه وأنت له ظالم)[1] فتذكر الزبير وانسحب من المعركة ولم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ورجع طلحة من هذه المعركة[2] .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص259 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص242 .

(2) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص373 .

وكان اتباع الأشتر وعبدالله بن سبأ في مقدمة جيش أمير المؤمنين فتقدموا نحو أم المؤمنين ورموا جملها وهودجها وهي تذكرهم بالله دون جدوى ، وأيقنت أن هؤلاء هم قتلة عثمان فصاحت بصوت مرتفع العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وتزاحم الناس حول الجمل يحمون أم المؤمنين من القتل حتى قتل أربعون رجلا ممن كانوا يأخذون بخطام الجمل ثم تقدم رجال من قريش لحمايتها فقتل منهم سبعون وكل واحد منهم كان يقتل وهو يأخذ بخطام الجمل وأخيرا أخذ الخطام عبدالله بن الزبير قالت من أنت قال ابن اختك فقاتله الأشتر وضربه على رأسه فاسقطه ابن الزبير على الأرض وأخذا يقتتلان على الأرض ونادى ابن الزبير اقتلوني ومالكا ولكن الناس لا يعرفون أن الأشتر اسمه مالك وجرح ابن الزبير سبعة وثلاثين جرحا .

ولم يستطع أمير المؤمنين أن يوقف المعركة فنظر فعلم أن بقاء الجمل في المعركة هو سبب تشبث الناس في القتال فنادى بأعلى صوت اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا فضربه ابن ولجه الضبي بالعرقوب فخر وسقط على الأرض فتفرق الناس وأمر أمير المؤمنين كلا من محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر أن يحملا الهودج وفيه أم المؤمنين عائشة ويخرجاها من وسط القتلى ، وأن يضربا عليها قبة لحمايتها وتقدم إليها أمير المؤمنين وسلم عليها وقال كيف يا أماه قالت : بخير فقال : يغفر الله لك ، قالت : ولك ، وقالت : وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وقال : أمير المؤمنين لابنه الحسن : ليت أباك مات منذ عشرين سنة[1] .

قال الحسن : يا أبت كنت أنهاك عن هذا . قال : علي يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا .

وجهز أمير المؤمنين السيدة عائشة بالزاد والمتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يصحبها وأن يحرسها كل من نجا من الجيش الذي قدم معها إلى البصرة .

وفي اليوم المحدد لرحيلها وقف أمير المؤمنين بالباب عند خروجها من الدار في

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص534 وطبقات ابن سعد ج3 ص32 وابن الأثير ج3 ص255 .

الهودج ليودعها ، فقالت له : (يا بني لا يعتب بعضنا على بعض والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه على معتبتي لمن الأخيار) .

قال أمير المؤمنين : صدقت والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك فإنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة[1] .

وسار أمير المؤمنين مع الهودج والركب مشيعا لها عدة أميال ثم أمر بنيه أن يظلوا معها بقية اليوم وهو السبت غرة رجب سنة ست وستين فاتجهت إلى مكة وظلت بها حتى أدت مناسك الحج ثم عادت إلى المدينة[2] .

أضواء على المعركة :

إن المتأمل لأحداث هذه المعارك يتأكد له أن جمهور المحاربين كانوا يعتقدون أنهم يدافعون عن الحق ولا يخافون في الله لومة لائم ، ولهذا لم يشنع بعضهم على بعض والقلة الحاقدة من اتباع الأشتر وابن سبأ هم الذين كانوا يسبون ويشعلون نار الفتنة والحروب .

ولئن كان القرآن والسنة قد تضمنا أحكام القتال مع غير المسلمين فلم يتضمنا أحكام القتال بين المسلمين لأن هذا القتال محرم عليهم ، وهنا يظهر فقه الإمام علي في وضع القواعد الشرعية فأمرهم إذا اقتتلوا ، ألا يقتلون مدبرا ولا يجهزون على جريح ولا يستحلون الغنائم أو الأموال ، وقبل هذا كله لا يبدءون القوم بالقتال رغم تجمهرهم بالسلاح .

كما كان من وصاياه من صفح عنا فهو منا وإن لم يستجيبوا تركناهم ما تركونا فإن لم يتركونا وحاربوا ندافع عن أنفسنا فقط .

عندما سأله أبو سلام الدالاني : هل لهم حجة فيما طلبوا من هذا الدم قال أمير المؤمنين : نعم ، قال له وهل لك حجة في تأخيرك ذلك قال نعم[3] .

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص378 .
(2) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص246 وابن الأثير ج3 ص256 .
(3) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص239, 240 .

وليس أدل على ما ذكرنا من أن هدف هؤلاء هو الحق ولكنهم أخطأوا الوسيلة من أن الزبير بن العوام عندما ذكره علي رضي الله عنه بما قاله النبي ﷺ للزبير (تقاتله وأنت له ظالم) تذكر ذلك وتذكر أن عمار بن ياسر يقاتل في صفوف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سمع النبي ﷺ يقول : (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)[1] .

لذلك رجع الزبير بن العوام وانسحب من المعركة .

وفي هذه المعركة أيقن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن الذين كانوا يقاتلونه هم الذين لم يبايعوه فأيقن أن تعجله في حسم الأمور قبل مبايعة الجميع له ليس من الصواب في شيء ، ولهذا لما فرغ من المعركة بادر بأخذ البيعة من الجميع حتى من الجرحى وكان نص البيعة (عليك عهد الله وميثاقه لتكونن لسلامنا سلما ولحربنا حربا ولتكفن عنا لسانك ويدك)[2] .

وأيضا من خلال المعركة أيقن أن المحرضين على الفتنة ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه هم الذين يشعلون نار هذه الحروب ، فلما أراد أن يقيم بالبصرة عدة أيام لتستقر فيها النفوس والأمور علم أن اتباع عبدالله بن سبأ قد تعجلوا بالخروج من البصرة ورحلوا دون علمه فأدرك أنهم سيحدثون إفسادا في الأرض في مكان آخر فأمر بسرعة السير في أثرهم ليحبط خطتهم كما علم أن الأشتر قد أهاج الناس[3] .

وهناك من يظن أن خروج أم المؤمنين إلى البصرة كان لشيء في نفسها من علي رضي الله عنه لموقفه منها في حديث الإفك حين رماها المنافقون بالفاحشة فاستشاره النبي ﷺ في فراقها . فقال له لم يضيق الله عليك والنساء كثير فطلقها وانكح غيرها ثم نزل القرآن الكريم فبرأها فكان في نفسها شيء من رأي علي[4] .

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص529 والكامل لابن الأثير ج3 ص218 والحديث رواه مسلم 186/8 .

(2) تاريخ الطبري ج4 ص543 .

(3) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص402 .

(4) امتاع الأسماع للمقريزي ج1 ص208 .

والمتأمل في هذه العبارات يجد أن جواب علي تعلق بطلاقها والزواج من غيرها ولم يتعلق بارتكابها الفاحشة وذلك لأنه شاهد الهم والغم الذي يعيش فيه النبي ﷺ بسبب هذه الإشاعة .

أما عن الاتهام فكان جوابه (سل الجارية تصدقك) والجارية هي بريدة التي اشترتها عائشة واعتقتها فهي لا تخون عائشة أبدا .

والحوار الذي دار بين أم المؤمنين وأمير المؤمنين علي يؤكد أن مسألة الخروج إلى البصرة هي اجتهاد للإصلاح وليست تصفية حسابات قديمة كما يحلوا لبعض من يعملون بتصوراتهم ويُنزلونها على جيل الصحابة رضي الله عنهم .

وأخيرا فإن الفجيعة في هذه المعركة أن قتل فيها عشرة آلاف من جيش البصرة وكانوا ثلاثين ألفا ، وقتل من جيش الكوفة خمسة آلاف وكانوا عشرين ألفا :

تحقيق المؤامرة في المعركة :

ينقل القاضي أبو بكر بن العربي عن الطبري وابن كثير ما يكشف أن حرب الجمل قد أشعلها المتمردون والمتآمرون على عثمان بن عفان فتؤكد الروايات أنه بعد الاتفاق على الصلح اجتمع المتآمرون سرا واتفقوا على اشعال الحرب بين الفريقين حتى يظن كل فريق أن صاحبه قد خانه وغدره[1] .

والقاضي أبو بكر الباقلاني يثبت أن الفريقين لم يعتزما الحرب ولكن قتلة عثمان لم يقبلوا الدخول في الصلح حتى لا ينكشفوا ويستدل الصحابة عليهم .

فاتفقوا أن ينقسموا إلى قسمين بعضهم في معسكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والآخرين في معسكر أهل البصرة مع أصحاب الجمل ويشعلوا الحرب في المعسكرين ثم يصيح فريق منهم في معسكر أمير المؤمنين أن طلحة والزبير قد غدرا كما يصيح من ذهب إلى معسكر الجمل أن عليا قد غدر أي بهذه الحرب[2] .

---

(1) العواصم من القواصم ص157 والطبري ج3 ص519 والطبقات لابن سعد ج8 ص55 .

(2) التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة ، أبو بكر الباقلاني ص233 .

كما يبرهن الباقلاني على ذلك أن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة لم يطعنوا في إمامة علي رضي الله عنه ولم يجرحوه ولم يبايعوا شخصا غيره ، وبالتالي لم يقصدوا الحرب .

كما أن أبا محمد علي بن حزم الأندلسي يثبت أنهم لم يذهبوا إلى البصرة لحرب أمير المؤمنين ولا نقضا لبيعته ولو أرادوا لأحدثوا بيعة غير بيعته ، بل إن الزبير قد رجع وترك الحرب واختلط الأمر على طلحة حتى أتاه سهم فقتله والسيدة عائشة صاحبها الندم لاشتراكها في الحرب وظلت تبكي حتى ابتل خمارها وطلبت أن تدفن في البقيع أي لا تدفن مع النبي ﷺ لأنها أحدثت ذلك من بعده[1] .

* * *

---

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ص108 ، وانظر الطبري ج3 ص519 ، وابن سعد ج8 ص55 ، وتاريخ اليعقوبي ج2 ص159 وابن الأثير ج10 ص242 .

تمرد معاوية بن أبي سفيان

بانتهاء الفتنة التي نتجت عن اجتهاد طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة بالتوجه إلى البصرة بعد المعركة التي سميت بمعركة الجمل دانت العراق بالولاء لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب و لم يكن أمامه من المشاكل الظاهرة سوى مشكلة معاوية بن أبي سفيان وولاء أهل الشام له وامتناعهم عن بيعة أمير المؤمنين .

وقد كانت الشام من قبل تحت ولاية يزيد بن أبي سفيان ، وبعد موته كان أخوه معاوية أجدر بهذه الولاية في نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فولاه عليها واستمر خلال خلافة عثمان رضي الله عنه .

وهكذا ظل واليا عليها نحو عشرين عاما فالتصق بالناس وتعرف عليهم وصاهر شيوخ القبائل الموجودة في بلاد الشام .

ولما علم معاوية بأوامر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعزله مع آخرين ممن ولاهم عثمان تخلف عن بيعة علي رضي الله عنه وتخلف معه أهل الشام على النحو الذي ذكر من قبل .

ولقد كان أمير المؤمنين يسعى لحل هذه المشكلة بدون قتال وعرض ذلك على أصحابه واختار منهم جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولا إلى معاوية لما عرف من المودة بينهما ، فاعترض الأشتر النخعي وقال : إن هواه مع معاوية . فقال علي : لقد اخترته لقول الرسول ﷺ فيه : [إنه من خير ذي يمن] ، فهو من أهل اليمن وسلمه رسالة إلى معاوية يطلب منه أن يدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون ويعلنه بأنه لا يرضى بإمارته على الشام . ولقد فوجئ جرير بأن معاوية جمع أهل الشام

ووقف فيهم خطيبا ليؤكد لهم أنه ولي دم عثمان بن عفان الذي قتل مظلوما والله تعالى يقول : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا** ﴾ (الإسراء/ 33) .

ثم قال إنه خليفة عمر وعثمان من بعده على هذه البلاد ثم توجه بالسؤال إلى الناس لبيان رأيهم في قتل عثمان فتحمسوا جميعا للمطالبة بدم عثمان ، وبايعوا معاوية للمطالبة بدم عثمان .

ولقد حاول جرير إقناع معاوية للدخول في البيعة ، فقال له إنه أمر له ما بعده فأنظرني حتى أبلع ريقي ، فعاد جرير إلى أمير المؤمنين وأخبره بما رأى وعلم وسمع ، فصدقه الخليفة ولكن قد اتهمه الأشتر بموالاة معاوية وتحمس الأشتر للقتال ، وأيقن الخليفة أن معاوية وأهل الشام قد ركبوا رءوسهم ، فخرج بجيشه وعسكر بالنخيلة وعلم معاوية بذلك فتحرك بجنوده متأنيا في سيره وتحركت جيوش أمير المؤمنين حتى وصلت الرقة ثم عبرت النهر إلى الشام بعد أن أقام أهلها جسرا لذلك بتهديد ووعيد من الأشتر . وتقدمت طلائع هذا الجيش نحو جيش معاوية عند سور الروم فعزز أمير المؤمنين جيشه بجنود بقيادة الأشتر النخعي ليكون أميرا على الجيش وأمره ألا يبدأ القوم بقتال وحذره من ذلك وأمره أن يدعوهم مرة بعد مرة وأن يكون زياد على ميمنته وشريح على ميسرته وكتب إليهما الخليفة بذلك وأمرهما بطاعة الأشتر[1] .

وكان جيش معاوية بقيادة أبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي فلما جاء الليل تحرش أبو الأعور بالأشتر وجيشه فتقاتلوا نحو ساعة كما تقاتلوا في اليوم التالي حتى أقبل أمير المؤمنين علي بباقي جيشه وتولى مكان الأشتر وبحث عن مكان قريب من نهر الفرات ليشرب منه الجيش فعلم أن جيش معاوية قد سبقه إلى ذلك ووصل جيش أمير المؤمنين إلى صفين وهي قرية من نهر الفرات وكان الجيش قد ألم به العطش

---

(1) تاريخ الطبري ج4 ص567 والكامل لابن الأثير ج3 ص282 .

وهم نحو ثمانين ألفا وأرسل الخليفة صعصعة بن صوحان إلى معاوية ليخبره أنهم لا يقبلون قتالهم ولكن خيله ورجاله قاتلوا جيش الخليفة قبل أن يقاتلهم وأنه رأى أن يكف عن ذلك ويدعوه إلى الصلح والطاعة ويحتج عليه بذلك كما يطلب منه ألا يمنعوا جيشه من الماء وكان جيش معاوية قد وقف على الماء وأبلغ صعصعة الرسالة فجمع معاوية أصحابه واستشارهم فرأى بعضهم أن يمنعوه من الماء كما فعلوا بعثمان ابن عفان ذلك لأن الأشتر وجماعة آخرين في جيش أمير المؤمنين كانوا ضمن رواد الفتنة ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ولكن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يخلي بين جيش أمير المؤمنين وبين الماء ليشربوا مثلهم ، ولكن معاوية لم يأخذ بنصيحة عمرو وقال لصعصعة اذهب وسيأتيكم الرأي و لم يرد على أمير المؤمنين بشيء . وفي الوقت نفسه أمر أبا الأعور قائد جيوشه أن يمنعهم من الماء .

وعلم جيش أمير المؤمنين بذلك فقال الأشعث بن قيس لعلي أيمنعنا القوم الماء وأنت، فينا ومعنا سيوفنا ورأى أن يقاتل على الماء وانضم إليه الأشتر بخيله فقال أمير المؤمنين افعل ما رأيت .

وتحرك جيش الأشعث واشتبك مع جيش معاوية واقتتلوا بالسيوف حتى أجلاهم عن الماء وأصبح في أيدي الجيش الشرعي ، وهنا قال عمرو لمعاوية ما ظنك بهم اليوم إن منعوك الماء كما فعلت بالأمس ؟ قال معاوية : دع ما مضى وما ظنك بعلي ؟ قال عمرو : إنه لا يستحل منك ما استحللت منه لأنه أتاك في غير الماء .

وكان أصحاب أمير المؤمنين قد أصروا ألا يسقوا أهل الشام فرفض ذلك أمير المؤمنين وأمرهم أن يأخذوا حاجتهم من الماء ثم يخلوا المكان لجنود معاوية وقال لهم إن الله نصركم ببغيهم وظلمهم[1] .

لهذا اختلط الجنود من الطرفين وأصبحت هناك هدنة طبيعية خلال ربيع الآخر

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص285 .

جمادى الأولى من عام 37 هجرية ، فلما دخل شهر رجب توجه أبو الدرداء وأبو أمامة إلى معاوية وسألاه : علام تقاتل عليا وهو أحق بهذا الأمر منك ؟

قال : أقاتله على دم عثمان .

قالا له : أهو قد قتله ؟

قال معاوية : لا ، ولكن آوى قتلته ، أي حماهم في جيشه ، فليسلم إلينا هؤلاء القتلة ، وأنا أول من يبايعه من أهل الشام .

فلما عادا وأخبرا الخليفة بذلك صاح جمع غفير من جنوده يقدر بعشرين ألف رجل وقالوا : نحن جميعا قتلنا عثمان . فاعتزل أبو الدرداء وأبو أمامة الحرب ولحقا ببعض السواحل[1] .

ويرجح الدكتور الوكيل أن أبا هريرة وأبا أمامة هما اللذان ذهبا إلى معاوية لأن أبا الدرداء قد مات في خلافة عثمان .

وقد أشار بعض ذوي الرأي في جيش أمير المؤمنين أن يجعل لمعاوية منزلة أو سلطانا يوليه إياه عند بيعته فقال علي اذهبوا إليه واحتجوا عليه وانظروا ماذا يقول .

وهكذا كان يعتقد أمير المؤمنين أن هذا الأسلوب فيه مخادعة ونفاق .

وطالت المفاوضات بين الفريقين وكثرت الرسل بينهما وأمير المؤمنين لا يقبل أن يقترن الحوار بأي وعد لمعاوية بأمر من أمور الدنيا بينما يصر معاوية على المطالبة بتسليم قتلة عثمان أو يتخلى علي بن أبي طالب عن الخلافة ويصبح الأمر شورى بين المسلمين يختارون الخليفة من جديد[2] .

(2 ، 1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء د . محمد السيد الوكيل ص554 و ص 555 وتاريخ الطبري ج4 ص573 .

ولقد حاول قراء القرآن من الطرفين الإصلاح ولكن دون جدوى لأن معاوية كان قد كتب كلمة باسم مجهول ووزعها بين الجنود ونصها « من عبد الله الناصح : يا معشر أهل العراق إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليفرقكم فخذوا حذركم » .

ووصل السهم بهذه العبارة إلى معسكر أمير المؤمنين فأصابهم الفزع لأنهم رأوا عمالا يحفرون في جنب الفرات فصدقوا ذلك وحاول أمير المؤمنين أن يقنعهم أن هذه خديعة حتى يتركوا موقعهم والماء تحت أيديهم ويتحولوا إلى مكان لا ماء فيه ولم يقتنع القوم بذلك وتحولوا عن مكانهم فاحتله جيش معاوية[1] .

وبعد انتهاء شهر ذي الحجة بدأت المناوشات والقتال بين الفريقين وكانت الفرق تتقاتل فيما بينها وكان أكثر هذه الفرق قتالا هي فرقة الأشتر النخعي ولكن لم تحدث حرب شاملة .

بداية معركة صفين :

في شهر المحرم من سنة سبع وثلاثين هجرية أرسل أمير المؤمنين مناديا لأهل الشام عند غروب الشمس وهم آمنون فنادى فيهم ... إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد استأنيتكم لتراجعوا الحق وأقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين[2] .

وأيقن أهل الشام أن هذا نذير للحرب فأخذ معاوية وعمرو بن العاص ينظمون صفوف الجنود وأوصى أمير المؤمنين جنوده ألا يبدءوا القتال لأنكم على حجة فإن تركتموهم حتى يبدءوكم فهي حجة أخرى فإذا قاتلتموهم فهزموا فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا إلا بإذن ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في المعسكر ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والنفس[3] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص260 .
(2) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص260 وتاريخ الطبري ج5 ص11 .
(3) المرجع السابق .

وبدأت المعركة يوم الأربعاء حيث كان قائد أهل الكوفة الأشتر النخعي وقائد أهل الشام حبيب بن مسلمة وكان ذلك في أول شهر صفر سنة سبع وثلاثين هجرية .

وظل القتال حتى اليوم السادس دون أن تحسم المعركة أو تحقن الدماء وخطب الخليفة في الناس يوم الثلاثاء بعد العصر وطلب منهم أن يطيلوا صلاة القيام ويكثروا من تلاوة القرآن وأن يسألوا الله النصر والعزيمة والصبر .

ولما كان يوم الخميس بعد صلاة الصبح خرج أمير المؤمنين إلى أهل الشام بجيش كبير .

ولقد زحف الأشتر نحو الميمنة وزادت حميته وظل يقاتل حتى كشف أهل الشام ولم يبق حول معاوية غير صف واحد وتقدم عبدالله بن بديل بصفوف أهل الشام وشق جموعهم ووصل إلى الرابية التي عليها معاوية فهب أصحابه يدفعونه بالحديد فصاح فيهم معاوية أن الحديد لم يأذن له في هذا فأخذوا يرمونه بالحجارة حتى مات .

ورأى أمير المؤمنين كثرة القتلى فاقترح على معاوية أن يخرج إليه ليبارزه حتى لا يقتتل الناس بينهما وقال له ابرز إليَّ فأينا قتل صاحبه تولى الأمر ، فخاف معاوية على نفسه واستشار عمرو بن العاص فقال له لقد انصفك الرجل فقال معاوية اتخدعني عن نفسي ، وغضب من عمرو لأنه يعلم ضعف معاوية وأنه سيقتل .

وزحف أمير المؤمنين إلى أهل الشام بعد صلاة الفجر وتقدم الأشتر فشق صفوفهم ، ودب الضعف والوهن فيهم وبدت بوادر النصر لأمير المؤمنين ، فأشار عمرو بن العاص على معاوية بالتحكيم وطلب رفع المصاحف ودعوة الناس إلى التحكيم وتسبب هذا في حدوث خلاف في صفوف أمير المؤمنين فبعضهم وافق على التحكيم وبعضهم رفض ذلك ، وكان عمار بن ياسر من الرافضين ووافقه أمير المؤمنين على ذلك ، فقاد عمار خمسمائة رجل وطلب الماء فأتاه غلام بلبن فكبر وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « آخر زادك من الدنيا لبن » وحارب هو وهاشم ابن عقبة حتى قتلا[1] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص267 والإمامة والسياسة لعبد الله بن قتيبة ج1 ص126 .

وكان لقتل عمار أثر كبير في نفوس جيش أمير المؤمنين لأن النبي ﷺ قال : (تقتلك الفئة الباغية) وكان أثر هذا سيئا لدى أصحاب معاوية لأن عمرو بن العاص قال لهم هذا الحديث وأمسك فريق من معسكر معاوية عن القتال فقال لهم معاوية إنما قتل عمار من جاء به وفسر قتل عمار علي هذا النحو الخاطئ .

التحكيم ومشاكله :

وأقبل الأشتر النخعي وهو جريح وطلب من أمير المؤمنين ألا يقبل التحكيم فاستجاب وتعصب بعمامة رسول الله السوداء وركب بغلة النبي ﷺ الشهباء وتحرك باثني عشر ألفا في صفوف أهل الشام فقتل منهم خلق كثير وتقاتل الناس بجميع الأسلحة حتى قاتلوا بالأيدي والحجارة وما إن أصبح النهار حتى تأكد النصر لأمير المؤمنين فأشار عمرو مرة أخرى على معاوية برفع المصاحف وطلب التحكيم وما إن فعلوا ذلك حتى قبل الطرفان التحكيم خلوصا من الحرب وحاول أمير المؤمنين أن يوضح لأصحابه أن هذه حيلة فقط ولكنهم ظنوا أن النجاة في التحكيم ، فقال أمير المؤمنين للقراء الذين أصروا على قبول التحكيم (احفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم في ، فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم)[1] .

ولكن جماعة القراء أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم ، فنزل على رغبتهم وأمر الأشتر بوقف القتال وأرسل إليه يزيد بن هانئ بذلك ، فعاد وأخبر أمير المؤمنين أنه يصمم على القتال ، وانتهز الأشتر الفرصة لكسب المعركة فصاح القراء متهمين أمير المؤمنين أنه هو الذي أمر الأشتر بالاستمرار في القتال وقال لهم ألم أرسل إليه جهرة وأنتم تسمعون قالوا فابعث إليه وليحضر إليك وإلا اعتزلناك ، فقبل أمير المؤمنين أن يحضر الأشتر ليمنع الفتنة وأرسل يزيد بن هانئ لإحضار الأشتر فأحضره مكرها وقال القراء قد قبلنا أن يكون القرآن بيننا وبينهم حكما ، وهؤلاء هم الذين رفضوا التحكيم وزعموا أنه كفر بالله .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص275 .

اختيار الحكمين :

اجتمع القراء من أهل العراق وأهل الشام وهم حفظة القرآن الكريم وقعدوا بين الصفين ومعهم المصحف واتفقوا أن يحكموا حكمين فاختار معاوية حكما عن أهل الشام هو عمرو بن العاص ، واختلف أهل العراق وهم جماعة أمير المؤمنين الذي رشح عبد الله بن عباس لأنه قرشي مثل عمرو فرفضوا وقالوا رضينا بأبي موسى الأشعري . فقال أمير المؤمنين فإني أجعل ذلك إلى الأشتر ، فقال الأشعث بن قيس وهل سعر هذه الحرب إلا الأشتر وهل نحن إلا في حكم الأشتر[1] ؟

قال علي : وما حكمه ؟

قال الأشعث يضرب بعضنا وجوه بعض .

قال علي : هل أبيتم إلا أن تحكموا أبا موسى ؟

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أحببتم . فأحضروه ودخل على أمير المؤمنين فقبله .

وثيقة التحكيم :

كتب أبو موسى الأشعري (عبدالله بن قيس) عن أهل العراق وثيقة التحكيم مع أهل الشام تضمنت الرضا بتحكيم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأن ينزل الجميع إلى حكم القرآن الكريم ، وتضمنت أن عليا ومن معه رضوا أن يكون عبدالله ابن قيس (أبو موسى) ناظرا ومحاكما عنهم ورضي معاوية وأهل الشام أن يكون عمرو ابن العاص ناظرا ومحاكما عنهم ، وأن على الحكمين عهد الله ليتخذان القرآن إماما وما لم يجداه في الكتاب يرداه إلى سنة رسول الله ﷺ الجامعة ولا يتعمدان لهما خلافا ، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ولا يدخلان في شبهة .

وتضمنت الوثيقة تأمين الحكمين على أهلهما ودمائهما وأموالهما وأن يلقي

---

(1) الكامل لابن الأثير ج3 ص318 .

الفريقان السلاح إلى انتهاء التحكيم بانقضاء شهر رمضان ، وحددت الوثيقة مكان الاجتماع وهو دومة الجندل . وقد شهد كل فريق على وثيقة الآخر لكن رفض الأشتر أن يوقع عليها .

وكتبت الوثيقة في السابع عشر من شهر صفر سنة سبع وثلاثين[1] .

اجتماع الحكمين :

توجه الحكمان إلى دومة الجندل وبعث أمير المؤمنين مع أبي موسى أربعة آلاف رجل بقيادة شريحة بن هانئ وجعل ابن عباس إماما لهم في الصلاة ، كما أرسل معاوية مع عمرو بن العاص أربعة آلاف رجل من أهل الشام بقيادة الأعور السلمي وعاد علي وجنده إلى الكوفة ورجع معاوية وجنوده حتى دخلوا دمشق .

وفي الوقت الذي كان يتشاور فيه معاوية مع عمرو بن العاص وآخرين في شأن الأسرى من العراقيين بعد أن قال نفر بقتلهم ، حضر الأسرى الشاميون حيث أطلق سراحهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2] .

* * *

(1) تاريخ الطبري ج5 ص55 والبداية والنهاية لابن كثير ج7 ص275 .
(2) تاريخ الطبري ج5 ص65 .

التناقض في التحكيم وأثره

يذكر المسعودي عن أبي مخنف لوط بن يحيى وغيره أن جملة من قتل من أهل الشام والعراق بصفين سبعون ألفا ، فقتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، ووقع التحكيم في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين هجرية ، فالتقى أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص وقال عمرو لأبي موسى تكلم وقل خيرا ، فقال أبو موسى بل تكلم أنت يا عمرو .

فقال عمرو ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك ولك حقوق كلها واجبة بسنك وصحبتك رسول الله ﷺ ، وأنت ضيف ، فحمد أبو موسى الله وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال يا عمرو هلم إلى عمل يجمع الله به الألفة ويصلح ذات البين .

فقال عمرو إن للكلام أولا وآخرا فاجعل ما كان بيننا من كلام في كتاب يصير إليه أمرنا فقال له أبو موسى اكتب فأحضر عمرو غلاما له ليكتب وأحضر صحيفة وقال له بحضرة الجماعة اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئا يأمرك به أحدنا حتى تستأذن الآخر فيه فإذا أمرك فاكتب وإذا نهاك فانتهي حتى يجتمع رأينا .

وذكر أنه مما كتب في هذه الصحيفة أن عثمان قتل مظلوما وأقر أبو موسى ذلك وقال عمرو هل تعلم لعثمان ولي أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أليس لمعاوية أن يطلب قاتله ؟ قال أبو موسى : بلى . قال عمرو للكاتب : اكتب هذا وأمره أبو موسى بهذا . قال عمرو فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان .

قال أبو موسى هذا أمر قد حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لغيره فهلم إلى أمر

يصلح الله به أمر الأمة . قال عمرو وما هو ؟ قال أبو موسى قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبدا ، فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبدالله بن عمر قال المسعودي وكان عبدالله بن عمر متزوجا من ابنة أبي موسى . قال عمرو أيقبل ذلك عبدالله بن عمر ، قال أبو موسى إذا حمله الناس على ذلك فعل . فعمد عمرو إلى تصديق كل ما قاله أبو موسى ، وقال له هل لك في سعد بن أبي وقاص قال له أبو موسى لا ، فعدد له عمرو جماعة من الصحابة وأبو موسى يأبى إلا ابن عمر . فأخذ عمرو الصحيفة وطواها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعا وقال عمرو لأبي موسى إذا رأيت الصلاح والخير للمسلمين فقم واخطب الناس واخلع صاحبينا معا وتكلم باسم الرجل الذي تستخلفه . قال أبو موسى بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك قال عمرو ما أحب أن أتقدمك وما قولي وقولك للناس إلا قول واحد فقم راشدا .

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد ﷺ وقال : قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحكمنا من الأمن والصلاح وحقن الدماء أن خلعنا عليا ومعاوية وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه وخلع عمامته[1] واستخلفنا رجلا قد صحب الرسول ﷺ بنفسه وصحب أبوه النبي ﷺ وهو عبدالله بن عمر ، وأطراه ورغب الناس فيه .

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال يا أيها الناس إن أبا موسى قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر وهو أعلم به ، ألا وإني قد خلعت عليا معه وأثبت معاوية علي وعليكم ثم قال إن أبا موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قتل مظلوما شهيدا وأن لوليه سلطانا أن يطالب بدمه حيث كان وقد صحب معاوية رسول الله ﷺ بنفسه وصحب أبوه النبي ﷺ ومدح معاوية وقال هو

---

(1) أبو مخنف صاحب هذه الرواية هو لوط بن يحيى قد جرحه أبو حاتم وقال ابن معين إنه ليس بثقة أما الذهبي فقال إنه إخباري تالف (ميزان الاعتدال ج3 ص420) .

الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان ، فقال أبو موسى كذب عمرو لم نستخلف معاوية ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا فقال عمرو بل كذب عبد الله ابن قيس (أبو موسى الأشعري) قد خلع عليا ولم يخلع معاوية .

قال المسعودي رحمه الله وحدث في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلا يصلح له ، فقدم عمرو أبا موسى وقال أبو موسى قد خلعت عليا ومعاوية وتنحى وقام عمرو مكانه وقال إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية . فقال أبو موسى لاوفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فقال له عمرو بل إياك يلعن الله كذبت وغدرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ثم ركز أبا موسى أي ركله برجله فألقاه على الأرض فلما رأى ذلك شريح بن هانئ منع عمرا بالصوت وانخذل أبو موسى وتحول فاستوى على راحلته ولحق بمكة ، ولم يعد إلى الكوفة[1] .

ثم يذكر المسعودي رواية أخرى تضمنت أنه قد انصرف أبو موسى كما انصرف عمرو بن العاص إلى منزله ولم يأت إلى معاوية فأرسل إليه معاوية يدعوه فقال إنما كنت أجيئك إذا كانت لي إليك حاجة ، فأعمل معاوية الحيلة وأمر بطعام كثير ثم دعا خاصته ومواليه وأهله وأمرهم أن ينتظروا حتى يشبع موالي عمرو بن العاص وأهله فإذا أكلوا وخرجوا أغلقوا البيت وحذرهم أن يدخل أحد منهم ، ودعا معاوية مواليه وأهله على الطعام ولما أكل أصحاب عمرو وخرجوا بقي أصحاب معاوية فقام حارس وأغلق الباب فقال له عمرو بن العاص فعلتها يا معاوية فقال أي والله بيني وبينك أمران البيعة لي أو أقتلك ، قال معاوية فالوفاء إذا بطعمة مصر أي ولاية مصر ، قال معاوية هي لك ماعشت واستوثق كل منهم من صاحبه وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام وقال لهم : قد رأيت أن أبايع معاوية فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهل الشام وانصرف معاوية إلى منزله خليفة للمسلمين[2] .

هذه الروايات أكثرها غير صحيح ، كما سترى فالتحكيم موضوعه قتلة عثمان وليس الخلافة .

(2, 1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص407 إلى ص 414 .

التحكيم الحائر بين أهله

على الرغم من تدوين وثيقة للتحكيم تضمنت تفويض الحكمين في الفصل في النزاع نهائيا ، إلا أن نتيجة هذا التحكيم ما زالت غامضة والأخبار فيها متضاربة ومتناقضة وظن البعض أن هذا يرجع إلى عدم كتابة وثيقة ، وهذا غير صحيح ، وظن آخرون أن السبب يرجع إلى عدم وجود قوة تحمي التحكيم[1] ، وهذا أيضا غير صحيح ؛ فقد رحل إلى مقر التحكيم ثمانية آلاف جندي حسب ما هو ثابت في المصادر التاريخية المشار إليها من قبل .

والقدر المتيقن في نتيجة التحكيم هو ما رواه الدارقطني من أنه قد تضمن أن يترك الأمر للأمة لتختار خليفة من جديد ليتولى باسمها حسم هذه الأمور . .

ولكن لماذا لم يعمل الإمام علي أو معاوية على إذاعة هذه النتيجة ونشرها ؟

الثابت أن معاوية ليس له مصلحة في إذاعة هذه النتيجة ، أما أمير المؤمنين علي فقد صرفه عن التحكيم ونتيجته فتنة أكبر من ذلك هي فتنة الخوارج وهم من اتباع أمير المؤمنين وهم الذين أكرهوه على التحكيم ، ثم بعد ذلك خرجوا عليه وكانوا من شيعته ولحقوا بالمدائن وتجمعوا في نحو أربعة آلاف مقاتل وقتلوا والي المدائن عبدالله ابن حباب حيث ذبحوه ذبحا وبقروا بطن امرأته وهي حامل وبايعوا عبدالله بن وهب الراسبي وبعثوا إلى أمير المؤمنين أن يتوب من التحكيم الذي قبله وشهد عليه وأن

---

(1) د . إبراهيم شعوط ، أباطيل يجب أن تمحى ص110 .

يقر على نفسه بالكفر بسبب قبول التحكيم وإلا اعتزلوه واختاروا لأنفسهم إماما[1] .

فهذه الفتنة هي السبب الرئيسي في انشغال معسكر أمير المؤمنين علي ، لأن هؤلاء أكثر ضررا على الأمة من موضوع التحكيم .

* * *

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص415 .

التحكيم وتحقيق المصادر التاريخية

إن المستقرئ لبعض الروايات التاريخية يجد العجب العُجاب في حق صحابة رسول الله ﷺ الذين قال الله فيهم : ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ ؛ فبعض الروايات تقدمهم في صورة المنافقين المخادعين مما يكذب هذا الوصف الوارد عنهم في القرآن الكريم ، مثلا نجد في كتب التاريخ عن التحكيم بين الإمام علي ، ومعاوية ، أنهما اتفقا على التحكيم بينهما ، فكان أبو موسى الأشعري عن الإمام علي وكان عمرو ابن العاص عن معاوية ، وتضمنت هذه الكتب أن الحكمين المذكورين اتفقا على أن يخلعا كلا من علي ومعاوية ليختار المسلمون خليفة غيرهما ، ولكن عمرا استغل سذاجة أبي موسى ، فاتفق معه أن يعلن كل منهما للمسلمين خلع موكله كما يخلع سيفه من عنقه ، وخاتمه من أصبعه ، ثم طلب عمرو من أبي موسى أن يتقدم هو أولا ، لإعلان خلع موكله أي الإمام علي ، وما إن فعل ذلك أبو موسى ، حتى قام عمرو وأعلن أنه يثبت معاوية في الحكم كما يثبت سيفه في عنقه وخاتمه في أصبعه[1] .

لقد سعى ابن العربي في كتابه (العواصم) إلى اعتماد منهج نقدي صارم في دراسة هذه الفترات الخطيرة في التاريخ الإسلامي .

يقول : « تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله . وإذا لحظتموه بعين المروءة ـــ دون الديانة ـــ رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين ، وفي الأقل جهل متين والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص70 و 71 .

ابن خياط والدارقطني : « أنه لما خرج الطائفة العراقية مائة ألف ، والشامية في سبعين أو تسعين ألفا نزلوا على الفرات بصفين ، اقتتلوا في أول يوم ، وهو الثلاثاء على الماء ، فغلب أهل العراق عليه . ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين ، ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ، ورفعت المصاحف من أهل الشام ودعوا إلى الصلح ، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق ، فكان من جهة علي أبو موسى ، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص . وكان أبو موسى رجلا تقيا ثقفا فقيها عالما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ ، وقدمه عمرو وأثنى عليه بالفهم . ولكن زعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعا في القول وأن ابن العاص كان ذا دهاء وأرب ، حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدا لما أرادت من الفساد .

وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندل ، وتفاوضا ، اتفقا على أن يخلعا الرجلين . فقال عمرو لأبي موسى : اسبق القول ، فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت عليا عن الأمر ، وينظر المسلمون لأنفسهم ، كما خلعت سيفي هذا من عنقي — أو من عاتقي — وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض . وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال : إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده . فأنكر أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا . وتفرق الجميع على ذلك الاختلاف » .

ويرد ابن العربي[1] : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط . وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك ، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع . وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر ، في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه ، عزل عمرو معاوية . ذكر الدارقطني بسنده إلى حصين بن المنذر : لما عزل عمرو معاوية جاء

---

(1) العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي ص 172 .

ـــ أي حصين بن المنذر ـــ فضرب فسطاطه قريبا في فسطاط معاوية فبلغ نبأه معاوية فأرسل إليه فقال : إنه بلغني عن هذا (أي عن عمرو) كذا وكذا فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه ؟ فأتيته فقلت : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا . ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال : إن لم يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما . قال : فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه . فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه . فأرسل إلي أبي الأعور الذكواني فبعثه في خيله فخرج يركض فرسه ويقول : أين عدو الله ؟ أين هذا الفاسق ؟

« وقال أبو يوسف الفلوسي راوي هذا الخبر عن الأسود بن شيبان عن عبدالله ابن مضارب عن حصين أظنه قال : (إنما يريد حوباء نفسه) فخرج عمرو إلى فرس تحت فسطاط ، فجال في ظهره عريانا ، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول : إن الضجور قد تحتلب العلبة ، يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة . فقال معاوية : أجل وتربذ الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناءه »[1] .

فلو أن عمرا أعلن في التحكيم أنه ولى معاوية الخلافة لما استطاع أن ينزع الخلافة ويقلدها معاوية الذي لم يبايعه أحد . ولأن الصحابة لن يقبلوا بهذه الخديعة .

ولو حدث هذا جدلا ، يكون عمرو بن العاص ، قد خدع أبا موسى وطعنه من الخلف ، على مشهد ومسمع من ثمانية آلاف رجل كانوا معهم ولا يمكن أن يسكتوا .

ولكن الذي حدث ـــ بالفعل ـــ أن عمرا لم يعلن شيئا من ذلك . كما أن معاوية لم يدع أنه أصبح ـــ بعد التحكيم ـــ أميرا للمؤمنين و لم يقل أحد بذلك ، و لم يصبح معاوية خليفة للمسلمين ، إلا بعد أن بايعه الحسن بن علي في عام الجماعة ، بعد موت علي رضي الله عنه .

---

(1) ابن العربي : العواصم من القواصم . هامش ص 176, 199 .

ولقد روى المسعودي[1] أن الحكمين كتبا وثيقة ، اتفقا فيها على خلع علي ومعاوية ، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى : يختار أعيان الصحابة من يرونه أهلا لهذا الأمر .

كما روى الدارقطني ذلك .

ونحن نجد أن رواية الطبري ، التي يذكر فيها أن أبا موسى خلع صاحبه ، وأن عمرا أثبت صاحبه ، يظهر فيها الوضع والتلفيق ، للأمور الآتية :

أولا : إن الطبري اعتمد على أن الحكمين لم يكتبا وثيقة ، وأنهما اكتفيا بالخطابة أمام الجماهير .

والثابت عكس ذلك وهو أنه قد كتبت وثيقة .

ولقد أثبت الطبري هذا في رواية أخرى وذكر تاريخ كتابتها[2] .

والثابت أنهما أخذا وثيقة تفويض من الجانبين بالكتابة ، لا بمجرد التفويض الشفوي . ونص هذه الوثيقة في كتاب البداية والنهاية ، وفي مروج الذهب وأن قراءتها على الناس هو الذي أدى إلى ظهور الخوارج باعتراضهم على الوثيقة[3] .

ثانيا : إذا كان عمرو بن العاص ثبت صاحبه ، ففي أي شيء ثبته ؟ فإن كان ثبته في إدارة البلاد التي تحت يده ، فإن هذا الأمر ماض على معاوية وعلي معا . فكل منهما باق في الحكم على ما تحت يده ، وإن كان المراد أنه ثبته في إمارة المؤمنين فإن معاوية لم يكن مبايعا بالخلافة ولا مدعيا لها ، حتى يثبته عمرو ، ويلزم به المسلمين .

ثالثا : إن بداية النزاع هي عزل أمير المؤمنين علي لمعاوية وهنا تمسك بالثأر لعثمان

---

(1) مروج الذهب ج2 ص27 .

(2) تاريخ الطبري ج5 ص55 .

(3) البداية والنهاية ج7 ص275 ، ومروج الذهب للمسعودي ج2 ص27 .

أو تسليم القتلة . ومعنى هذا تسليم معاوية لعلي بالخلافة « لأنه طلب منه ــ بوصفه الخليفة ــ تسليم القتلة أو إقامة الحد عليهم باعتباره أميرًا للمؤمنين .

رابعا : إن موقف أبي موسى في التحكيم ، لم يكن أقل من موقف عمرو بن العاص في شيء ، ولذلك عد المؤرخون المنصفون هذا الموقف من مفاخر أبي موسى ، بعد موته بأجيال . وأصبح مصدر فخار لأحفاده من بعده[1] .

خامسا : إن كل معسكر قد أرسل من جانبه أربعة آلاف جندي لحماية الحكمين وما يحكمان به ، وهذا الجمع لا يمكن أن يسكت على أية خديعة ، ولهذا سادت روح الأخوة والثقة بين الجميع ، ولهذا أيضا لم يتفق سلفا على أن يكون جميع المسلمين من الطرفين بقيادة شخص من القواد يتفق عليه لتنفيذ حكم الحكمين وذلك على الرغم من أن الحكمين قد فوضا في الفصل في النزاع نهائيا .

سادسا : كيف نهمل رواية الدارقطني عن التحكيم وفيها عزل معاوية وعلي حسبما جاء في الصفحات السابقة وفيها أن الناس قالوا ما قالوا ، وما كان الأمر على ما قالوا أي أن نتيجة التحكيم ليست كما قيل بل هي ترك الأمر للصحابة لاختيار خليفة من جديد يتولى حسم هذه الأمور .

سابعا : إن رواية الطبري في التحكيم هي عن أبي مخنف الأزدي ثم نقلها ابن مسكويه وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وهي في الحقيقة قد وردت في مصدر واحد هو الطبري وقد نقل عن لوط بن يحيى ويكنى أبو مخنف الأزدي ، ويروى عن التابعين فيخيل للقارئ أنه الصحابي الجليل مخنف بن سليم بن الحارث الأزدي ، ولكنه لوط بن يحيى ، إخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره ، قال ابن معين ليس بثقة[2] .

---

(1) العواصم من القواصم ص176 هامش 1 ، وأباطيل يجب أن تمحى ص 180 - 182 .

(2) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي ج3 ص420 وتهذيب التهذيب للعسقلاني ج10 ص78 .

دحض مفتريات

إنه من دواعي الأسى والأسف أن تتضمن بعض كتب التاريخ أمورا هي مفتريات على صحابة رسول الله ﷺ ، ثم يتلقف ذلك بعض من ادعى الحياد من الكتاب وما زالت هذه المفتريات إلى يومنا تتداول بغير تمحيص وإنصاف ، نذكر منها فيما يتعلق بهذه الفتنة أمثلة ونبين وجه الضلال والتضليل فيها :

(1) كثر الكلام على التحكيم ونتيجة التحكيم وأن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري فجعله يعلن عزل أمير المؤمنين علي من الخلافة بينما وقف عمرو بعده وأعلن تأييده لأبي موسى في عزل علي ثم أعلن تثبيت الخلافة إلى معاوية ، وهؤلاء الكتاب جميعا في القديم والحديث يثبتون أن معاوية لم ينازع أمير المؤمنين عليا في الخلافة و لم يطلبها لنفسه بل كان يطلب القصاص من قتلة عثمان ويظن أن الحق معه لأنه ولي الدم وهو مخطئ في ذلك[1] لأنه لا ينكر أحد أنه ما كان أمير المؤمنين متأنيا في إقامة الحدود على قتلة عثمان ولكن المشكلة كانت أكبر من ذلك ، فالمدينة كانت تحت سيطرة الثوار ولهذا قال أمير المؤمنين لطلحة والزبير كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . ثم قال إن هذا الأمر أي الثأر أمر جاهلية فاهدأوا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق[2] .

(2) قيل عن طلحة والزبير إنهما بايعا كرها عنهما بقوة السلاح وإنهما انضما إلى أم المؤمنين عائشة سعيا لعزل أمير المؤمنين علي بينما المصادر التاريخية لا تثبت شيئا من ذلك فهذه الأقاويل كذبها البخاري الذي لا ينازعه أحد في دقة التحقيق

---

(1) إمام الحرمين عبد الملك الجويني . لوامع الأدلة ص115 .

(2) الحقبة المثالية في الإسلام . إبراهيم شعوط ومحمود زيادة ج1 ص381 .

والتمحيص ، ولقد قال بن حجر عن المهلب (إن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا في الخلافة ولا دعوا إلى تولية غيره)[1] .

إن بعض الذين يعملون فكرهم في الأحداث التاريخية قد عللوا تجمع البصرة بذلك ، والثابت أن عددا كبيرا من الصحابة قد التجأوا إلى مكة ليعتزلوا الفتنة وأنه قد تجمع في البصرة أقوام يريدون قتل قتلة عثمان أولا بينما المتهم في قتل عثمان أفراد يزيدون على الألف واختلط الأمر بشأنهم فليس كل من اشترك في الثورة قد اشترك في قتل عثمان .

لهذا كان رأي طلحة والزبير أن يحسم أمير المؤمنين هذه المشكلة أولا ويبدأ في محاكمة قتلة عثمان قبل أن يعزل بعض الولاة الذين ولاهم عثمان ، فلما أوضح لهما المشكلة ذهبا مع أم المؤمنين عائشة إلى البصرة للسيطرة على الجماهير التي تطالب بالثأر من قتلة عثمان .

ويؤكد ذلك أن أم المؤمنين ردت على القعقاع بن عمر الموفد من والي البصرة بقولها جئت للإصلاح بين الناس فجمع طلحة والزبير عندها وأقرا أمامه بذلك ، فلما علم المتهمون بقتل عثمان أن هذا الصلح من شأنه أن يؤدي إلى إنزال العقوبة بهم اتفقوا على إفساد أمر الصلح وتسللوا في الظلام ووزعوا أنفسهم بين المعسكرين فاعتدوا بالسلاح على أهل البصرة وأشاعوا أنهم من أهل الكوفة فظن طلحة والزبير أن أمير المؤمنين لا يطاوعهم في الصلح .

وفي نفس الوقت تسلل هؤلاء إلى الكوفة وأحدثوا خيانة مماثلة بالاعتداء بالسلاح على جيش الكوفة وزعموا أنهم من أهل البصرة فظن أمير المؤمنين أن طلحة والزبير لا يطاوعانه في الصلح . ولقد أثبت الكامل لابن الأثير وغيره هذه الخديعة التي نفذها المتهمون بقتل عثمان[2] .

---

(1) فتح الباري ج13 ص41 .

(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص119 و ص 133 .

ولكن الدكتور طه حسين يظن أن الحياد والبحث العلمي في إنكار ذلك بغير دليل ، فكذب رواية الكامل لابن الأثير ودليله قوله أن هذا لا يصدقه إلا السذج[1] .

وموقف الفريقين يؤكد صحة رواية ابن الأثير فقد انسحب الزبير من المعركة موقنا بخطئه وصدقت أم المؤمنين عائشة ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقالت إنه من الأخيار وندمت على اشتراكها في الحرب ، كما صدقها كذلك وقال إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة[2] ، وأما طلحة فكان مترددا في الاستمرار في هذه الفتنة وعدل عن ذلك وعند عودته أصابه سهم فقتله .

(3) ليس صحيحا أن الصحابة رأوا عدم نصرة عثمان رضي الله عنه في محنته ، فصحيح أن المدينة كان بها نحو أربعين ألفا وأن الثوار لا يزيدون على الألف ، فكان من اليسير طردهم وتأديبهم ولكن الخليفة عثمان هو الذي أمر بعدم التعرض لهم ، وقال من كان في عنقه بيعة فليلزم داره وليغمد سيفه .

وأيضا لم يكن يتصور الصحابة أن هؤلاء سيصلون إلى هذه النتيجة ، سبق أن دخل الثوار المدينة وتعرض لهم علي بن أبي طالب مع آخرين وبعد حوارهم مع الخليفة أبدوا الاقتناع بسلامة تصرفاته وغادروا المدينة ولكنهم عادوا مرة ثانية في وقت واحد فتصدى لهم علي بن أبي طالب وقال لأهل الكوفة كيف علمتم بما يقول به المصريون إنهم وجدوا كتابا من الخليفة بقتلهم بينما سرتم مراحل إلى جهة أخرى .

هذا والله أمر أبرم بليل[3] ، ففي هذه المرة كان المتوقع أن تنتهي مشكلتهم بغير قتال ولكن هؤلاء أحاطوا بمنزل عثمان الذي أمر أهل المدينة بتركهم فانصرفوا[4] فيما عدا الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير فأقسم عليهم عثمان ابن عفان أن يدخلوا وأغلق الباب ليحول بينهم وبين الثوار .

---

(1) طه حسين ــ الفتنة الكبرى ص43 دار المعارف بمصر .

(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص205 .

(3 ,4) تاريخ الطبري ج3 ص351 , 383 والكامل لابن الأثير ج3 ص80 - 88 .

ويرجع السبب في موقفه هذا إلى أنه لا يريد أن يتحمل تبعة قتل أحد في سبيل الدفاع عنه ، فإن يقتل مظلوما خير من أن يقتل أحد بسببه ، فضلا عن ذلك فإنه قد رأى النبي ﷺ في المنام يقول له افطر عندنا الليلة ، وكان عثمان صائما فاستبشر بذلك واتخذ هذا الموقف .

(4) دعوى لعن علي رضي الله عنه :

إن ما كتب في عصر العباسيين تضمن أن الحكم الأموي كان يلزم الخطباء بلعن الإمام علي في خطبة الجمعة ، والثابت أن الصدر الأول للإسلام ليس فيه هذا النوع من الخصام ولم يثبت أن معاوية بن أبي سفيان قد سب عليا كرم الله وجهه ، أو لعنه مرة واحدة ، فضلا عن التشهير به على المنابر[1] .

وقد روى الطبري ، أن بشر بن أبي أرطاة ، نال من علي عند معاوية — وزيد ابن عمر بن الخطاب جالس — فعلاه زيد بعصا ، فشجه . فقال معاوية لزيد : عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته ؟

وأقبل على بشر فقال : تشتم عليا وهو جده — وهو ابن الفاروق — على رءوس الناس ؟ أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك ؟ ثم أرضاهما جميعا[2] .

هذا هو معاوية في موقف عدم الرضا ، عن التعرض لعلي رضي الله عنه .

ولنا أن نتساءل هنا ، لماذا يعنى بنو أمية بسب علي رضي الله عنه وهم الغالبون المنتصرون ؟

وماذا يمكن أن يقال في إجماع المسلمين على أنه لا يجوز لعن المسلم ، بل ولا لعن الكافر على التعيين .

وكيف نفسر ما نقله صاحب « العقد الفريد » ابن أبي الحديد — وهو شيعي —

---

(1) راجع تحذير العبقري من محاضرات الخضري ج2 ص198 للأستاذ محمد العربي التباني .

(2) الكامل ج3 ص362 ، والطبري ج5 ص335 .

« إن معاوية أخذ بيد الحسن بن علي ، في مجلس له ، ثم قال لجلسائه : « من أكرم الناس أبا وأما وجدا وجدة ؟ فقالوا : أمير المؤمنين أعلم ، فأخذ بيد الحسن وقال : هذا أبوه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت محمد ، وجده رسول الله ، وجدته خديجة .... »[1] .

ومع ذلك ، فالمفروض أن الذي يحمل الضغينة عادة ، هو المغلوب على أمره فإنه يتحين الفرص لينفس عن نفسه ، أو يثير الخواطر ضد الغالبين الذين اغتصبوا الأمر من أصحابه[2] .

ومعاوية قد آلت إليه الخلافة بتنازل الحسن فلا يوجد أي سبب ليحقد معاوية على الحسن أو أبيه .

* * *

(1) العقد الفريد لابن أبي الحديد ج3 ص33 .
(2) أباطيل يجب أن تمحى ص204 .

ظهور الخوارج ومشكلتهم

لم يكد الأشعث بن قيس يحمل وثيقة التحكيم ويطوف بها حتى انشق على أمير المؤمنين مجموعة كبيرة من جيشه ذكر الطبري أنها اثنا عشر ألف رجل تجمعوا في حروراء معترضين على التحكيم زاعمين أنه كفر بالله لأنه قد حكم الرجال ولا حكم إلا لله ، فأرسل إليهم أمير المؤمنين عبدالله بن عباس فناظرهم وأقنع الكثيرين منهم بل خرج إليهم الخليفة بنفسه وقال لهم : هذه كلمة حق أريد بها باطل .

ثم جادلهم وأوضح لهم أن الاحتكام إلى القرآن الكريم ، والقرآن لا يحكم بنفسه إنما يحكم الرجال بموجبه وذكرهم أنهم هم الذين ألحوا في قبول التحكيم فرجع كثير منهم ، وأما الباقون فقالوا لقد أخطأنا وتبنا إلى الله فإما أن تتوب معنا وإلا قاتلناك[1] .

ومع هذا ومع إصرارهم على تكفيره ومن معه رفض أن يصفهم بالكفر أو تطبق عليهم شيئا من أحكامه ، وقال إنما فعلوا ذلك متأولين لشبهة عندهم وليس لدينا شبهة ، إنهم على الإسلام[2] .

ويذكر المسعودي أن الذين ظلوا على رأيهم من الخوارج تجمعوا في نحو أربعة آلاف مقاتل[3] .

وقد وضع أمير المؤمنين قاعدة وقانونا للتعامل مع هؤلاء الخوارج الذين يصرون على تنفيذ آرائهم بالسيوف فقال لهم :

إن لكم عندنا ثلاثا :

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص65 .

(2) الفرق بين الفرق للبغدادي ص55 والحكم وقضية تكفير المسلم ص109 .

(3) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص415 .

(1) لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد .
(2) لا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا .
(3) ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا[1] .

وأرسل الخوارج رسائل لنشر فكرهم وتجميع الناس حولهم وحددوا للتجمع مكانا يعرف بالنهروان .

ووقفوا في الطريق يتعرضون للمارة ويسألونهم عن رأيهم في التحكيم فمن رضي به قتلوه زاعمين أنه ارتد إلى الكفر .

ولقد تألم أمير المؤمنين من ذلك ، ومما علمه من قتلهم عبدالله بن خباب وامرأته وآخرين وأرسل رسولا إليهم ليتأكد من صحة ما بلغه عنهم فقتلوا هذا الرسول وهو الحارث بن مرة العبدي .

واجتمع رأي أمير المؤمنين مع جيشه بالتحرك لقتال الخوارج حتى يكفوا عن قتل الناس .

وسار أمير المؤمنين حتى وصل النهر الذي يعسكر فيه الخوارج وقال لهم لماذا تستحلون قتالنا والخروج على جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ، ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم .

فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم حتى لا يصرفوكم عن الحق وتهيأوا للقاء الله إلى الجنة أي إلى القتال[2] .

فلما سمع أمير المؤمنين هذا منهم أمر أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية الأمان وأن يناديهم بالدخول تحت هذه الراية وتجنب سفك الدماء فسمعوا هذا النداء واختلفوا فيما بينهم فخرج عليهم فروة الأشجعي في خمسمائة فارس ورفض القتال وانصرف وانصرفت فئة أخرى إلى الكوفة وانضمت جماعة إلى أمير المؤمنين وتبقى

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص74 .
(2) الكامل لابن الأثير ج3 ص344 .

مع الخوارج ألفان وثمانمائة من أصل أربعة آلاف مقاتل وأمر أمير المؤمنين بعدم قتالهم ولكنهم زحفوا نحوه لقتاله فتصدت لهم جنود الإمام علي بخيولها فقتلتهم في سرعة فكأنما قال لهم موتوا فماتوا[1] . ولكن الذين لم يقتلوا من الخوارج والذين لم يدخلوا الحرب انقسموا بعد ذلك إلى عشرين فرقة أشدهم تطرفا المحكمة والأزارقة حيث يرون كفر مخالفيهم وأن مرتكب الصغائر يكفر[2] .

قتل ذي الثدية :

لقد أخبر النبي ﷺ عن هؤلاء الخوارج فقال (يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء ، يقرءون القرآن ، يحسبون أنه لهم ، وهو عليهم ، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل ، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد ليس فيه ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدي ، عليه شعرات بيض) . رواه مسلم وأبو داوود عن علي مرفوعا[3] .

لهذا يروي المسعودي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما انتهت معركة الخوارج أمر بطلب المخدج (ذو الثدية) فلم يجدوه فقام علي وعليه أثر الحزن لفقده وانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض وأمر بالبحث فيهم فاستخرجوه من بينهم فقال : الله أكبر ما كذبت على محمد ﷺ وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم طرفها حلمة مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع .

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص86 .

(2) الحكم وقضية تكفير المسلم . سالم البهنساوي ط ، دار البحوث العلمية بالكويت ، والبشير بعمان ص85 - 141 .

(3) صحيح الجامع الصغير ج6 ص333 ، الحديث 7912 .

ثم خر أمير المؤمنين لله ساجدا[1] .

وبعد هزيمة الخوارج تفرق أصحاب الإمام علي إلى أوطانهم ولم يبق معه إلا نفر يسير كان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة[2] .

الهدنة مع معاوية :

في بداية عام 39 هجرية أرسل معاوية جيوشه إلى الأطراف الموالية لأمير المؤمنين علي ليضم هذه الأطراف إليه لعلمه بأن فتنة الخوارج لن تمكن أمير المؤمنين من الالتفات إلى هذه المناطق ، ولكن معاوية فوجئ بأن كل جيش أرسله إلى مكان من الأطراف وصل إليه جيش من أنصار أمير المؤمنين فيعود جيش معاوية خائبا .

وبهذا أيقن معاوية أن المعارك لن تفيده في شيء ولن تنتهي إلى نتيجة حاسمة ولابد من صلح يحفظ الدماء والأرواح .

فكتب إلى أمير المؤمنين بذلك وتم تبادل عدة رسائل آخرها رسالة معاوية وفيها (أما شئت فلك العراق ولي الشام وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين)[3] وتراضيا على ذلك ، وعلي وضع الحرب وألا يدخل أحدهما على الآخر في عمله بجيش أو غارة أو غزوة[4] .

* * *

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص417 .
(2) المرجع السابق والكامل لابن الأثير ج3 ص348 .
(3, 4) تاريخ الطبري ج5 ص140 .

قتل أمير المؤمنين

إنه في العام الذي تمت فيه الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وألقى الناس أسلحتهم وأصبحوا آمنين إذا بالمؤامرة تدبر من الذين كانوا لا يريدون وقف هذه الحروب وذلك للتخلص من علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، وكان عمرو بن العاص قد استولى على حكم مصر ، بعد أن هلك الأشتر مقتولا بالسم بشربة عسل ، وكان أمير المؤمنين علي قد أرسله واليا على مصر . لقد اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك ابن عبدالله وعمرو بن بكر التميمي واتفقوا على أن يبيعوا أنفسهم لله بقتل هؤلاء الثلاثة فاختص ابن ملجم بأمير المؤمنين علي والبرك بمعاوية وابن بكر بعمرو ، وقد أخطأ البرك عند ضربه لمعاوية في صلاة الصبح ولم يصبه السيف في مقتل وقبض معاوية على القاتل فأخبره أن سيتم قتل أمير المؤمنين علي وطلب أن ينتظر عليه حتى يدله على ذلك فلم يقبل معاوية هذا ، وقتله وعولج معاوية من إصابته .

أما المكلف بعمرو بن العاص فقد رصده في صلاة الفجر فلم يخرج للصلاة وأناب عنه خارجة بن حذافة فقتله الجاني وقبض الناس عليه وقدموه إلى عمرو بن العاص فقتله .

أما ابن ملجم فقد ذهب إلى الكوفة واندس بين الناس والتقى بامرأة من تيم اسمها قطام ابنة شجنة قتل أبوها وأخوها مع الخوارج وكانت ذات حسن وجمال فعرض عليها أن يتزوجها مقابل قتل أمير المؤمنين مع أداء المهر فأحضرت له رجلا من أهلها

اسمه وردان ليساعده كما اتفق ابن ملجم مع رجل يقال له شبيب بن بجرة وعده ابن ملجم بشرف الدنيا والآخرة وهو قتل أمير المؤمنين رضي الله عنه كما يزعم غلاة الخوارج وجهلاءهم .

وفي يوم الجمعة السادس عشر من رمضان سنة أربعين هجرية أخذ الثلاثة سيوفهم وانتظروا مقابل الجهة التي يخرج منها أمير المؤمنين للصلاة فلما خرج ضربه شبيب وابن ملجم بالسيوف وخاف وردان وهرب وأصابت ضربة ابن ملجم رأس أمير المؤمنين ، فقال أمير المؤمنين النفس بالنفس . إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه الرأي[1] .

وتمكن الحسن بن علي من ابن ملجم فربطه بالحبال حتى ينتظر ما يحكم به الله في أبيه فلما توفاه الله قام الحسن وقتل ابن ملجم[2] .

* * *

---

(1) تاريخ الطبري ج5 ص146 .

(2) المرجع السابق ص149 والطبقات الكبرى لابن سعد ج5 ص149 .

الخليفة الرابع والاستخلاف

يروي المؤرخ الشيعي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة 346 هجرية أنه بعد أن طعن الإمام علي رضي الله عنه (دخل عليه ناس يسألونه فقالوا يا أمير المؤمنين أرأيت إن فقدناك أنبايع الحسن ؟ . قال لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم أبصر ، ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها . قُولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عونا ولا تأخذكما في الله لومة لائم ، ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال : أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعن أمرا دونهما ، ثم قال لهما : أوصيكما به فإنه سيفكما وابن أبيكما فأكرماه وأعرفا حقه . قال رجل من القوم : ألا تعهد يا أمير المؤمنين ، قال : لا ولكنني أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ قال الرجل : فماذا تقول لربك إذا أتيته ؟ قال : أقول اللهم إنك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم وإن شئت أصلحتهم ، ثم قال : والله إنها الليلة التي ضُرب فيها يوشع بن نون ليلة سبع عشرة وقبض ليلة إحدى وعشرين)[1] .

قال المسعودي وبقي أمير المؤمنين علي ، الجمعة والسبت ، وقبض ليلة الأحد ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة .

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج2 ص425 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط . دار المفرقة بيروت .

إلى متى يغتال الخلفاء الراشدون ؟

يحلو لنفر من الناس أن يشوه سيرة الصحابة وعلى الأخص الخلفاء الراشدون ، وفي سبيل ذلك يستحل الكذب والتدليس فينسب إليهم أقوالا وأفعالا من خياله المريض ثم يتجرأ ويزعم أنه نقل هذا عن كتب السنة ويذكر مصادر بصفحاتها حتى يوهم القارئ أن القول أو الخبر صحيح لوروده في هذه المصادر .

ونظرا لأنني قد أوفيت هذا الموضوع حقه في كتابي الحقائق الغائبة وكتابي الغزو الفكري للتاريخ والسيرة ، فاكتفي هنا بأمثله من هذه المفتريات التي وردت في كتاب (السبعة من السلف) .

(1) قال عن أبي بكر :

روى ابن جرير في تاريخه ج2 ص440 روى بسنده عن عاصم بن عدي قال نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وساق الحديث (إلى أن قال) وقام في الناس يعني أبا بكر فحمد الله وأثنى عليه وقال يا أيها الناس (إلى أن قال) فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني (إلى أن قال) وإن لي شيطانا يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني (الخطبة) (ص9 , 10 من الكتاب) .

ولا يوجد شيء من هذا في الجزء الثاني من كتاب ابن جرير الطبري وهذه الصفحات عن غزوة بدر .

(2) وروى عن ابن سعد في طبقاته ج3 القسم ص129 روى بسنده عن الحسن قال لما بويع أبو بكر قام خطيبا (إلى أن قال) وذكر نفس الرواية .

ولا يوجد في هذا الجزء من طبقات ابن سعد أي أثر لهذه الرواية وهذه الصفحات ورد بها زواج عبد الرحمن بن عوف عقب الانتهاء من سرية دومة الجندل في شعبان سنة 6 هجرية .

كما زعم أن هذه الرواية وردت في مجمع الزوائد للهيثمي ج5 ص183 ، وفي كنز العمال ج3 ص136 ، وهذين المصدرين لم يرد فيهما هذه الرواية عن أبي بكر ، وإذا وجد هذا الكلام لأبي بكر جدلا فلا يطعن فيه كما يزعم هؤلاء لأن النبي ﷺ قد أخبر أن لكل إنسان شيطانا يوسوس له وقال (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) ووردت آيات في القرآن الكريم عن هذه المهمة للشيطان[1] .

(3) زعم أنه ورد في كنز العمال ج3 ص139 وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، أن أبا بكر تفقد قوما تخلفوا عن بيعته وكانوا في دار (علي بن أبي طالب) فأبوا أن يخرجوا من الدار فبعث إليهم عمر بن الخطاب فأقسم أن يحرق الدار عليهم قيل له يا أبا حفص إن فيها فاطمة فقال وإن .

وبالرجوع إلى كنز العمال لم نجد فيها هذه القصة .

أما كتاب الإمامة والسياسة فقد وردت فيه القصة على نحو آخر غير الذي أورده كتاب السبعة من السلف .

فما ورد في كتاب ابن قتيبة (فخرجوا إلا عليا فإنه قال حلفت ألا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن) ص12 .

والجدير بالذكر أن كتاب الإمامة والسياسة مشكوك في نسبته لابن قتيبة ، وهذا الكتاب لا يعتد به في مجال الاستدلال والبحث العلمي .

(4) زعم أنه ورد في ميزان الاعتدال للذهبي ج 2 ص 215 حديث عن العقيلي قد اعترف هو بصحته عن عبد الرحمن بن عوف قال دخلت على أبي بكر أعوده فاستوى جالسا فقال : إني لا آسي على شيء إلا على ثلاثة وددت أن لم أفعلهن ،

---

(1) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) مجلد 3 ص2622 ط الشعب الآيات 2 إلى 30 من سورة الأعراف .

وددت أني لم أكشف بيت فاطمة وتركته وإن أعلن علي بن أبي طالب الحرب .

وذكر أن هذه القصة في الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وقد أوردت في البند السابق أن هذا الكتاب فيه أن من كانوا في دار علي بن أبي طالب خرجوا وظل علي ليعكف على جمع القرآن ، وهذا معناه أن أحدا لم يدخل الدار أو يقتحمها وذلك إن صح الأخذ من كتاب الإمامة والسياسة .

أما ميزان الاعتدال للذهبي فليس فيه هذا الحديث المنسوب للعقيلي إنما ورد به حديث عن الحوريات في الجنة وحديث عن التسبيح عقب الصلوات .

والذي قاله أبو بكر في مرضه (وددت أني يوم السقيفة كنت قد قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين ، فكان أحدهما أميرا وكنت وزيرا)[1] .

(5) ذكر في صفحة 23 أن البخاري قد روى في كتاب بدء الخلق في باب غزوة خيبر أن (فاطمة) لما توفيت دفنها زوجها (علي) ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر .

وهذه القصة لا وجود لها في البخاري في كتاب بدء الخلق أو باب غزوة خيبر .

(6) أورد في ص39 أنه وجد في المستدرك على الصحيحين أن أبا بكر انهزم في خيبر ورجع .

وبالرجوع إلى المستدرك ج4 ص37 يتضح افتراء المؤلف فتوجد روايتان هما :

الأولى : (وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالا شديد ثم رجع) . هذا حديث صحيح الإسناد .

الثانية : أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر إلى بعض حصون خيبر فقاتل وجاهد ولم يكن فتحا . وهذا أيضا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه الشيخان .

(7) كما أورد المؤلف في نفس ص39 أن رسول الله ﷺ بعث عمر — إلى حصن خيبر — فرجع منهزما .

---

(1) الصديق أبو بكر للدكتور هيكل ص380 .

وبالرجوع إلى مجمع الزوائد ص9 ص124 للهيثمي وجدت رواية الحديث سالف الذكر ولكن علق على هذا الحديث الذي رواه الطبراني بأن فيه حكيم بن جبير وهو متروك ليس بشيء .

والرواية الثانية لهذا الحديث التي رواها البزار فيها محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ وهؤلاء لا تؤخذ روايتهم بإجماع العلماء ، وهذا يدل على أن هذا المؤلف يبحث عن الروايات الساقطة والتي تسيء إلى الصحابة . ويزعم صحتها فضلا عن الافتراءات التي يدعي أنها في الكتب الصحاح .

(8) أورد في ص52 أنه قد جاء في كنز العمال جـ 3 ص 134 أن عمر قال لزوجات النبي ﷺ (إنكن صواحب يوسف) .

ويبني المؤلف على ذلك أن عمر كان يسيء الأدب مع زوجات النبي ﷺ .

وبالرجوع إلى كنز العمال لم نجد به ما أورده المؤلف وإنما ورد به في هذه الصفحة حديث (التأني من الله والعجلة من الشيطان) .

والصغير والكبير من القراء لا يجهل أن النبي ﷺ في مرضه قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فقالت إنه رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن يبكي . فقال النبي (إنكن صواحب يوسف فمروه فليصل بالناس)[1] .

وهذه العبارة ليست فيها إساءة إلى أم المؤمنين عائشة .

هذا وأحيل إلى كتابي الغزو الفكري للتاريخ والسيرة في تفنيد مفتريات من اتهموا كبار الصحابة بالفسق والكفر ونسبوا إليهم روايات يدرك كل عاقل كذبها قبل أن يبحث عن مدى صدق رواتها وعدالتهم ، من تلك المفتريات الواردة في كتاب

---

(1) تهذيب سيرة ابن هشام . عبد السلام هارون ص388 .

(الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم) للشيخ زين العابدين العاملي حيث زعم أنه مكتوب في اللوح كتاب من الله عز وجل به أسماء الخلفاء الذين سيخلفون النبي ﷺ .

وزعم أيضا أن النبي ﷺ أنبأ أم المؤمنين حفصة أن أباها وأبا بكر سيليان الحكم من بعده فأفشت ذلك إلى أم المؤمنين عائشة التي نقلت ذلك إلى أبيها فاتفق مع عمر أن يسقيا النبي ﷺ سما ليموت فيتعجلا الخلافة من بعده فنزلت سورة التحريم وفيها ﴿ **وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾ (سورة التحريم 3 ,4) .

ثم يقول الكاتب لقد نزل القرآن يفضح أبا بكر وعمر ويحكم بكفرهما في قول الله تعالى ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ (التحريم 7) .

إن كل صبي يدرك أن سورة التحريم قد بدأت بقول الله تعالى ﴿ **يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ .

وهذا يعني أن النبي ﷺ حرم على نفسه شيئا مرضاة لأزواجه ، ولا توجد أي إشارة من قريب أو بعيد عن أبي بكر وعمر أو غيرهما من الصحابة والتهديد الوارد في الآيات الأخرى موجه إلى اثنين من زوجات النبي ﷺ حيث تظاهرا في إفشاء حديث أسره النبي إلى أحدهما وهو يتعلق بما ورد في بداية السورة أي تحريم شيء .

فكيف يقبل أي قارئ أن تصبح معاني هذه الآيات خاصة بمؤامرة لقتل النبي بمعرفة أبي بكر وعمر ؟

وكيف يقبل أي عاقل (إن صح هذا الأمر) أن يغفله القرآن الكريم ، فقد نزل به حكم من أفشت القول ولم يرد بالقرآن أي شيء عن الذين يشرعون في قتل النبي إن صح جدلا مثل هذه الأوهام التي تمتلئ بها رءوس بعض المنتسبين إلى العلم ،

ثم يرددونها إلى أتباعهم الذين يلغون عقولهم جريا وراء عاطفة كاذبة .

إن هذه الخصومة لم تكن قائمة عند أئمة الفقه الإسلامي .

فها هو الإمام جعفر الصادق قد درس عن الإمام مالك بن أنس وأخذ عنه العلم .

وابنه الإمام محمد الباقر قد تبرأ ممن يسب صحابة رسول الله ﷺ ، كما تبرأ ممن ينكر إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

والقاسم بن محمد بن أبي بكر هو جد الإمام جعفر الصادق من جهة أمه ومن ثم أخذ العلم عن بيت أبي بكر الصديق .

كما روى الإمام أبو حنيفة عن الإمام جعفر الصادق وأخذ من علمه .

والإمام علي زين العابدين كان يأخذ العلم عن علماء عصره دون تفرقة بينهم .

والإمام علي رضي الله عنه قد سمى ثلاثة من أولاده بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان .

وابنيه ، الإمام الحسن والإمام الحسين قد اختارا هذه الأسماء لأولادهما كما فعل ذلك الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين .

لقد ذكر ذلك اليعقوبي في تاريخه ج2 ص11 والأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبين ص142 والشيخ المفيد في كتابه الإرشاد ص186 .

وبعد : فمن كان له عينان فليقرأ ، ومن كان له أذنان فليسمع .

وبالله تعالى نعتصم ونتأيد .

سالم البهنساوى

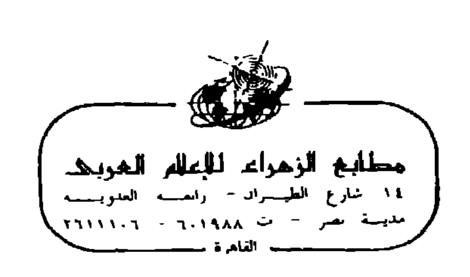
الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



رقم أيداع : ٩٧٥١ / ١٩٩١
الترقيم الدولي : ٥ ـ ٠٦٤ ـ ٢٥٧ ـ ٩٧٧



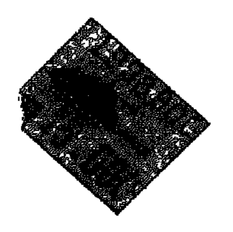
الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية

هذا الكتاب دفاع مجيد عن مبدأ الشورى في الإسلام ، ورد حاسم على المفتريات والدعاوى التي أثارها أعداء الإسلام ضد الصحابة والخلفاء الراشدين وبه تواصل الزهراء للإعلام العربي دورها الذي نذرت نفسها من أجله وهو الدفاع عن الإسلام ومبادئه ورجاله .

لقد كان الصحابة ، من حيث هم التطبيق العملي للإسلام ، هدفا لسموم الأعداء والمشككين ، حاولوا عن طريقه تقويض الإسلام وزعزعة أركانه ، وبث الشكوك حول مبادئه ؛ والمؤلف يتتبع هذه الشكوك والمفتريات مفندا إياها ومقدما الأسباب والمبررات التي دارت حولها الأحداث وذلك في أسلوب مشرق يعتمد المنطق والحقائق العلمية ويهدف إلى بيان وجه الإسلام الناصع وتنقيته من الشوائب التي أراد أعداء الإسلام أن يعلقوها به .

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

الناشر



الزهراء للإعلام العربي